علاقات الناس وميولهم

الأب أنستاس ماري الكرملي و « محيط المحيط »

د. عبد الكريم اليافي

الأرواح جنود مجندة

من ذا الذي لا يروي حديث الرسول (ﷺ) : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . علاقة الانسان العفوية بأخيه الانسان موضوع تفكر وتأمل طويلين ، ومجال تحدّث وروايات في غضون التاريخ الأدبي . ويدخل في هذا الشأن حب المرء لحبيبه وشغفه به أحيانا منذ النظرة الأولى واللقاء الأول .

من العلماء الحديثين الذين عالجوا علاقات الناس بعضهم ببعض علماء التحليل النفساني أمثال فرويد وأدلر ويونغ وأمثالهم . ولكنا هنا نحبّ أن نتكلم في هذا المضمار على اتجاهين حديثين نسبياً هما ما جاء به الطبيب الهنغاري ليبوت سوندي اذ ألّف كتاباً بعنوان « تحليل القدر » بحث فيه عن أسباب الميول المختلفة كالحب والصداقة والاستحسان وانتخاب حرفة دون أخرى حتى أسباب التعرض لنوع من المرض أو الهلاك بصنف من أصناف الموت . وبحوث هذا الطبيب تركيب لأمور بيولوجية ونفسية واجتماعية .

من المعلوم في علم الوراثة أن الجينات أو المورثات هي التي تنقل الخصائص الوراثية من الآباء والأمهات الى الأبناء والبنات وأنها نوعان : سائدة أو غالبة ، وصاغرة أو مغلوبة . وهي جميعاً تشترك في تكوين الفرد وتعيين شكله وملامحه وطباعه ونفسيته .

يرى سوندي أن الجينات السائدة تنقل الوراثة الظاهرة وتعين المزاج والشكل والملامح ، وأن الجينات الصاغرة تحمل قوة تدفع الأفراد بعضهم نحو بعضهم متى تشابهت هذه الجينات وتماثلت ، فهي مع أنها أشياء بيولوجية خفية ذات تأثير في المجموعة النفسية ولا سيما في نطاق اللا شعور ٠

يقول سوندي ما معناه : أن الانسان يميل الى آخر في الحب أو الصداقة أو الاستحسان أو في نطاق الحرفة كعلاقة المريض بالطبيب أو التلميذ بالأستاذ أو الاشتراك في تصور مثل أعلى واحد حين يتماثل أو يتشابه القسم الأكبر من جيناتهما الصاغرة ٠

والخلاصة أن الطبيب الهنغاري يردميول الأفراد بعضهم نحو بعض الى أمور بيولوجية ٠ وهو في كتابه « تحليل القدر » يفحص اتجاه قدر المرء ويرجعه الى دوافع لا شعورية ناشئة عن تلك الجينات الخفية ٠ وكأن تحليله هذا على حد تعبيره هو كشف عن شجرات الأنساب اللاشعورية عند الناس ٠

ثمة اتجاه أحدث وأهم وأكثر موضوعية وواقعية في تحليل علاقات الناس وميول بعضهم نحو بعض نجده في البحوث الاجتماعية الأمريكية التي تتسمى بالسوسيومتريا ٠ وموضوع البحث في هذه المدرسة الاجتماعية شخصية الانسان في نسيج علاقاته بالآخرين ٠ تقوم هذه العلاقات على أشكال من التجاذب والتنافر وضروب من الائتلاف والاختلاف ودرجات من الاهتمام أو قلة المبالاة ٠ وقد أنشأت هذه المدرسة اختبارات وروائز تُجريها على جماعات محصورة النطاق كالمدارس والمعامل والأسر والأندية وسكان بناية واحدة وفرق الرياضة وأفراد أسراب الطيران وأمثالها. وتدخل في هذه الدراسات حتى دور العجزة والتأهيل والسجون ٠ والغرض منها استشفاف القوى النفسية الكامنة في هذه الجماعات أي ما يختلج اختلاجاً عفوياً في نفوس الأشخاص بعضهم تلقاء بعض من تجاذب أو تنافر أو قلة مبالاة حين يلتقون أو يعملون أو يتعايشون ٠ ولا شك أن تلك القوى النفسية ذات أثر كبير في رضا الأفراد وفي حسن نتائج الأعمال التي يراد انجازها وفي الوصول الى الغاية التي يراد بلوغها ٠ وقد شرحنا ذلك بشيء من التفصيل في كتابنا « تمهيد في علم الاجتماع » ٠

على أن قضية العلاقات الانسانية تتعقد حين يكون البحث علاقة عالم بعالم وأديب بأديب وشاعر بشاعر ومؤلف بمؤلف وصاحب حرفة بآخر له ذات الحرفة وهلم جرا • فهناك شؤون وعوامل كثيرة تدخل في الحُسبان كتفهّم الواحد للآخر وتقديره له والتعاون معه أحياناً ، وكالغيرة والحسد وكاحتجان الشهرة أو المنصب دون استحقاق ، كما يدخل في ذلك الاتجاه السياسي والانتماء العنصري والمذهبي • وكل هذه الأمور آفات تصيب تلك العلاقات فتفسدها وتشوهها وتصرفها عن الغايات البنّاءة والأهداف التعاونية والمقاصد الانسانية الصحيحة •

ونريد هنا أن نتأمل شيئاً ما علاقات الأدباء والعلماء عامة في القديم وفي الحديث توطئة لموضوعنا الأصلي هنا وهو المآخذ المستدركة على قاموس « محيط المحيط » تكملة لما أوردناه في العدد الأخير من مجلة « التراث العربي » تصحيحاً لتلك الهفوات وتفادياً من تلك المستدركات •

علاقات العلماء والأدباء :

كنا عالجنا جانباً من هذا الموضوع في خطاب استقبالنا في مجمع اللغة العربية بدمشق نورد هنا بعض عباراته ونزيد عليها بما يستيسر من القول •

ان حياة المتفننين والأدباء والعلماء كلها دروب شوك تدمى فيها قلوبهم بعد أن تدمى أقدامهم • كلها أولاً كفاح ازاء الموضوعات التي يعالجونها ويبذلون طاقاتهم في التغلب على مشقاتها ويكابدون ما يكابدون حتى يقيّض لهم النجاح ، فينيروا بسنا أقلامهم ظلمات تلك الموضوعات • وكلها كفاح آخر في اطار المجتمع الذي يعيشون بين ظهرانيه • فهم قد خلقوا للمعالي ، ولكنهم يجدون أنفسهم محفوفين بأشواك المآرب المادية • وهم ينظرون فيما حولهم يلتمسون ما يستندون اليه في تحقيق طاقاتهم الروحية • فاذا هم بين مدّ وجزر ، وعرفان وانكار ، وعوز وتبلّغ • وفي تاريخ الأدب لواعج بائسة ونأمات يائسة تندد بحرفة الأدب التي تغدو حُرفة في العيش وحرقة في الجأش ، حتى أصبحت مضرب المثل •

اذا عنيت لشأو قلت اني قد ... أدركته أدركتني حرفة الأدب

كما يحدث عن نفسه أبو تمام •

فيالك بحراً لم أجد فيه مشرباً ... على أن غيري واجد فيه مسبحا

كما يلتاع ويلتاح ابن الرومي • هذه الشكاة المترددة المتواترة تؤلف موضوع كتاب في الأدب العربي •

على أني أترك حلبتي الكفاح هاتين لأفصل بعض الشيء في وصف حلبة ثالثة ليست أقل خطراً ولا أوهى شرراً ولا أخف ضرراً • ألا وهي علاقة العالم بالعالم والأديب بالأديب والمفكر بالمفكر، اذيدبّ الشنآن بينهم بدل العرفان، والتشادّ عوض التساند • ان مشاعر الانسان لتبدو أحياناً غريبة متناقضة مرتبكة • فقد يشعر المرء بقوته ويدرك مزاياه ولكنه يحسب أنها مقصورة عليه وخاصة به لا يجوز لأحد أن يشاركه فيها كأنه على حد تصوره وفي حيز توهمه إله صغير متفرد • هيهات هيهات ! ولا يكاد ينتبه للفروق بينه وبين رصفائه واخوانه وهي التي تجمعهم لتحقق كمالهم معاً • فان نجاحهم يدعم نجاحه ونجاحه يقوي نجاحهم ويزيد فيه •

مثل الأديب في تلك المشاعر المحدودة الضيقة مثل الطير الجميل أبي الحناء أو أبي الحن كما ندعوه هنا في ربوع الشام • انه معجب بذاته • جناحاه تقول ذهبتهما الشمس أي تذهيب، وصدره يمثل بلونه الأحمر وهج قلبه الخفاق الملهم • يعيش منفرداً في روض أو بستان • فان هبط البستان أو الروض أبو حن آخر فيا للويل ! يطير اليه كالسهم المريش منقضاً على زينة صدره الحمراء يفتك بها • كيف استطاع طير آخر من نوعه أن يحرز هذه الشارة البديعة وأن تكون له تلك المزايا ؟ كأنه لا يفطن للفروق العميقة التي تفصل بين كائن وآخر والتي يصح أن تكون سبباً للتتامّ والانسجام وللتآزر والالتئام !

كم يعرض علينا تاريخ الفكر الانساني أمثلة غريبة لهذا التنافر بين رجال الفكر يهدر طاقاتهم ويبدد قواهم ! •

ويجوز أن نقول أيضاً : ان أولئك الأطفال الكبار ما زالت نامية عندهم غريزة الاعتداء التي نوه بها فرويد، الى جانب قوة الحياة الفطرية التي يدعوها الليبيدو، يتهددون بها نظراءهم بدلاً من دعمها لأهدافهم العالية •

أتذكر في عالم الفكر الغربي شوبنهور المتشائم الذي لم يستطع أن يتحمل نجاح رصيفه هيغل في جامعة برلين قبل نحو من قرن فترك التدريس وعكف

يقول : أتصوّر أن يقضمني الدود ولا أتصور أساتذة تاريخ الفلسفة يشرحون فلسفتي ؟ أم نذكر برنردان دوسان بيير مؤلف كتاب بول وفرجيني الذي ترجمه المنفلوطي ترجمة فاقت الأصل ؟ فلقدكان برنردان سيء العشرة مع زملائه وأهليه على أن روايته تفيض بالبراءة والمحبة ، أم نذكر دوغا المصور الفرنسي الذي كان سليط اللسان مع أقرانه من المصورين ·

دعوا عالم الفكر الغربي · فتراثنا أوسع وأحفل بالأمثلة من كل نوع · ربما يبتدر الذهن في الغابر خصومة جرير والفرزدق والأخطل أو البحتري وابن الرومي أو ابن الرومي والأخفش الأصغر أو المتنبي وحسدته في بلاط سيف الدولة ، كما يبتدره في القريب الحاضر خصومة شوقي والعقاد وطه حسين ومصطفى صادق الرافعي · ولكني أترك ما هو مشهور الى ما هو متوار في سواد الأسفار · انني أتخطى القرون لأصل الى أبي عبيدة معمر بن المثنى البصري. كان واسع المعرفة · ذكر ياقوت قول الجاحظ فيه : « لم يكن في الأرض خارجيٌّ ولا اجماعي أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة» · وكان يتهم بانه خارجي أو بأن هواه معهم · ولكنه مع سعة معرفته اشتهر بحدة لسانه وسلاطته . ذكر ياقوت أنه « لم يحضر جنازته أحد لأنه لم يكن يسلم من لسانه أحد لا شريف ولا غيره ». وروى ياقوت أيضاً : « كان الأصمعي اذا أراد الدخول الى المسجد قال : انظروا لا يكون فيه ذاك · » يعني أبا عبيدة · ثم اني لأتخيل العلَمين العالمين الكبيرين أبا العباس محمد بن يزيد المبرّد امام المذهب البصري وأبا العباس أحمد بن يحيى ثعلباً امام المذهب الكوفي · كناهما واحدة · ذكر السيوطي في المزهر أنه « حيث أطلق البصريون أبا العباس فالمراد به المبرد · وحيث أطلقه الكوفيون فالمراد به ثعلب » · ضربت الشحناء بينهما على ألا يلتقيا أبداً · فأصبحا مثلا في التدابر مع أن كل شيء كان يدفعهما الى التعاون وتقدير أحدهما الآخر · فقد نشأ فقيرين وبرّزا في ميدان العلم وصعدا في سلم الحياة الاجتماعية ، وهما يسعيان في مضمار واحد وهو اللغة والنحو والأدب وأمثالها · وقد تنادر شاعر غزل على هذا التباعد في البلد الواحد ، فكتب الى حبيبته بهذه الأبيات :

كفى حزنا أنا جميعا ببلدة ... ويجمعنا في أرض برشهر مشهد
وكلّ لكل مخلص الود وامق ... ولكنّه في جانب عنه مفرد

نروح ونغدو لا تزاور بيننا وليس بمضروب لنا منه موعد
فأبداننا في بلدة والتقاؤنا عسير كأنا ثعلب والمبرّد

ولكن ثعلباً والمبرد لم يكونا حبيبين ولا يمق أحدهما الآخر بل كانا لدودين ، يتبادلان على البعد السهام المسمومة علناً وخفاء ·

وقد ذكر الرواة أن المبرد كان « من العلم وغزارة الأدب وكثرة الحفظ وحسن الاشارة وفصاحة اللسان وبراعة البيان وملوكية المجالسة وكرم العشرة وبلاغة المكاتبة وحلاوة المخاطبة وجودة الخط وصحة القريحة وقرب الافهام ووضوح الشرح وعذوبة المنطق على ما ليس عليه أحد ممن تقدمه أو تأخر عنه » ·

ومع هذه الشمائل العالية لم يتورع أن يقول هذين البيتين في رصيفه ثعلب :

أقسم بالمبتسم ـ العذب ومشتكى الصب الى الصب
لو أخذ النحو عن الرب ما زاده الا عمى القلب

ولا يخلو الجو من سعاة بين طلابهما، فقد حمل أحدهم البيتين وأنشدهما ثعلبا فتمثل هذا عندئذ بقول الشاعر :

أسمعني عبد بني مسمع فصنت عنه النفس والعرضا
ولم أجبه لاحتقاري له ومن يعض الكلب إن عضا

ولكن ثعلباً على خلاف ما ادعى قد رد بهذين البيتين عضة بعضة · قد يقال: إن مثل هذه العداوة بين العلماء والأدباء ينشأ في مجتمع يتخلله سوء توزيع الثروة · فان حب الكسب والطمع في جمع المال سبب للتحاسد والتباعد والتباغض· وحقاً كان كلاهما من بيئة فقيرة علَيا بالعلم في ذلك المجتمع العباسي الذي استطاع فيه المبرد ، ولم يبلغ الأربعين من عمره ، أن يحمل الى بلاط المتوكل في سر من رأى مكرماً ليكون حجة يرجع اليه في النحو واللغة والقراءة والتفسير ·

ويروي الرواة أن المبرد كان « ممسكاً بخيلا يقول : ما وزنت شيئاً بالدرهم الا رجح الدرهم في نفسي · هذا مع السعة التي كان فيها · وكان ثعلب أشد منه في الامساك · وكان المبرد يصرح بالطلب، وثعلب يعرّض ويلوّح».

بيد أن هذا التعليل على وجاهته لايكاد يكفي • ذلك أننا نجد في تلك العهود أمثلة رائعة على التوادّ والتضامن والتراحم بين الأدباء حين يتجاوزون التنافس الى ادراك الفروق بينهم وتقدير بعضهم لمزايا بعض • وربما كان أبلغ تعبير عن تفاوت المزايا وتتامها حكمة صوفي قديم وهو أبو بكر الطمستاني حين ينبه على أن لكل نفس سبيلا خاصاً بها الى معالي الأمور فيقول : « الطرق الى الله بعدد الخلق » • ويقول أيضاً : « خير الناس من يرى أن الخير في غيره ويعلم أن السبل الى الله كثير غير السبيل الذي هو عليه لكي يرى تقصير نفسه بنفسه فيما هو عليه » • لهذا لا نعجب من الصداقة التي أصفاها رأس الشعراء العباسيين أبو تمام شعراء عهده • بل نتغنى مرة ثانية بخطابه البليغ لصديقه الشاعر علي بن الجهم منوهاً بالأخوة التالدة بين أهل الأدب وان اختلفت آفاقهم الجميلة :

إن يُكدِ مطرف الاخاء فاننا ... نغدو ونسري في إخاء تالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا ... عذب تحدر من غمام واحد
أو يفترق نسب يؤلف بيننا ... أدب أقمناه مقام الوالد

وأبدع من هذا وأعلى وأروع موقف الأديبين يفدي كل منهما الآخر بنفسه • كأن أمثال هذا الموقف قد وقفها أصحابها ليعلنوا الى الأجيال كافة تضامن العلماء والأدباء والمفكرين كأشد أنواع التضامن • فقد نقل ابن خلكان عن الجهشياري في كتاب « أخبار الوزراء » أن عبد الحميد الكاتب قد طلب عند انقراض الدولة الأموية ومطاردة بني العباس للأمويين وأنصارهم بالقتل والتشريد • وكان عبد الحميد صديقاً لابن المقفع • « ففاجأهما الطلب وهما في بيت • فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل واحد منهما : أنا، خوفاً من أن ينال صاحبه مكروه • وخاف عبد الحميد أن يسرعوا الى ابن المقفع فقال : ترفقوا بنا ، فان كلاً منا له علامات • فوكلوا بنا بعضكم ويمضي البعض الآخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم • ففعلوا • وأخذ عبد الحميد » الى حيث لقي حتفه •

من فضول القول ألا نطلب الى الأدباء والباحثين أن يكونوا على غرار هذين الصديقين الودودين ولا على غرار حبيب وعليّ • ولكنا نطلب اليهم أن يدركوا

الثمرات الطيبة التي يجنونها من تعاونهم في خدمة أمتهم ووطنهم ولغتهم ، وننشد على الأقل ما قاله يزيد بن الحكم الكلابي من قصيدة جيدة كانت معروفة :

فليت كفافا كان خيرك كله وشرك عني ما ارتوى الماء مرتوي

والغريب أن المخاشنة والشدة والتصلب تفجؤنا فيمن نظن فيهم الحلم والمعاملة الحسنة والتسامح واليسر الى جانب العلم والتبحر • وهذه شنشنة الأب أنستاس ماري الكرملي في مناظراته مع رصفائه واخوانه وأشباهه من العلماء واللغويين ولا سيما في استدراكاته على المعلم بطرس البستاني • وربما كان حبه للعلم وحرصه على الدقة واستشرافه للكمال أكد فيه تلك الشنشنة •

الأب أنستاس ماري الكرملي

اسمه الأصلي بطرس بن ميخائيل جبرائيل عواد • ولد ببغداد عام ١٨٦٦[١] من أب لبناني وأم بغدادية • تعلم في مدارس بغداد ثم عند الآباء اليسوعيين ببيروت، ثم في دير الكرمليين في شيفرمون ببلجيكا • وترهب هناك عام ١٨٩٤ واتخذ اسماً جديداً له وهو الأب أنستاس الكرملي • وعاد الى وطنه ، فأدار مدرسة الكرمليين وعلم فيها العربية والفرنسية ، وطفق ينشر مقالات كثيرة في مجلات العراق والشام ومصر موقعة تارة باسمه وتارة بأسماء مختلقة مختلفة • وزيادة على تبحره في العربية واتقانه الفرنسية تعلم اللاتينية واليونانية وشدا شيئاً من اللغات الشرقية كالتركية والفارسية والحبشية ومن اللغات القديمة كالسريانية والعبرانية ليتحرى في هذه اللغات جميعاً علاقاتها باللغة العربية •

وكان معجباً بهذه اللغة ملكت عليه لبه ، وغدا المدافع القوي والمدره البليغ تلقاء الركاكة والعجمة والرطانة وقلة التحري والتبصر •

وقد قدرته الهيئات العلمية فانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، وفي مجمع فؤاد الأول بالقاهرة، وفي لجنة التأليف والترجمة والنشر العراقية ببغداد •

اشتغل بالعلم واللغات والكتابة طول حياته • وتدور بحوثه الكثيرة على اللغة

---

١ ـ في كتاب الاعلام ١٨٤٦ وهو خطا •

والتاريخ والتراجم والأقوام والملل والكتب والحيوان والنبات والأحجار الكريمة والآثار وغير ذلك ٠

أصدر مجلة « لغة العرب » خلال السنوات (١٩١١ ـ ١٩١٤) و (١٩٢٧ ـ ١٩٣١) فظهر منها تسعة مجلدات كاملة ٠ وكانت من أجود المجلات وأغناها مادة وفائدة ٠

نفاه العثمانيون في أثناء الحرب العالمية الأولى الى الأناضول سنة وعشرة أشهر ثم آب الى بغداد ٠ وقد سافر الى أوربة مراراً ، وجعلته حكومة العراق في عهد الاحتلال البريطاني من أعضاء مجلس المعارف ٠ تولى تحرير مجلة « دار السلام » وهي مجلة اسبوعية تبحث في التاريخ والآداب والسياسة صدر منها أربعة مجلدات (١٩١٨ ـ ١٩٢٣) ، وأشرف أيضاً على تحرير جريدة سياسية تحمل اسم «العرب» أصدرتها الحكومة العراقية في عهد الاحتلال البريطاني ، ولم يكن اسم الأب يذكر فيها ٠

وقد طبع كتباً متعددة نذكرها هنا نقلا عن مقالة كتبها كوركيس عواد ونشرها في مجلة المجمع العلمي العربي (مجلد ٢٣) :

١ ـ نخبة من كتاب العروج في درج الكمال والخروج من درك الضلال : كُتب في صدره انه لأبي الخير فهر بن جابر المتكال بن عائذ بن جاهل بن فاتك بن عدي بن عمار الطائي ، المتوفى سنة ٢٢٦ هـ ٠ (بيروت ١٩٠٨) ٠

٢ ـ الفوز بالمراد في تاريخ بغداد ٠ (بغداد ١٩١١) ٠

٣ ـ بحث في اليزيدية بالفرنسية ، نشره في المجلد السادس من مجلة Anthropos الصادرة في فينا بالنمسا ، سنة ١٩١١ ، ثم طُبع على حدة ٠ وهذا عنوانه :

La découverte récente des deux livres sacrés des Yézidis. (Wien, 1911).

٤ ـ كتاب العين : للخليل بن أحمد ، المتوفى سنة ١٧٤ هـ ٠(طُبع منه ببغداد سنة ١٩١٤، نحو ١٤٤ صفحة ٠ ثم جاءت الحرب الكبرى الأولى ، فحالت دون اكمال طبعه) ٠

٥ ـ خلاصة تاريخ العراق منذ نشوئه الى يومنا هذا ٠ (البصرة ١٩١٩) ٠

٦ ـ ترجمة حياة الأب مارية يوسف ، رئيس الرسالة الكرملية في بغداد من سنة ١٨٥٨ الى ١٨٩٨ ٠ (نقله الى العربية ، وطبعه ببغداد سنة ١٩٢٩) ٠

٧ ـ الاكليل : للهمداني ، المتوفى سنة ٣٣٤ هـ ٠ (الجزء الثامن ٠ بغداد ١٩٣١) ٠

٨ ـ أغلاط اللغويين الأقدمين · (بغداد ١٩٣٢) ·

٩ ـ تذكرة الشعراء ، أو شعراء بغداد وكتّابها في أيام وزارة المرحوم داود باشا والي بغداد في حدود سنة ١٢٠٠ الى سنة ١٢٢٦ للهجرة : تأليف عبد القادر الخطيبي الشهرباني · (بغداد ١٩٣٦) ·

١٠ـ رسالة في الكتابة العربية المنقحة · (بغداد ١٩٣٦) ·

١١ـ نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها · (القاهرة ١٩٣٨) ·

١٢ـ نخب الجواهر في أحوال الجواهر : لابن الأكفاني السنجاري ، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ · (القاهرة ١٩٣٩) ·

١٣ـ النقود العربية وعلم النُّميّات · (القاهرة ١٩٣٩) ·

١٤ـ بلوغ المرام في شرح مسك الختام في مَن تولى مُلك اليمن من ملك وامام : للقاضي حسين العرشي ، المتوفى بعد سنة ١٣٣٠ هـ · (القاهرة ١٩٣٩) ·

كما أنه أنفق على طبع المجلد التاسع من « الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السيَر » لابن الساعي المؤرخ البغدادي ، المتوفى سنة ٦٧٤هـ · وقد حقق هذا المجلد الدكتور مصطفى جواد · (بغداد ١٩٣٤) ·

وقد عزز أكثر الكتب التي طبعها بالحواشي والتعليقات والفهارس المفيدة توفي ببغداد عام ١٩٤٧ ·

وترك رسائل كثيرة وكتباً متعددة مخطوطة بعضها غير كامل · أهمها معجم كبير أمضى شطراً كبيراً من حياته في جمعه وتأليفه سماه « المساعد » جمع في خزائن كتبه الى آخر عمره زهاء خمسة عشر ألف مجلد منها ألف وخمسمائة مخطوط · بعضها نادر · وقد وقف هذه الكتب على دير الآباء الكرمليين ببغداد ·

كان الأب في كتاباته ومناظراته مقداماً قوي العريكة يؤثر المخاشنة على المحاسنة والشدة على اللين والهوادة · ومناظراته مشهورة مع كبار معاصريه · والذي جعلنا نقدم ترجمة ملخصة له هو نقده اللاذع لبطرس البستاني في قاموسه « محيط المحيط » ثم لقريبه عبدالله البستاني صاحب قاموس « البستان » ·

وقد رجعنا بادىء الأمر الى المجلدين الخامس والسادس من مجلة لغة العرب اذ احتويا على أكثر ما جاء من ذلك النقد · وانتزعنا مآخذه ومستدركاته

كما وردت فيها . ففيها فوائد وتنبيهات تجعل الباحثين في كتابة المعجمات أشد تحرياً للصواب وأكثر تدقيقاً في النقل وأحرص على التحقيق والنظر منهم على مجرد التجميع والتقميش . نقتصر في هذا المقال على ما جاء في المجلد الخامس .

★ ★ ★

مستدركات الأب انستاس على « محيط المحيط » في المجلد الخامس من مجلة « لغة العرب »

كند و كنداكر

LE COMTE ET LE COMTE D'ACRE

قال في محيط المحيط : الكند (وزان قفل) الشرس ، الشديد . فارسي ، قلنا : ليس في الفارسية حرف بهذا المعنى . واللفظة لم يذكرها الا فريتغ في معجمه ، وقال عنها وردت بمعنى Strenuous, Fortis أي شجاع قوي . ولم يقل شرس. والكلمة أندلسية الأصل – أي اسبانية – وهي Conde ومعناها القومس أو الأمير أو كما نقول اليوم «الكونت» وبالفرنسية Comte فكم من غلط في هذه اللفظة الواحدة ! سوء معنى وسوء نقل وسوء أصل !

وقال صاحب محيط المحيط بعد ذلك بصفحة : الكنداكر (وضبطها بضم الكاف واسكان النون بعدها دال مهملة يليها ألف يخلفها كاف وفي الآخر راء) . الشجاع ، الجسور . فارسية .

قلنا : وهذه أيضاً غير فارسية بل هي مركبة من الاسبانية كند Conde أو الفرنسية Comte ومن عكا المعروفة عند الافرنج بأسم Acre ومعنى الكلمتين قومس عكاء وبالفرنسية Comte d'Acre وهو لقب هنري الشاب Henri le jeune أو Henri de Champagne وهو ملك القدس بعد ذلك وعرفه مؤرخو العرب بأسماء مختلفة منها : كنداكرا (بألف في الآخر لا كنداكر كما قال البستاني ولم ينسب قوله : فهو منقول عن فريتغ الذي قال عنها ما قال عن « كند » وفسرها صاحب محيط المحيط تفسيرين مختلفين فخطأ بذلك نفسه بنفسه .

ومن أسمائه عند العرب الكندهري (راجع تاريخ أبي الفداء) ومنها الكندكري[1] ـ أي أنهم صحفوا الهاء كافاً كما في روايات نسخ أبي الفداء ـ الى غير ذلك من الأسماء وذلك ان هذا الأمير ابلى بلاء حسناً في واقعة عكاء فلما انتهت لقب بأمير عكاء وبالفرنجية كنداكرا أو كنداكري Comte d'Acre وكان مثالا للشجاعة والبسالة فنكر بعضهم اسمه حتى أطلقوه على كل من يشبه الكند هنري بصدق بلائه ·

وقد ذكر دوزي أنه لم يعرف رجلا باسم « اكرا » ولم يفهم منها المراد فاذا عرفت تعليلنا صححت رواية محيط المحيط وفريتغ ودوزي ومن نقل عنهم ·

أما صاحب أقرب الموارد فانه زادالطين بلة اذ نقل عبارة محيط المحيط في الموضعين وقال في كل منهما : نقله فريتغ عن بعض كتب العرب ·

فانظر حرسك الله ما يفعل بنا بعض أصحاب كتب اللغة : وكيف يجب علينا أن نتقي شر سوء النقل · وهو الهادي ·

التبشر لا التبس

س ـ سدني (استرالية) أ·س·ن ـ وجدت في محيط المحيط هذه الكلمة التبس وشرحها هكذا : طائر يعرف بالصفارية · اه · ثم نقبت عنها في كتب اللغة مطولة فلم أعثر عليها · فمن أين أتى بها المؤلف ؟

ج ـ قلنا مراراً أن صاحب محيط المحيط حاطب ليل فهو ينقل عن هذا وذاك بدون أدنى نقد · هذه الكلمة ضبطها البستاني وزان سكر أي بضم الأول وشد الثاني المفتوح) وقد نقلها عن فريتغ من معجمه العربي اللاتيني الا أن هذا المستشرق ذكرها بشين معجمه في الآخر · وهذه أيضاً غلط لأن الرجل كثيراً ما كان

1 ـ انت مخير في ان تذهب الى الكلمتين : الكندكري انها تصحيف الكندهنري ويكتبها المؤرخون الكندهنري ، او الى انها تصحيف كند ا كرا اي كند عكا وهو الكند هنري المذكور لا غيره · قال في النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية · في احداث سنة ٥٨٦ هـ : « ولم يزل عدو الله ـ اي الافرنج ـ من حينئذ مكسور الجناح حتى وصلهم كند يقال له كند هري » ·

يستل الألفاظ من الكتب الخطية ، ولما لم يكن يحسن القراءة فكان يشوه الألفاظ تشويهاً قبيحاً فلقد قرأ هذا البيت الآتي على حد ما قرأه غوليوس :

علمت بأن أموت وان موتي باوهد أو باهون أو جبار ٠٠٠

فقرأ « باهون » التي هي على وزن أكبر : باهون أي على وزن ناقوس ٠ ثم كتب في معجمه في مادة باهون ما هذا معناه بالعربية : باهون (وضبطها كناقوس) يوم الاثنين ٠ نقلا عن غوليوس عن الفرغاني ٠ أفرأيت كيف مزج الباء الجارة بكلمة أهون فصيرهاكلمة واحدة وقرأها « باهون » وأدخلها في اللغة العربية ؟

وعلى هذا المثال كان نصيب اسم الطائر المعروف بالتبشر فهو بضم التاء والباء (وقد تفتح) وبكسر الشين المعجمة المشدودة وبراء في الآخر : فغوليوس قرأها شيناً وقد اعتبر الراء الأخيرة بطناً للشين فقرأها التبش ، وزان سكر فأخطأ أيضاً في الضبط ثم جاء فريتغ فأثبته في غلطه ثم جاء بستانينا فحذف نقط الشين فصارت الكلمة « تبس » مبقياً الوزن على حاله ، لأنه وزن طيب لذيذ ، اذ هو وزن السكر ٠ فانظر كيف أن محيط المحيط هو بحر ظلمات لا يهتدي السالك فيه الا وبيده حقة المغناطيس لكي لا يتيه عن سواء السبيل !

وأمثال هذه اللفظة المصحفة شيء كثير في هذا المعجم وكنا قد ألفنا كتاباً ضخماً في اظهار تلك الأوهام الا أنه اتلف في الحرب العامة مع ما اتلف من كتبنا ٠

شفيق لا شفوق

ينعى الأب أنستاس في نقده رواية « الحب المكتوم » على من يعتمد « محيط المحيط » استعمال لفظ الشفوق الوارد في هذا المعجم بدلا من الشفيق ، ولفظ التدوين بدلا من الكتابة أو الخط ٠

فنجر عينيه

من لغة عوام الشام ومصر قولهم : فلان فنجر عينيه أي حملق ٠ وفي محيط المحيط حملق بهما ٠ وهو خطأ لأنه لا يقال: حملق بعينيه بل حملق فقط ٠ وفنجر، مشتقة من بنجره الفارسية (وهي بباء مثلثة فارسية تقلب فاء عند التعريب) ومعناها النافذة ، كأنه فتحهما كالنافذة بعد أن كانتا مطبقتين أو كالمطبقتين ٠

وذكر البستاني في المادة المذكورة :الفناجرة : الخيالة الحاذقون في ركوب الخيل · ولم يذكرها بهذا المعنى سوى فريتغ نقلا عن كتاب المستفيد في مدينة زبيد في عدة مواطن منه · ونقلها عن البستاني الشرتوني في معجمه ولم يعزها .

غلط في الجمع عام في المعاجم الحديثة

يجري مؤلفو معاجم اللغة العربية الحديثة على آثار محيط المحيط فيتدهورون في مهاويه ويدهورون الغير فيها · ومن أشنعها قول البستاني يقال : رجل صنيع اليدين أي حاذق في الصنعة ·وقوم صنعى (وضبطها كحبلى) الأيدي وصنعى الأيدي (كمعزى) وصنعى الأيدي (بفتحتين ففتح) وصنعى الأيدي (بفتح الحروف الثلاثة الأولى) واصناع الأيدي ، حذاق في الصنعة · اه ·

والصواب هو كما جاء في القاموس :رجل صنع اليد (بالتحريك) وصناع اليد (كثمان) ، من قوم صنعى الأيدي بضمة وبضمتين وبفتحتين وبكسرة · واصناع الأيدي ، وحكي : رجال ونسوة صنع بضمتين · اه ·

وأول من كبا هذه الكبوة فريتغ فمشى وراءه البستاني لأنه يتأثره في جميع حسناته وسيئاته، ثم جاء الشرتوني فأقر هذا الغلط · وبعد ذلك جاء صاحب معجم الطالب ، والمنجد ، والمعتمد ، الى غيرهم · وجميعهم يجرون جري الأول · فصدق فيهم قول السلف : نزو الفرار استجهل الفرارا » ·

وقد قلنا مراراً : أن صاحب محيط المحيط جعل كتابه فلكاً شحنه أغلاطاً فجاء بعده كل من ألف في اللغة ولم يكن مهيأ للتصنيف فنقل الغلط عمن تقدمه من غير أن يتحقق بنفسه تلك الهفوات فكانت الطامة الكبرى على اللغة وعلى من يتلقاها من تصانيفهم المشؤومة ·

ولهذا قلنا مراراً اننا بحاجة الى مراجعة الأمهات ووضع ديوان لغة يعتمد فيه عليها وأن ينبه على مزالق اللغويين العصريين التي لا تزال تتسع وتفسد تراث أجدادنا عوضاً عن أن تدفعنا الى أن نحرص عليه ونذود عن حياضه لنكون أحسن خلف لأطيب سلف ·

(البليــج)

بليج السفينة (والبليج وزان سكين) على ما في المحيط للبستاني : « عـود طويل تدفع به · معرب بيله بالفارسية »اه · قلنا : لم نجد في ديوان من دواويـن اللغة العربية هذا المعنى · أما الكلمة الفارسية التي ذكرهـا فتعني مقـذاف السفينة ولا يمكن أن تنقل بصورة بليج بـل بصـورة « بيلـج » والسـلف لـم ينطـق بهـا ·

أما البليج فقد ذكرها صاحب « عجائب الهند » بمعنى الغرفـة في السفينـة Cabine dans un navire ومؤلف كتـاب عجائب الهند من أبناء المائـة العاشـرة للميلاد · والكلمة من اللغة المالينية من« بيلق » (وزان زبرج) بمعنى غرفة أو مسكن أو خيمـة · فانظـر كيف أن صاحب محيـط المحيط يؤول الألفـاظ وكيف تنتقل الى سائر الدواوين اللغوية اعتماداً عليه وعلى هـذا الوجه تفسـد لغتنا الحسناء · وما ذلك الا لأنه ينقـل عن فريتغ بلا روية ·

أغلاط المعاجم في جمع مسناة

المسناة شائعة عندنا ومعروفة عند الكبار والصغار بمعنى Quai كمـا ان جمعها مشهور عند الجميع وهو مسنيات ؛ لكن اذا بحثت عن هـذا الجمع في محيط المحيط ذكره لك بصورة مسنوات (كذا) ثم زاد على هذا الوهم قوله : « وهو شاذ والقياس مسنيات » فرسخ في أذهان الكتاب انه مسنوات · وقد وصل هذا الوهـم الى البستاني من فريتغ ، ثم سرى مـن محيط المحيط الى جميع المعاجم اللغوية الحديثة · وفي مقدمتهـم أقرب المـواردفانه ذكر في مادة س ن و ما هذا حرفه : المسناة العرم ، وهو مـا يبنى في وجـه السيل والجمـع مسـنوات · وهو شـاذ والقياس: مسنيات· وفي الأساس : « عقدوا مسـناة ومسنيات لحبس الماء » اه ·

فهل رأيت بعد هذا الجهل جهلا أدهى ؟ فقـد نقل عن صاحب الأسـاس ان جمـع مسناة مسنيات ومع ذلك يقـول : جمعه مسنوات وهو شاذ · والحال انك لو بحثت عن هذا الجمـع في جميـع الكتب العربية فانك لا ترى له أثراً · فأصحاب القاموس والتاج ولسان العرب لم يذكروه لأنـه مقيس ؛ أمـا الـذي ذكـره فهـو الزمخشري في كتابيه الأساس ومقدمـة الأدب ·

وجاء بعد الشرتوني الأب بلو اليسوعي في معجمه العربي الفرنسي والأب حواء اليسوعي في معجمه العربي الانكليزي والأب لويس معلوف في منجده وجرجي شاهين عطية في معتمده • ويا له من معتمد ! ــ ولو تتبعنا جميع من وقع في هذه الهاوية البعيدة القعر لرأينا غيرهم •

وبهذا القدر مجزأة لمن يريد أن يحقق جهل لغويينا المتأخرين وخلوهم من معرفة أوائل قواعد الصرف والنحو !

معنى تبزر

جاء في محيط المحيط : تبزر : تنسب الى الابزاريين وهم جماعة من المحدثين• اه • قلنا : وهذا غير معروف • والمشهور على ما أورده الأزهري ان : « البزرى [بالتحريك] لقب لبني بكر بن كلاب[1] • وتبزر الرجل : اذا انتمى اليهم • وقال القتال الكلابي :

اذا ما تجعفرتم علينا فاننا   بنو البزرى من عزة نتبزر

اه نقلا عن اللسان • وفيه دليل على اننا نستطيع أن نشتق من الأعلام أفعالا فنقول مثلا تبلشف الى غيرها •

عبدالله بن ميخائيل البستاني

(١٨٥٤ ــ ١٩٣٠)

لغوي وأديب لبناني • ترجم عن الفرنسية حكايات لافونتين شعراً وألّف روايات تمثيلية وأخرى شعرية• واشتهر بتأليفه معجم « البستان » في مجلدين كبيرين ، ثم اختصره باسم « فاكهة البستان » • ويبدو أن صدور « البستان » لم يرق للأب أنستاس فكتب مقالاً في مجلته (السنة الخامسة) ينتقد الجزء الأول عشية صدوره ، ويندد بأخطائه التي تسربت اليه من قاموس نسيبه « محيط المحيط » ونحن ننشر هذا النقد الذي لا يخلو من تحامل رغبة في تصحيح الأغلاط اللغوية وحرصاً على سلامة العربية •

---

١ ــ المجلة : الصحيح لقب لبني ابي بكر بن كلاب •

البستان للبستاني

البستان وما أدراك ما البستان ؟البستان : معجم « لغوي » تأليف الشيخ عبدالله البستاني اللبناني ، طبع بالمطبعة الأمريكية في بيروت وظهر جزؤه الأول في أواخر سنة ١٩٢٧ ، وعدد صفحاته ١٣٨١ بقطع الربع وكل صفحة في عمودين • وكلمة كل مادة جديدة مكتوبة بحرف مشبع حبراً يتقدمها نجم وما تفرع من تلك المادة مكتوب بذلك الحرف وموضوع في رأس السطر • والشرح متأخر عن الكلمة بشيء ليظهر الفرق بينها وبينه والورق والطبع والحبر من أجود ما يكون • هذه مزاياه الخاصة به دون غيره •

وهل هو أحسن مما ألف في هذا الموضوع ؟ ـ ذلك سؤال لا نريد أن نجيب عنه الا بكل اخلاص فنقول :

تصفحنا هذا السفر الضخم بسرعة البرق لأن أحد الأدباء أعارنا اياه ومع تصفحنا اياه بهذه السرعة وجدنا صاحبه لم يأتنا الا بنسخة ثالثة من محيط المحيط للمعلم بطرس البستاني (لأن النسخة الثانية هي أقرب الموارد للشيخ سعيد الشرتوني) لكنها نسخة متوسطة الحجم وأحسن طبعاً من النسخة الأم • وقلنا : نسخة ثالثة من محيط المحيط لأن أغلاط هذا المعجم موجودة ، أو أغلبها موجود في نسخة « البستان » وقد نزع منها بعض الأوهام ، لكنه سقط في أوهام أخرى • اذن لا يجد أرباب البحث شيئاً طريفاً في المعجم الجديد ، مع كل ما سمعنا عنه تزميراً وتطبيلا ، فقد جاءت الحقيقة نازعة كل أمل من الصدور ، ونحن نذكر هنا ما بدا لنا أنه يخالف العلوم وما أثبتته • ولو ذكرنا كل ما عثرنا عليه من الأوهام في بضع ساعات لوجب علينا أن نضع كتاباً ضخماً ككتابه لاثبات ما رأيناه منها ، لكننا نجتزىء بما ينطوي على غر هذه المجلة • فنقول :

١ ـ مخالفته لأصول الصرف :

ذكر في مادة زرف : الزرافة وجمعها على زرافي (كبراري) أو زرافى (كسكارى) (باهمال الياء) وزرافات وزرائف • قلنا : وقد تبع في ذلك كله صاحب محيط المحيط الذي تأثر في هذا الجمع الغريب فريتغ في معجمه ، وفعالة

لا تجمع على فعالي بتشديد الياء أو باهمالها ، الا أنها وردت في كتاب عن الحبشة ألفه أحد العوام فعثر عليه فريتغ فقرأها بالصورتين اللتين ذكرناهما أما الزرافات والزرائف فمن المقيسات وصاحب محيط المحيط كان يؤمن ايماناً أعمى بما كان يكتبه فريتغ فهفا هفواته وجاء شيخنا عبدالله فلم يصلح ما أفسده نسيبه ٠

وذكر في س ن و : المسناة ج مسنوات وهو شاذ والقياس مسنيات ٠ قلنا : ما قال أحد هذا القول سوى البستاني نسيبه وهو غلط ظاهر والصواب مسنيات كما هو مشهور وفي الأسفار مذكور ٠

وقال في مادة صنع : قوم صنعى الأيدي (كسكرى) وصنعى الأيدي (كمعزى) وصنعى الأيدي (بضمتين) وصنعى الأيدي (بفتحتين) وأصناع الأيدي (كأحمال) أي حذاق في الصنيعة ثم فسر الصنيعة بالاحسان ٠ ولم يذكر مفرد الجموع الخمسة المذكورة ٠ ـ قلنا كل ذلك منقول بحرفه وغلطه وسقمه عن محيط المحيط ثم زاد من عنده غلطاً جديداً لم يكن في الأصل الذي نقل عنه وهو قوله : في الصنيعة والصواب في الصنعة أي الصناعة لا الاحسان ولا معنى للحذق في الاحسان ٠ وأما تصحيح العبارة فيجب أن يكون هكذا : « رجل صنع اليدين بالكسر وبالتحريك وصنيع اليدين وصنعهما : حاذق في الصنعة من قوم صنعى الأيدي ، بضمة ، وبضمتين ، وبفتحتين ، وبكسرة ، وأصناع الأيدي » (عن الفيروزابادي وابن مكرم والسيد مرتضى في التاج) ٠ ونحن لا نريد أن نتسع في هذا المجال لأنه لا تخلو صفحة من مثل هذه الأوهام التي يؤسف على وجودها في مثل هذا السفر ٠

٢ ـ زيادته أغلاطاً على أغلاط نسيبه :

لم يكتف حضرته بأغلاط محيط المحيط فجاءنا بأغلاط جديدة لا تخلو منها صفحة من كتابه ٠ فقد ذكر البستاني الكبير البرنجاسف (بالسين) فقال هو برنجاشف بالشين المعجمة ٠ وبفتح الأول والثاني وما ذلك الا لأنه رآها في تاج العروس حيث وردت بالشين المعجمة حقيقة ٠ لكن وردت هناك من باب الخطأ في الطبع ٠ والدليل ان صاحب التاج يقول بعد مادة برنف :

برنجاسف بالكسر ويقال باللام بدل الراء : ضرب من القيصوم ... وقد ذكره المصنف في حبق . اه . وفي مادة حبق يقول : حبق الراعي : البرنجاسف. وضبطها بالقلم بفتح الأول والثاني واسكان الثالث وبكسر السين المهملة . وكذا وردت في جميع النسخ المخطوطة والمطبوعة من القاموس . ولذا تراه غلط ثلاث غلطات في كلمة واحدة الأولى ايرادالكلمة بالشين المعجمة وهي بالسين المهملة الثانية : ذكرها بفتح الأول والصواب بكسره . الثالثة : ضبطه السين بالفتح والصواب بكسرها . نعم ان بعض نسخ القاموس ذكرت البرنجاسف بفتح الأول لكن نص صاحب التاج يفسد تلك الرواية لأنه ضبطها بالكلام لا بالقلم وضبط الكلام أوثق من ضبط القلم ، ومما يجب أن يلاحظ هنا أن بطرس البستاني ذكرها بالسين فلم يتبعه هذه المرة بل اتبع الشرتوني الذي ذكر اللفظة في ذيل معجمه بالشين وقال انه نقلها عن التاج فتبعه في هذا النقل شيخنا عبد الله ، فكأنه يريد أن يجمع في معجمه معايب جميع كتب اللغة - وهذا الباب واسع وقد عددنا له نحو مائتي « غلط من هذا الضرب » .

٣ - اتباعه أغلاط نسيبه اتباعاً أعمى :

قال البستاني : البزرك (وضبطها كقنفذ) أي العظيم ... والبزرك كجعفر) ضرب من الألحان ... اه . وكل ذلك من أغلاط البستاني القديم . والصواب ما جاء في القاموس . قال بزرك: بضم الباء والزاي . أعجمية ... اه. قلنا : وكذا يجب ضبط الكلمة الثالثة ولو جاءت بمعنى آخر لأن المغنين ضبطوها أيضاً كالأولى في كتبهم .

وقال في بزر : تبرز : انتسب الى الأبزاريين وهم جماعة من المحدثين وهي عبارة نسيبه . والصواب : انتسب الى بني بزرى وهم بنو (أبي) بكر بن كلاب. كذا قال جميع أصحاب الدواوين . - وهذا الباب واسع لأننا عددنا له مثل هذا الغلط نحو خمسمائة وفي جميعها يقلد نسيبه فكيف لو تتبعناه مادة مادة وكلمة كلمة .

٤ - حذفه معاني الألفاظ :

هذا لا نتعرض له لأنه أكثر من أن يحصر ولعله فعل ذلك توخياً للاختصار لكننا نراه يدون أشياء غير معروفة ولا حاجة لطلبة المدارس الى أن يعرفوها .

كذكره في مادة زبب : زب القاضي فقال في شرحه : «من عيوب المبيع فسره الفقهاء بما يقع ثمره سريعاً » ـ ونحن كنا نـود أن يسكت عنها إذ يجهلها أغلب فقهاء هذا العصر ٠

٥ ـ جهله المعرب من الألفاظ :

ذكر الاسطوانة في مادة ا س ط ٠٠٠ ولم يذكر أنها معربة مع أنها أشهر من أن تذكر ـ وقال في مادة اسفنط : الاسفنط : ضرب من الأشربة فارسي معرب والصواب انه يوناني معرب ٠ ومثل هذا الجهل مئات !

٦ ـ روايته معاني لا حقيقة لها :

قال في مادة اوشن : الأوشن الذي يزين الرجل ويقعد معه على مائدته يأكل طعامه ٠٠٠ ذكر هذا الحرف هنا سهواً وموضعه في باب الواو ٠ اه ٠

قلنا هذا كلام ذكره جميع اللغويين لكنه في غير محله ٠ فالأوشن يجب أن يذكر هنا لا في وشن كما فعل بعضهم ٠ ثم ما معنى قوله انه ذكر سهواً هنا أفما كان يجب حذفه من هذا المحل واثباته في الموطن الذي يشير اليه ، أولا أقل من أن يقول مثلا: أثبت بعضهم هذه اللفظة هنا والصواب اثباتها في وشن ٠ وعلى كل حال ان الكلمة مصحفة تصحيفاً قبيحاً عن الابش (كأجش بشد الأخير) وهي تعريب اليونانية Abaxos هذا هو الأصل ٠ وقد ذكر اللغويون الابش في موطنها وذكروها بصورة آبش أيضاً أي كفاعل ٠ ومن الغريب انهم قرأوا الباء واواً كما هو الأمر في اللغة اليونانية وكما يرد مثله في لغتنا وزادوا على ذلك أنهم قرأوا بطن الشين نوناً فصارت اوشن ٠ وأمثال قراءة بطن السين والشين والصاد والضاد نوناً كثيرة في العربية كالغس (بتشديد السين المهملة) فانهم قرأوها الغسن بنون في الآخر وأثبتوها في دواوينهم بالوجهين المذكورين ـ ومن غريب ماوقع لكلمة الابش أن بعضهم عربها بصورة الأحبش جرياً على أصلها اليوناني ولم يتذكروا أن غيرهم عربها بصور أخرى واختلفوا في معانيها ٠ والصواب ان معنى الابش والآبش والأوشن والأحبش : ما يزين به فناء الرجل ودار طعامه وشرابه ، وهو ضرب من الزليج (أي الآجر العريض المربع الملون بألوان مختلفة وهو المعروف اليوم في بغداد بالكاشي وعند السوريين بالقاشاني) تزين بها صدور المنازل

ولا سيما دار طعام الرجل . فلم يفهم بعضهم هذا المعنى فذهبوا فيه مذاهب لا يقبلها العقل ولا تأتلف والحقيقة . ثم جاء حضرة الشيخ عبد الله ونقل كل ذلك بقلب مطمئن ونفس سمحة ، كأنه يكتب لقوم من القرون الأولى للميلاد أو للهجرة ونسي نفسه أننا في عصر التدقيق والتحقيق .

فكتب في مادة ابش . الآبش : الذي يزين فناء الرجل وباب داره بطعامه وشرابه . والصواب : ما يزين به فناء الرجل وباب داره وطعامه وشرابه أي باب داره وغرفة طعامه وشرابه كما نقول اليوم . وأعاد مثل هذا التعبير في مادة ب ش ش . وقال في مادة ح ب ش : الأحبش بفتح الهمزة والباء الذي يأكل طعام الرجل ويجلس على مائدته ويزينه . وقد ذكرنا لك ما قال عن الأوشن . على أن اللغويين قالوا أن حروف الكلم المعربة كلها أصول ، فكان يجب على جميع اللغويين أن يذكروا كل هذه الألفاظ في المواضع المناسبة لها من غير أن يعتبروا الهمزة زائدة أي كان يجب أن تذكر الآبش في ابش . والأحبش في احبش ، والابش (المشددة الآخر) في أبشش ، والأوشن في اوشن، كما فعله حضرة الشيخ الجليل ، وما كان يحسن به أن يقول ماقال ، على أن اللغويين جميعهم خالفوا هذه القاعدة بل لم يفهم أغلبهم معناها على ما هي ، ومن ثم نشأ الخبط والخلط فاحفظه .

٧ ـ زيادة أغلاط من عنده على أغلاط محيط المحيط وأقرب الموارد :

حضرة الشيخ عبد الله بحث عن جميع ما ورد من الهفوات في محيط المحيط وأقرب الموارد ، أو قل : كأنه بحث عنها فيهما ودونها في سفره البديع ، ثم زاد عليها أوهاماً جديدة ، فاجتمع عندنا ثلاثة أجبل من الخطأ : جبل بني في محيط المحيط وجبل بني في أقرب الموارد الينا ، وجبل وضع في أزهى بستان لنا .

ذكر هذه الأغلاط ـ ونسميها أغلاط طبع ، وان لم يكن في آخر الديوان تصويب[1] لما وقع فيه ـ يطول سردها لكثرتها ووقوعها في كل صفحة من الصفحات، انما نذكر بعض الأمثلة منها لكي لا نرمى بالبهتان والافتئات :

قال حرسه الله في الربيز هو « الكبير في فنه ، والصواب الكثير في فنه ، كما

١ ـ المجلة : استعمال تصويب هنا بمعنى تصحيح خطا .

نص عليها جميع اللغويين . ــ وقال الرباح : دويبة كالسنور وهي قطعة الزباد لأنه يحتلب منها ، والصواب قطة الزبادوأصح منها سنور الزباد . وعد بين الرياح الصابئة (كذا) وقال عنها هي :« الجنوب والدبور » . اه . ولم يذكر هذا المعنى للصابئة في صبأ ولا في صبو ولا في صبي ولا في صيب ولا في أي مادة كانت؛ لكنه وجدها بهذه الصورة فيمحيط المحيط وأقرب الموارد فتابعهما في هذا الغلط والصواب الصابية من مادة صبو ــ وقال عن الجلفاط : ساد دروز السفن الجدد (وضبطها ضبط قلم بضم ففتح) والصواب الجدد (بضمتين) ــ وقال الجوالق ، وضبطها مثلثة الأول أي بضمه وكسره وفتحه : وضبط الجيم بالفتح غلط صريح للمفرد ، انما هو جمع ما كان بضم الأول وكسره ونسي أن ليس في كلام السلف مفرد على فعالل بتحريك الأولين . ــ وقال عن الجليق : ... له في رؤسه . وضبط الهمزة الجالسة على رأس الواو بضمة والصواب برؤوسه أي بواوين على الأولى منهما الهمز والثانية ساكنة ، لأن رؤوس على وزن فعول وفي فعول أربعة حروف لا ثلاثة . ــ ونحن لا نريد أن نتبع المؤلف في جميع سطور كتابه ففيها الغلط الجم والضبط السيء .

٨ ــ جهلـه للأقوام :

ذكر في مادة س ب ج : السابجة . فقال عنهم : قوم من السند ... والتاء فيه للنسب . قال يزيد بن مفرغ الحميري :

وطماطيم مـن سـوابج خـزر   يلبسوني مع الصباح القيودا

قلنا : وفي هذا الكلام الوجيز عدة أغلاط : الأول ، انه ذكر السابجة بباء واحدة وهذه اللفظة لم ترد في ديوان من دواوين اللغة والذي ذكروه هو السبابجة بباءين الأولى بعد السين والثانية قبل الجيم . هذه رواية جميع اللغويين . والذي حققناه من تصانيف السلف من المؤرخين هو السيابجة بياء مثناة بعد السين وبباء موحدة قبل الجيم وليس هنا محل ذكر التحقيق لطول شرحه أو بسطه.
ــ أما الغلط الثاني فهو قوله : والتاء فيه للنسب . والصواب أن يقول : والتاء فيه للعجمة والنسب لأنه قد يكون الاسم منسوباً ولا تكون فيه الهاء في الآخر علامة جمع . أما اذا اجتمعت العجمة والنسب لحقت الهاء آخر الجمع على ما صرح به جماعة اللغويين. والغلط انه قال : يزيد بن مفرغ والصواب المفرغ

بال • ــ وقال ــ وهذا هو الغلط الرابع ــ : قال يزيد بن مفرغ وهو يذكر شاهداً • والمنتظر أن يكون ذاك الشاهدما يثبت قوله ان السابجة (والأصح السيابجة) هي بالهاء والحال انه جاءنا بشاهد ينقضه وليس له أدنى اتصال بما ذكره من الكلام • اذ لم يصرّح بوجودالسوابج عندهم ، فاذن ما معنى هذا الشاهد ، ولتقوية أي جمع أورده في كتابه ؟ والغلط الخامس انه ذكر السوابج وهي كلمة لم ينطق بها أحد من اللغويين الثقات ، لا صاحب لسان العرب ولا صاحب التاج ولا ولا ولا ؛ انماذكرها صاحب محيط المحيط وحده وهو البحر المحيط بجميع الأغلاط • أماصاحب أقرب الموارد (كلا • بل أبعد الموارد) فقد ذكرها بصورة سبابج والصواب سيابيج بياء مثناة تحتية قبل الجيم •

فانظر بعد هذا ، أيليق بنا أن نتصفح مثل هذا المعجم ؟ فكيف اذا قيل لنا هذا الديوان هو « من أجل ما قام به الشيخ عبدالله حديثاً من الغدم النافعة (؟ كذا) لأبناء بلاده ، معجمه الموسوم بالبستان ! (مجلة الكلية ١٤ : ١٥١) أهكذا يخدع أناس أناساً ؟ ان هذا لأثم لا يغتفر • فيا كتبة ارفقوا بالناطقين بالضاد ولا تخدعوهم هذا الخداع الذي فيه الغبن ظاهر لكل ذي عين ، فكيف لذي عينين ؟

٩ ــ جهله لعلم النبات :

عرف البلبوس بما هذا حرفه : البلبوس بالفتح بصل الرند ، يشبه ورقه ورق السذاب • اه وهي عبارة أقرب الموارد بحرفها نقلا عن التاج ونسي كلاهما أن في التاج أغلاط طبع غير قليلة • ومن جملتها هذه • لأن الرند ــ على ما ذكره في البستان (زاد الله أزاهيره) : شجر بالبادية طيب الرائحة يستاك به وليس بالكبير وله حب يسمى الغار واحدته رندة ، وربما سموا العود الذي يتبخر به رندا • اه • فأين هذا من البلبوس وهو بصل • وليس للبصل رائحة طيبة ، وليس له عروق تصلح لأن تكون سواكاً ؟ وليس له حب • والصواب : بصل الزير بزاي وياء وراء ، وهو المعروف أيضاً ببصل الفار ؛ لكن حضرته لم يعرف الزير في موضع البلبوس ولا في موضعه الحقيقي أي في مادة ز ي ر ، بل عرف الزيز بزايين بهذا المعنى • وهذا خطأ صريح ، اذ يقول في مادة ز ي ز : الزيز :

بصل الفار و ـ دويبة تطير وتقف طويلا على الشجرة • اه • والصواب أن بصل الفار هو الزير براء مهملة في الآخر والدويبة التي يشير اليها هي بزايين والزيز لهذه الدويبة من كلام عوام الشام لا من ألفاظ الفصحاء • وفي كل ذلك قد جارى صاحب محيط المحيط ، أما صاحب أقرب الموارد فقد ذكر الزيز بمعنى بصل الفار فقط والمعنى الثاني لم يذكره وقد ذكر بصل الفار في مادة سقل فقال : السيقل (كزبرج) والسيقل (بتشديد اللام) بصل الفار وهو المعروف بالعنصل وقال أيضاً : الاسقال والاسقيل بالكسر في كليهما : العنصل • قلنا أما الاسقال والاسقيل فهما العنصل حقيقة أي بصل الفار أو بصل الزير ؛ وأما السيقل (كزبرج) والسيقل (كزبرج وبتشديد الآخر) فلا وجود لهما بالعربية ، وقد ذكرهما فريتغ عن نسخة سقيمة مغلوطة من كتاب ديسقوريدس فنقلها عنه محيط المحيط وعن هذا أقرب الموارد ثم جاء شيخنا فأثبت هذين الحرفين في كتابه من دون أن يراجع الأمهات الكبرى • أفهذا هو التحقيق ؟

١٠ ـ جهله للجغرافية وأسماء البلدان :

قال في ب ل خ ش : البلخش كجعفر : جوهر يجلب من بلخشان وهي بلد بأرض الترك • اه • وهي عبارة ذيل أقرب الموارد الذي ختمها بذكر الكتاب الذي نقل عنه اذ وضع بين هلالين قوله : (شفاء الغليل) وقد راجعنا هذا الكتاب فرأيناه يقول ما حرفه : بلخش (ولم يضبطها بخلاف قول الناقل والمنقول عنه انها وزان جعفر) جوهر يجلب من بلخشان ، والعجم تقول بذخشان بذال معجمة وهي من بلاد الترك • اه •

قلنا هذا هو الكلام الصحيح • أي ان بلخشان غير معروفة عند فصحاء العرب بل عند عوامهم • وأما الفصحاء فلا يقولون الا كما ينطق به أهل ايران والترك أي بذخشان • وهذا ما صرح به ياقوت في معجمه فانه لم يذكر بلخشان بل بذخشان ، وأما بلخشان فمن تصحيف العوام فكان عليه أن يعرف ذلك •

وأما ضبط بلخش وبذخشان و بلخشان فبفتح الأول والثاني واسكان الثالث كما ذكرها ياقوت في معجمه (١ :٥٢٨ من طبعة الافرنج) فلتراجع وراجع معجم دوزي ولغة العرب ٥ : ٥٣٤ •

* * *

هذا في الختام ما تيسّر التقاطه وجمعه من مآخذ ومغامز في المجلد الخامس من مجلة « لغة العرب » • أوردنا ما في ايراده فائدة وأغفلنا ما ليس في اغفاله فائدة • ما كان أجدر الأب أنستاس بالرفق في مناظراته المفيدة ، وفي تنقيره العميق • قال الرسول الكريم :« **ما كان الرفق في شيء الا زانه ، ولا نزع من شيء الا شانه** • » وجاء في التنزيل : « **ادفع بالتي هي أحسن** • »

وانه ما رأينا أحداً على العموم يتطاول على آخر في أمر من الأمور الا وهو يتستّر في تطاوله على هنة أو هنوات في نفسه أو شخصيته أو ثقافته • ولا شك أن بعض المهاترات مجلبة لأمثالها • وليس الأب مسؤولاً وحده عن ذلك ، لأن بعض المهاترات كانت ردوداً •

على أن بحوث اللغة ولا سيما العربية بحار متلاطمة الأمواج ، بعيدة الأغوار ، قلّ أن يسلم المغامر في ركوب لججها من أذية ومطعن ، أو يخلو من شبهة واعتساف ، أو يخلص من تعقب واعتراض •

والأحرى بالعربية أن تكون لغة الرفق والمحبّة والكياسة والمجاملة ، فيها من هذه المعاني ما ليس في غيرها من درجات التعبير وتلوين البيان ، وبلاغة الأداء ، ومراعاة مقتضى الحال •

ولكن الباحث والمعقب والناقد لا بدله من أن يرفع الصوت لكي يكون مسموعاً ولا سيما في الأقطار العربية الشاسعة التي فرّقت بينها التجزئة والاستعمار وصروف الزمان • وقد قال الشاعر العربي القديم :

فقلت ادع أخرى وارفع الصوت ثانياً　　لعل أبا المغوار منك قريب

(في رواية أخرى : لعل أبي المغوار • وهي شاهد على أن لعل قد تأتي حرف جر) ولا بد له أيضاً من أن يصدع بالرأي ويجلجل بالقول لكي يدحض الخطأ ويقرّ الصواب • ولو عاش الأب أنستاس في وقتنا هذا لبلغ صراخه عنان السماء نكيراً لما يدبجه طائفة من الكتاب والأساتذة وعلماء العربية ومجامعها من خطب وتدريس ورسائل وكتب ومقالات •

ونتخيل أن أولئك الأعلام الأفذاذ الذين عاشوا في تباشير النهضة العربية تحت كوابيس الاستعمار والتجزئة قد تصافوا في عالم الغيب وشعروا مخلصين أن بعضهم يتمم بعضاً في النهض بأركان العربية ، وأنه سبحانه وتعالى قد تجاوز عن كثير من سيئاتهم بما سهروا في خدمة العلم وبما قدموه للغة الضاد من نفع وصفاء . فان أفضل أعمال العلماء في رأينا باديء الأمر الحرص على سلامة اللغة ودقة البيان وبلوغ القصد .

ونأمل أن نكمل عملنا بنشر بقية المآخذ على « محيط المحيط » دفعاً للأوهام ، وتجنباً للمزالق ، وحرصاً على بيان أجمل اللغات في الأرض وفي السماء . والله الهادي الى سبيل الرشاد .

عبد الكريم اليافي

* * *

حاشية : مر تكرير لبعض الاخطاء التي نبه عليها الأب انستاس . وربما كان في الاعادة افادة .

تصحيح : وقع خطا طبع في مقال رئيس التحرير العدد ٤٨ :

الصفحة	السطر	خطـا	صواب
١٣	١٨	بالزين	بالزاي
١٤	٢٧	الصحيح وهو الأصل	الصحيح بضم الجيم وهو الأصل

مصطلحات تاريخية مستعملة في العصور الثلاثة الأيوبي والمملوكي والعثماني

جمعها وشرح معانيها : د . ابراهيم الكيلاني

حـرف الألـف

أسفهسلار : معناه مقدم العسكر وهي وظيفة من وظائف أرباب السيوف وعامة الجند وصاحبها زمام كل زمام واليه أمر الأجناد وهي كلمة أعجمية معناها قائد الجيش . وكان صاحب هذه الوظيفة في عهد حكم الترك بمصر يسمى ساري عسكر وفي زماننا يسمى سردارا (صبح الأعشى ٤٧٩/٣) .

الأستاذون : هم المعروفون بالخدام والطواشية وكان لهم مكانة جليلة ومنهم كان أرباب الوظائف الخاصة بالخليفة وأجلّهم المحنكون : وهم الذين يدوّرون عمائمهم على أحناكهم كما تفعل العرب المغاربة وقد ذكر صاحب صبح الأعشى لهم عدة وظائف منها : شدّ تاج الخليفة ، وتولي أمر المجلس الذي يجلس فيه الخليفة « وفي صبح الأعشى والمقريزي : يرفع الأستاذان جانبي الستر فيرى الخليفة جالساً على مرتبة عظيمة»، وحمل رسائل الخليفة الى الوزير . ومن وظائف الأستاذين وظيفتا زمام القصر وصاحب بيت المال .

الامامية : هم القائلون بامامة علي بن أبي طالب وهم خمس عشرة فرقة (الفرق بين الفرق ، والملل والنحل) .

الانكليز (بلاد) : (يقال : بلاد الافتكار) .

الأنبرور : الامبراطور لقب ألطق في العهد الأيوبي على امبراطور الصليبيين

أتـابـك **أطـابـك**	:	من الألقاب الرفيعة للأمراء ومعناه وصي أو رئيس وزارة ٠
أقسـيما	:	شراب يصنع من السكر المحلول بالماء والليمون ويقال انه نقيع الزبيب ٠
أمير أخـور	:	لقب يطلق على رئيس الاصطبلات ٠
أمير أخور البريد	:	وظيفة الاشراف على خيول البريد ٠
الأعـلام	:	وهي عدة رايات : راية عظيمة تسمى **العصابة** وهي من حرير أصفر مطرز بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه ، وهي راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش ، رايات صغار تسمى السناجق (صبح الأعشى ٨/٤) ٠
الأجنـاد	:	قسّم المتقدمون الشام الى خمسة أجناد : جند فلسطين وجند الأردن جند دمشق ، جند قنّسرين ، جند حمص ٠
أمير جانـدار	:	مركب من جان (أي روح ونفس) ومن دار (أي حارس وحافظ) والمتولي أمرة جاندار يستأذن على دخول **الأمراء** للخدمة ويدخل أمامهم الى الديوان (صبح الأعشى ٤/٢٠ ، **الألفاظ المعربة** للجواليقي) ٠
الابـداريـة	:	السقاؤون ، موظفون يناولون الأمير الماء للشرب أو الاغتسال ٠
الأطـلاب	:	العساكر (لفظة استعملت في العصر الأيوبي الى آخر دولة الشراكسة، ويراد بها فرق الجيش وكتائبه (النجوم الزاهرة ٦/٢٩٣) : «قطع التتار دجلة في مائة طلب ، كل طلب في خمسمائة فارس » ٠
أمرةمائةوتقدمةألف	:	وظيفتان عسكريتان يتدرج فيهما الجندي من أمير عشرة الى أمرة طبلخاناه ، الى أمير مائة وتقدمة ألف وهي أعلى مراتب الأمراء والحائز لها يلي الوظائف الكبيرة وسمي أمير مائة بسبب تخصيص مائة مملوك لخدمته ٠
الأطْبـار	:	مفردها طبر وهي الفأس من السلاح (فارسية) ٠
الأرمغـان	:	الهدية : (٠٠ وأرسل للسلطان أرمغانا الى مصر) ٠
أربـاب التقويم	:	المتنبئـون بالحـوادث ٠
الأصبهـانيـة	:	فرق من الجنود العثمانية ٠
أهـل الزّعارة	:	أو العيّارون الذين يجوسون الأزقة بلا عمل ٠
المزعّـرون	:	الأحداث اللصوص ويقال لهم : الزعران ٠

الأوبراتية : ويقال لهم التتر الوافدية وهم قبائل من المغول وفدوا الى دولة المماليك وتوطنوا في الشام ومصر وفلسطين وصاروا في جملة الجيش المملوكي .

الأدفوش : لقب ملوك الأندلس .

أورطه : (تركية) قسمت الانكشارية الى ١٩٦ فرقة تسمى احداها أورطة ولمّا كانت كل فرقة تقيم عادة في غرفة تسمى بالتركية أوضه استعملت هذه اللفظة كبديل عن أورطه .

أوضه باشي : (تركية) رئيس احدى الفرق الانكشارية التي تقيم عادة في أوضه (غرفة) وكان يرأس الأوضه باشية موظف يسمى أوضه باشي .

الانكشارية : (الينشرية) (أي الجنود الجدد) : فرقة من الجيش العثماني كان لها في القرنين السابع عشر والثامن عشر سلطة كبيرة وتمردت على الدولة فأبادهم السلطان محمود الثاني في مذبحة جرت في الآستانة سنة ١٨٢٦ .

الأمين : لقب لخدم الطواشية لأنهم مؤتمنون على الحريم والمماليك في القصور.

الاقطاعات : هي ما تقطع أي ما يعطى من الأراضي الزراعية الخراجية للأمراء والجند وغيرهم لاستغلالها ودفع الخراج عنها ويقال لمن تعطى لهم الاقطاعات « المُقْطعون » وفي عهد الحكم العثماني عرفت الاقطاعات باسم « الالتزامات » ويقال لمن تعطى لهم « الملتزمون » (المقريزي ٩٥/١) .

الأطباق : مساكن المماليك التي أنشئت لهم خاصة بقلعة الجبل بالقاهرة .

الأُسْتادار : لفظ فارسي معناه وكيل الخراج أو المؤونة ومعناه الاصطلاحي في دولة المماليك .

الأُسْتادارية : وظيفة من وظائف أرباب السيوف وموضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان واليه أمر الجاشنكيرية وله حديث مطلق وتصرف تام في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوى وما يجري مجرى ذلك للماليك وغيرهم (الصبح ٢٠/٤) .

الأَطْلاب : هم الحرس الخاص لأمراء المماليك يحملون سلاحاً كالأجناد وهم الجند .

أنكوريه : هي مدينة أنقرة عاصمة تركيا .

أجنـاد الحلقـة : عددهم كثير وربما دخل فيهم من ليست له صفة الجند من المتعممين وغيرهم ولكل أربعين منهم مقـدم ليس له حكم الا اذا خرج العسكر فيكون له الاشراف عليهم فهو أقرب الى احتياطي الجيش ·

أولاق : (ويقال لهم البرغال) جنس معروف من التركمان (صبح الأعشى ٤/٤٦٤) ·

أمير شكار : المكلف بالجوارح من الطيور وغيرها وسائر أمور الصيد · (أمير = عربي ، شكار = صيد = أمير الصيد) فارسي ·

أتابك أو أطابك : الولد الأمير · وقيل معناه أمير أب والمراد به أمير الأمراء وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل وليس له وظيفة ترجع الى حكم ونهي وغايته رفعة المحل وعلو المقام (صبح ٤/١٨) ·

حرف الباء

البـادهنـج : منفذ في سطح الدار على هيئة أسطوانة لها فتحة في الجهة الغربية يدخل منها النسيم ·

البشمقـدار : هو الذي يحمل نعل السلطان أو الأمير (مركب من لفظين أحدهما من اللغة التركية وهو بشمق ومعناه النعل والثاني من اللغة الفارسية وهي دار ومعناه ممسك فيكون المعنى ممسك النعل (صبح الأعشى ٥/٤٥٩) ·

البقسماط : خبز يابس معروف يؤخذ في الرحلات ·

البـازداريـة : البازدار هو الذي يحمل الطيور والجوارح المعدة للصيد على يده ·

البـوزة : هي الشراب المعروف المتخذ من الأرز أو الشعير أو الذرة ·

البـابيـة : جمع بابا ، لقب عام بجميع رجال الطشت خاناه ممن يتعاطى الغسل والصقل وغير ذلك ، وهو لفظ روحي ومعناه أبو الآباء وكأنه لقب بذلك لما تعاطى ما فيه ترفيه مخدومه من تنظيف قماشه وتحسين هيئته ــ أشبه القلب الشفيق فلقب بذلك · (صبح الأعشى ٥/٤٧٠) ·

البـابـا : هو غاسل الثياب أو المزين ·

البطـال : لفظ اصطلاحي معناه : الخالي من الخدمة والعمل ·

البـرك ورفت : لفظان فارسيان معناهما المتاع الخاص من ثياب وقماش الأمـراء وسلاطين المماليـك ٠

البُحـــران : كلمة مولدة معناها شدة حرة شهر تموز ٠

البُرْكُسْتوانات : مفردها بُرْكُستوان وهي كسوة مزركشة تكسى بها الخيول والفيلة.

بـربكيـــة : حيلة ٠ (في اصطلاح أهل دمشق : بربوكة) ٠

البـاطليَّـــة : لمّا قسّم المعز لدين الله العبيدي العطاء في الناس جاءت اليه طائفـة فسألت العطاء فقيـل : فرغ المال فقالوا : رحنـا نحن في الباطـل فسمّوا الباطلية ٠

البـرد دار : (أصله فرد دار مركب من لفظيـن فارسيين : فردا = السـتارة ، دار = ممسك والمراد ممسك الستارة وكان يقف بباب الستارة ثـم نقل الى الديوان وصار من مباشري الخدمة فيه ٠

بيمـارسـتان : دار المرضى (بيمار = المريض + استان = المأوى) ٠

البـاشـــورة : هي أن يكون أمام كل باب أو خلفه بناء ذو عطف حتى لا تهجم عليه العساكر وقت الحصار ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة ٠

بَـرْدَهْ دار : برده معناها الحجـاب ودار معناها المحافـظ ومحافظ الحجـاب هو الحاجب أو الحارس ٠

البـرطيـــل : الرشـوة ٠

بسـتيـنـي : نوع من المراكب الشراعية ٠

البُطْـس : مفردها بطسة وهي المراكب الكبيرة (الأسطول) سـيرة صلاح الدين (١٨٣/٣) من مجموعة الحروب الصليبية ٠

البُنْدُقْداري : نسبة الى البندقدار وهو لفظ فارسي مركب معناه حامل غرارة أي كيس البندق خلف الأمير أو السلطان وقد سمي الظاهر بيبرس باسم البندقداري لأنه كان في أول أمره مملوكاً للأمير ايدكين البندقدار ثم انتقل الى الملك الصالح أيوب وصار من مماليكه البحرية (صبـح ٤٥٨/٥) ٠

البَرْوانـاه : لفظ فارسي معناه في الأصـل الحاجب وقـد أطلـق في دول الـروم السلاجقة بآسيا الصغرى على الوزير الأكبر ٠

البُغْلُطـــاق : (فارسية معناها المعطف) والبغلطاق = قباء صغير ٠ قال المقريزي صاحب الخطط في الكلام على الأسواق : استجد الأمير سلار أيام الملك

الناصر محمد القباء الذي يعرف بالسلاري ، وكان قبل ذلك يعرف بالبغلطاق وكانت هذه البغاليق اما بيضاء أو مشجرة أحمر وأزرق مرصعة بالجوهر وهي ضيقة الأكمام على هيئة ملابس الافرنج اليوم . ولم يزل هذا زيّهم الى أيام الملك المنصور قلاوون فغيّر هذا الزي بأحسن منه وأبطلوا الكم الضيق ، فلما ملك الأشرف خليل جمع خاصكيته ومماليكه وتخير لهم الأقبية الأطلس المعدني .

البُلّقيات : نوع من التواشيح العامية كانت شائعة في بلاد الشام .

البَلاليق : مفردها بليق وهو أغنية شعبية هزلية (دوزي) .. (.. وعملت العامة فيه أزجال وبلاليق) .

البَرك : (لفظ فارسي) معناه الثوب المصنوع من وبر الجمل ثم أصبح في كتب المؤرخين المسلمين لفظاً اصطلاحياً يطلق على أمتعة المسافر أو مهمات الجيش . (.. كان له ثروة زائدة ومال جزيل وسلاح عظيم وبرك هائل) (المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، لابن تغرى بردى). وفي بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن اياس : « ما نهب من برك العسكر والسلاح » .

بغلطاق : كلمة (فارسية) معناها القباء بلا أكمام أو بأكمام قصيرة جداً يلبس

بغلوطاق : تحت الفرجية، وكان يصنع منالقطن البعلبكي أو منالسنجاب أو من الحرير اللامع وكثيراً ما يزين بجواهر ثمينة .

بادشاه : (فارسية) الحاكم الأعظم .

الباب العالي : (تركية) مقر رئيس الوزارة أنشأه السلطان محمد الرابع سنة ١٦٥٤ وأطلق فيما بعد اسم المكان على ساكنه وهو يعني الوزير الأعظم .

بيلربيي : (تركية) بك البكوات (حاكم) .

البغدادي : يتخرج عليه كثير من الصوفية وانتهت اليه الرياسة في تربية المريدين والسالكين .

البايزة : (لفظ مغولي) وهي لوح صغير من ذهب مرسوم على أحد وجهيه رأس سبع كالوسام في عصرنا ، وكانت تمنح لكبار رجال الدولة عند المغول . (... أنعم عليه بالسيف والسنجق والكورس **والبايزة** الذهب برأس السبع) .

حـرف التـاء

تقـــادم : جمـع تقدمة وهي الهدية ٠

التجـافيـف : التجافيف : جمع تجفاف آلة للحرب من حديد وغيره تلبسها الفرس للوقاية بها كأنها درع ٠

التَمْبَلار والدّاويّة وفرسان الهيكل : Templiers ويقال فارس تمبلاري ٠

تَرْكـــاش : (فارسية) الجعبة التي يوضع فيها النشّاب (٠٠ وأمـر ألا يركب أحد الأمراء بسلاح ولا تركاش) ٠

التــــرك : المماليك في اصطلاح أهل دمشـق أما الأتراك العثمانيـون فكـانوا يلقبونهم بالعثامنة والعثمانية والتركمان احتقـاراً لهم ٠ (أعـلام الـورى ٢٧٩) ٠

التَرسْـــم : هو الأمر الذي يصدر من الجهة المختصة بعقوبة شخص وذلك بوضعه تحت المراقبة (دوزي) ٠

الترخان أو الطرْخان : الأمير في اللغة التركية ٠ وقـد استعملت في العصـر المملوكي بمعنى المعزول أو المتقاعـد بغير عمـل يجـري عليه مـن أموال الدولـة فالطرخانيات في الاصطلاح القديم هي الاحـالة على المعاش تقريبـاً (صبح الأعشى ١٣/٤٨) ٠

تـومـــان : يطلق اليوم على عملة صغيرة في ايران ، وقـد استعملت في العصـر المملوكي للدلالة : ١ ـ على عشرة آلاف دينار من الذهب ٠

٢ ـ على الفـرقـة العسكريـة المكونـة مـن عشرة آلاف نسمة ٠

التقليـــد : هو مرسوم التعيين الموقع من السلطان ٠

التَشْـــريف : هي الملابس المهداة الى كبار الموظفين (صبح الأعشى ٤/٥٢) وجمعها تشـاريف ٠

التطليـــب : المجيء بفرق من الجنود ذات مواكب ٠

التَوسـيط : أحد أنواع الاعدام في عصر المماليك وهو أن يعرّى المحكوم من الثياب ثم يشد الى خشبة مطروحـة على الأرض ويضـرب بالسيف تحت سرته ضربة قوية تقسم جسمه نصفين فتندلق أمعاؤه على الأرض ٠

التـَّازيـك	: لفظ استعمله المغول للدلالة على أهل فارس وكان قبلا يطلق على العرب والمسلمين عامة ٠
التِفِنْكجيـَّة	: المسلحون بالبنـادق والكفيـّات (تركيـة) مشتقة من تفنكـه أي البنـدقيـة ٠
التفنكجـان	: وهم المشـاة حاملو البنادق ٠

حـرف الجيـم

الجبـال	: اسم علم للبلاد المعروفة بالعراق العجمي وهي ما بين اصبهان الى زنجان وقزوين وهمذان والدينـور وقرميسين واترى وما بين ذلك ٠
الجَوْشَـن	: الدِّرع وقيل زرد يلبسه الصدر ٠
الجِهْبِـذة	: حرفة معروفة في نقد الذهب ٠
جُلـَب	: جمع جَلْبَة وهي القطعة من فضة وغيرها تضم الحربة بسنانها ٠
جِرْمَـدان	: جرم = جلد ، دان = ظرف = كيس من الجلد ٠
الجـوارش	: نوع من الحلوى (معرب) ٠
الجـَانداريَّة	: ١ ـ الحرس أو العسس (كلمة فارسية مؤلفة من كلمتين « جان » بمعنى روح و « دار » بمعنى حافظ والجاندار حـافظ الروح) ٠ ٢ ـ وظيفة صاحبها كالمتسلم للبـاب يستأذن على دخول الأمـراء للخدمة ويدخل أمامهم الى الديوان (صبح الأعشى ٤/ ٢٠) ٠
الجُـوكنـدار	: كلمـة فارسية مركبـة من كلمتين جـوكان ودار ومعناهما حامـل الصولجان في لعب الكرة ٠
الجاشـنكـير	: هو الذي يتصدى لذوق المأكول والمشـروب قبل السلطان أو الأمـير
الجاشـنكيرية	: خوفاً من أن يدس عليه فيه سمّ ونحوه ٠
الجاويشـيـة	: هم الذين يركبون في مقدمة موكب الملك أثناء سفره ٠
الجـاليـش	: الراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر ، وكان المماليك يطلقونها على الطليعة من الجيش (صبح ٤/ ٨) (انظر كلمة : الأعلام) ٠
الجُسـورَة	: موضع بظاهـر دمشق ٠
الجـامكيّـة	: (كلمة فارسية) معناها الراتب المربوط لشهر أو أكثر ٠ والجمع جماكـي ٠

الجِتَر	:	المظلة وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب تحمل على رأس الملك في العيدين ، وهي من بقايا الدولة الفاطمية (فارسية معربة) (صبح ٤/٧ ، ٨) .
الجَوَالي	:	مفردها الجالية وهي ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة (الصبح ٣/٤٦٢ ، نهاية الأرب ٢٣٦) .
جَنَوِيَّة	:	معناها تعريشة من خشب أو سياج درابزين Palissade .
الجفتاوان	:	مفردها جفتة وهما اثنان من أوشاقية اصطبل السلطان يركبان أمامه في أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكرة في الميدان الكبير ونحو ذلك .
الجَمَقْدار	:	حامل الدبوس ، أمام السلطان وهو مركب من كلمتين جمق ومعناه دبوس ودار ومعناه حامل أو ماسك .
الجِنك	:	آلة موسيقية على شكل رباعي .
الجِشار	:	مرج الخيل والجشر والجشار الماشية ترعى في مكانها والجشاري راعي الجشار .
الجنود	:	تقسم الجنود في العصر المملوكي الى قسمين : الأول المماليك السلطانية وهم أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً وأوفرهم اقطاعاً ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة . والثاني : أجناد الحلقة وهم الجنود المرتزقة من غير مماليك السلطان ، ولكن أربعين جندياً مقدّم عليهم منهم ليس له عليهم حكم الا اذا خرجوا لحرب أو سفر فحينئذ يقودهم مقدمهم .
الجرائحية	:	الجراحون .
الجاويشية	:	(تركية) وهم الرسل لابلاغ الأوامر وجباية الأموال في الأقاليم .
الجمليان	:	(تركية) المتطوعون من الفرسان وأطلق الاسم فيما بعد على طائفة الجمليان لركوب أفرادها الجمال .

حرف الحاء

الأحواش	:	جمع حوش العامية يراد بها أراذل الناس .
الحريرية	:	أتباع الشيخ علي الحريري (المتوفى سنة ٥٦٤ هـ) مقدّم الطائفة الفقراء الحريرية .

الحَيْـدَرِيّة : طائفة صوفية تنتسب الى قطب الدين حيدر وهم الذين يجعلون حلق الحديد في أيديهم وأعناقهم وآذانهم ويجعلونها أيضاً في ذكورهم حتى لا يتأتى لهم النكاح ٠

الحرمـــدان : (كلمة فارسية) مركبة من كلمتين : الحـرم ودان ومعناها حقيبة السفر أو شنطة السفر ٠

حرك الطبلخاناه حربياً: المقصود قرع الطبول لتنبيه الجنوه وحثّهم على الاستعداد للحرب ٠

الحَوَنْـدار : هو الذي يكلف لخدمة طيور الصيد من الكركي والبلشونات ٠ ويحملها الى موضع تعليم الجوارح وأصله « حيوان دار » (صبح

الحَوَنْدارِيّة : الأعشى ٥/٤٧٠) ٠

الحَرّاقـة : ١ ــ نوع من السفن فيها مرامي نيران يرمي بها العدو في البحر ٠
٢ ــ سفينة حربية كبيرة كانت تستخدم بالبصرة لحمل الأسلحة النارية وفي مصر لحمل الأمـراء ورجـال الدولة في الاستعراضـات البحـريـة ٠

الحَـوْاط : هو الذي يضع يده على الأموال احتياطاً خوف تهريبها ٠ وهو يشبه في أيامنا (الحارس القضائي) وقد يقومون بارتجاع الأموال ممـن يموت من الأمراء وتضاف الى أموال الدولة ٠

الحَشَـرات : الزعران وأوباش القوم ٠

الحـاجـب : كان في العصـر المملوكي عدة حجـاب لهم رئيس يقـال له « حاجب الحجاب » ويعبر عنه رسمياً « بأمير حاجب » وهو مقدم ألف ووظيفته الجلوس بدار العدل وينوب عن النائب عن دمشق أثناء غيبته ، واذا صدر مرسوم سلطاني بالقبض على نائب السلطنة بها كان هو الذي يقبض عليه ٠ وقد يصل عدد الحجاب الى ستة ٠

الحَشَـرِيَّـة : كان المذهب السائد في العصر المملوكي هو المذهب الشافعي ، وهذا المذهب لا يورث ذوي الأرحام كما في مذهب أبي حنيفة المعمول بـه في عصرنا ولذلك كان في العهد العباسي والأيوبي والمملوكي دائرة حكومية تسمى الدائرة الحشرية فـاذا مات الميت عن زوجـة وبنت وضعت الحشرية يدها على التركة فأعطت البنت والزوجة نصيبهما وأخذت الباقي لبيت المال ٠

الحَلْقــــة	: (اصطلاح أيوبي) يسمى الأجناد بهذا الاسم لاحاطتهم بالسلطان وتأليفهم حرسه · ويقال بأن الاصطلاح عسكري يعني الاحاطة بالعدو على شكل حلقة ·

حرف الخـاء

خُبْــز	: معناه اقطاع من الأرض أو قطعة منها تركت لأمير يتعيش بها وهي تقابل اللفظة الفرنسية Apanage (دوزي تكملة المعاجم ١/٣٤٨).
الخِـرَقيّ	: من يبيع الخرق والثياب ·
خَـوَنْـد	: أمير ·
الخَـرْكـاه	: القبة أو الخيمة (فارسية) ·
الخُشْداش	: الخادم والغلام والخصيص والزميل والصاحب وتدل عند المماليك على مملوك مع رفيقه في خدمة أمير (فارسي معرب) ·
الخُجْداش	: والخُشْداشية ـ في اصطلاح عصر المماليك بمصر ـ الأمراء الذين نشأوا مماليك في عهد سيد واحد فثبت بينهم رابطة الزمالة القديمة.
الخَزْنَدارية	: موضوعها التحدث عن الخلع والتشاريف السلطانية بالقلعة ·
خـوانجـا	: الخوان أو المائدة الصغيرة (فارسية) ·
الخـازنـدار الخازنـدارية	وظيفته الحفاظ على خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش : (صبح الأعشى ٤/٢١) ·
الخاصَكيَّـة	: جماعة الملك يدخلون عليه في أوقات خلواته وفراغه ويقومون بخدمة القصر والاسطبل ويتميزون عن غيرهم في الخدمة بحملهم سيوفهم ، ولباسهم الطراز المزركش ، ويدخلون على الملك في خلواته بغير اذن · وينالون الرزق الواسع والعطايا الجزيلة من الملوك ·
خريطـة دار	: صاحب الكاغد والأقلام بدار السلطان ·
الخَـرْكـاه	: بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشى بالجوخ ونحوه يحمل في السفر ليكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد ·
الخُفّ البرغالي	: ذكره ابن بطوطة حين انصرف عن القسطنطينية قال : وفي رجلي خف من صوف وفوقه خف مبطن وفوقه خف من البرغالي : وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب ·
الخنكـار	: كلمة فارسية بمعنى السلطان الأعظم ·

الخانقاه	:	أو الخانكاه معناها الدار التي يختلي فيها الصوفية لعبادة الله وفي تاريخ الاسلام هي كالدير في النصرانية محل للتعبد والزهد والبعد عن الناس .
الخيولة	:	الفروسية .
خلعة الاستمرار	:	علامة رضا السلطان والبقاء .
خيال الازار	:	الكركوز .
الخواجك	:	من ألقاب أكابر التجار الأعاجم من الفرس وهو لفظ فارسي معناه السيد . والخواجكي نسبة اليه للمبالغة .
الخواجكي	:	بزيادة كاف نسبة اليه للمبالغة (كان الكاف في لغتهم تدخل مع ياء النسب وفي العهد المملوكي كانت كبار التجار تخاطب كما يخاطب الأمراء بالنعوت والألقاب .
الخَلْوَتيّة	:	طريقة صوفية أسسها الشيخ أيوب بن أحمد الخلوتي (٩٩٤ ـ ١٠٧١ هـ) الأعلام ١/٣٨٠ .
خنكار	:	(تركية) السلطان الأعظم .
خوان سَلاّر	:	لقب مختص بكبير رجال المطبخ السلطاني وهو مركب من لفظين : أحدهما خوان وهو الذي يؤكل عليه والثاني سلار وهي فارسية ومعناها المقدم وكأنه يقول : مقدم الخوان ، والعامة تقول : « أخوان سلار » بألف في أوله وهو لحن .

حرف الدال

الدَسْت	:	يطلق على الديوان ومجلس الوزارة والرياسة .
الدبادب	:	جمع دبْداب وهو الطبل .
دار الصناعة	:	أخذ منها الترك كلمة « ترسانة » وأخذ الفرنسيون كلمة Arsenal والصناعة هي المكان المخصص لانشاء وتعمير جميع السفن والمراكب الخاصة بأعمال الدولة ، سواء أكانت حربية أم خاصة بركوب الخليفة أو الملك أو من المراكب التي تنقل الغلات السلطانية والأحطاب وغيرها .
الدَرْبَنْد	:	باب الأبواب .
الدَيْصَانية	:	أصحاب ديصان وهم طائفة من المجوس أثبتوا أصلين نوراً وظلاماً ، فالنور يفعل الخير قصداً واختياراً ، والظلام يفعل الشر طبعاً واضطراراً (الملل والنحل للشهرستاني ٤/٢٩٩) .

دَبْنـــدار	:	هو الذي يضرب على الطبل ٠
الدراهم النُقْرة	:	ثلثاها من فضة وثلثهـا من نحاس وتطبـع بدور الضـرب بالسـكة السـلطانيـة ٠
الدُروزيّــة	:	طائفة من الاسماعيلية وهـي التي تقول باثبات الامامـة لاسماعيل ابن جعفر الصادق لأنه ابنه الأكبر ٠
دوادار	:	صـاحب الـدواة ٠
الدَوادريّــة	:	هم الذين يمشون بين يدي السلطان ويحملون المشاعل بالليل ٠
الدَيابيـــق	:	نوع من الحرير المنسوب الى ديبق بلد قديم من أعمال تنيس بمصـر (دوزي) ٠
دَرْبَسْت	:	التخـوم والحـدود ٠
دَرْبَس	:	كلمة عامية دمشقية بمعنى أحكم اغلاق الأبواب (أعلام الورى ٢٩٠).
دار السعادة	:	اسم يطلق عند الجراكسة والعثمانيين على دار الحكم ٠ ولذلك أطلق على مدينة القسطنطينيـة وهي اسطنبول العاصمة القديمـة للدولة التركية بأوروبا فعـرفت بدار السعادة لأنهـا كانت قصراً للحكم العثماني وتطلق دار السعادة أيضاً على دار الحكومة التي يقيم فيها الوالي أو الحاكم لادارة شؤون الولاية أو المقاطعة (٠٠ ثـم ركب قراسنقر اليه ولقيه بميدان الحصى خارج دمشق وأنزله عنده بدار السعادة) (النجوم الزاهرة ٢٨/٩) ٠
الدَرَاريـب	:	مفردها درابة وهي أحد مصراعي باب الدكان اللذين ينطبق الأعلى منهما على الأسفل مولدة (دوزي) ٠
الدينار الهَرَجة		هو الدينار الذهب الكامل الوزن الخالص العيار تمييزاً له عن الدينار
أو المَهَرجـة	:	الناقص الـوزن الذي ضـرب في عهـد الناصـر فـرج بن برقـوق سنة ٨٠٨ هـ ٠
ديوان الجيش	:	يعادل وزارة الحربية الآن ٠
الدينار المُشَخَّص	:	عملة أجنبية مرسوم على أحـد وجهيها صورة ملـك الدولة التي ضربت فيها (اصطلاح مملوكي ، صبح الأعشى ٤٤١/٣) ٠
الديوان المفرد	:	كان للخليفة في الدولة الفاطمية ديوان يسمى الديوان المفرد ، وكان للملك الظاهر برقوق ديوان المفرد أيضاً أفرد له بلاداً للصـرف من مستغلها على نفقة مماليكه من جامكيـات وعليق وكسـوة (صبح الأعشى ٤٥٧/٤) ٠

الدشيشة : أكلة في العهد العثماني مؤلفة من القمح المسلوق ·

دوك : Duc (ملوك البندقية الافرنج) ·

الدالاتيّة : فرقة من الانكشارية ·

الدَفتَرخانه : (تركية) دائرة تعنى بالشؤون المالية ويسمى رئيسها الدفترامينى.

الدَفشَرمه : (تركية) معناها جماعة من الشبان الذين كانوا يُجْمعون من ولايات الروملي لانتقاء الشبان الأشداء منهم وتعليمهم في مدارس خاصة علىَ أن يصبحوا فيما بعد موظفين اداريين وعسكريين وكان غالبيتهم من الصقالبة الألبانيين ·

دفونش : اسم ملوك الأندلس · Alphonse .

حرف الراء

الرَنك : معناها الشعار (فارسية) ·

رأس نوبة : وظيفة من أرباب السيوف في الدولة الأيوبية وما بعدها وموضوعها الحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم ، وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء : واحد مقدم ألف ، وثلاثة طبلخاناه (صبح الأعشى ٤/١٨) ·

الرَخت : (كلمة فارسية) لها عدة معان : البضائع والماشية والخيل والعدة والرياش ، (·· ومعهم ماشية كثيرة ورخت عظيم) ·

الرَوك : (كلمة قبطية) معناها القيام بعملية قياس الأرض وحصرها في سجلات وتثمينها أي تقدير درجة خصوبة تربتها لتقدير الخراج عليها · يقال : راك البلاد ويروكها (أراد الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري أن يروك البلاد المصرية وينظر في أمور العسكر) (النجوم الزاهرة ٨/٩٢) ·

الرَكبَدارية : لفظ فارسي معناه الفرسان ·

الربُط : مفردها رباط وهي الدور التي يسكنها جماعة من الصوفية أهل طريق الله الزاهدين في الدنيا · وفي مصطلح أهل دمشق في العصر المملوكي هو كالخانقاه لكنه خاص بالنساء المتعبدات ·

الرزَق : مفردها رزقة وهي الأطيان التي كان يعطيها الخلفاء والملوك والسلاطين بمقتضى حجج شرعية أو تقاسيط ديوانية الى بعض الناس على سبيل الاحسان والأنعام ·

الركابية : هم الذين يركبون خيول السلطان والأمراء لتسييرها وترويضها أو لتدريبها على السباق ٠

رأس نوبة النوب : لقب لمن يتحدث عن مماليك السلطان أو الأمير وينفذ أمره فيهم ويجمع على رؤوس نوب (صبح الأعشى ٥/٤٥٥) ٠

رأس الميسرة : كبير الأمراء المتقدمين في السن من أكابر أمراء المائة في العصر المملوكي ٠

الرختوان : المتولي أمر القماش ٠

الرباط : يبنى للفقراء ٠ اسم من رابط مرابطة اذا لازم ثغر العدو ٠

الطريقة الرفاعية : أسسها الأمام الرفاعي ٥١٢ ـ ٥٧٨ ، الاعلام ١/١٦٩ ٠

ريد افرنس : ملك الافرنس Roi des Frances .

حرف الزاي

زبزب : سفينة صغيرة ٠

الزعران : الأحداث ٠

الزردخاناه : (السلاح خاناه) ومعناها بيت الزرد لما فيها من الدروع والزرد وتشتمل على أنواع السلاح من السيوف والقسي والنشاب والرماح والدروع وغيرها (صبح الأعشى ٤/١١) ٠

الزوايا : مفردها زاوية + كان هذا الاسم يطلق قديماً على كل مسجد صغير فيه أحد الرجال المشهورين بالتقوى والصلاح يقوم بوظيفة الوعظ والارشاد ولمن يتردد على زاويته من الناس ٠ وأما اليوم فيطلق اسم زاوية على كل مسجد صغير ليس له مئذنة وليس فيه منبر يخطب عليه في صلاة الجمعة ٠ وكل مسجد فيه منبر يسمى جامعاً حيث يجتمع الناس فيه ويخطب على منبره في صلاة الجمعة ٠

الزركش : الحرير المنسوج بالفضة والأصح بالذهب لأنه مركب من « زر » أي ذهب ومن « كش » أي ذو ٠

الزعران الزعر : الزعران وأوباش القوم ٠

الزراقون : ويقال لهم النفاطيون وهم الذين يحملون بأيديهم قوارير فيها مواد مشتعلة تمرنوا على اشعالها والقائها على العدو وتشبه في عصرنا القنابل المحرقة Cocktail Molotov

زَرْبُــــول : وجمعها زرابيل نوع من الأحذية كان يلبسه الخدم قديماً ويقـول دوزي انه كان للعبيد في اليونان ثم تطور استعماله (دوزي تكملة المعاجم) (٥٤٨/١) .

الـزُرَب : (تركية جمع زربة) العصاة من العساكر .

حـرف السين

السَّراخُورِيَّة : السراخور هو المسؤول عن علف الدواب من الخيل وغيرها وهو مركب من لفظين فارسيين أحدهما سرا ومعناه الكبير والثاني خور ومعنـاه العلف فيكون معناه كبير العلف والمراد كبير الجماعة الذين يتولـون علف الدواب .

اللواء (فارسي معرب) .

السَّقلاطـون : الملابس الملونة وهم اسم بلد بالروم تُصنع فيه الملابس وتنسب اليه.

السَّمُرة والسَّامِرة : قوم من اليهود من قبائل بني اسرائيل يخالفون اليهودفي بعض أحكامهم كانكارهم نبوة من جـاء بعد موسـى وزعمهم أن نابلس هـي بيت المقـدس .

سِـقِرلاط : ملابس صوفية مدفئة .

السَّراخُور : المكلف بعلف الدواب وغيرها (سرا = كبير خور = علف) فارسي .

السـقامين : جمع سقمان وهو خف ثان يلبس فوق خف آخر كان يستعمل في دولة المماليك يلبسه الحريم والجنود والأمراء والسلطان نفسـه . (قال المقريزي في خططه: «وفي أرجلهم من فوق الخف سقمان وهو خف ثان» .

سـباهسـلار : مقدم الرماة (انظر : اسفهسلار) .

سـلحدار : رتبـة عسكرية .

سلحدارية : المسلحون من حراس الملك .

السَّـنْجَـق : اللواء وهو الذي يعقد للملوك والأمراء فارسيته سنجوق .

السُّهْرَوَرْدِيَّة : طريقة صوفية أسسها أبو حفص عمر السهروردي البغدادي : تخرج عليه كثير من الصوفية وانتهت اليـه الرياسـة في تربية المريديـن والسالكين .

السَّـمْرا : كان لليهود السامريين حي في دمشق في طرف قرية جوبر قرب جسـر تورى على طريق دوما سماهم الدمشقيون في العصر العثماني السمرا (أعلام الورى ٢٧٠) .

السَّريـاق : خشبة التأديب . (دوزي) .

السَّرياقات : مفردها سرياقة وهي السوط يصنع من جلد فرس البحر (دوزى) .

السَّحَّابـة : طائفة ممن يرافقون الحاج للمحافظة عليه .

السّـدّة : هي المقصورة ولكنها في العصر المملوكي استعملت لسقف المقصـورة وكان يصلي عليها المؤذن .

السهام الخطَائيَّة : هي سهام تعلق في رؤوسها مواد متفجرة محرقة نسبة الى الخطا وهم جيل من الترك القريبين من بلاد الصين ومن هنا جاءت فكرة أخـذ العرب استعمال البارود عن الصين وكانت الخطائية من جملة المماليك المشتراة ففي النجوم الزاهـرة (٦/٣٦٠) ان الملـك الصالح نجم الدين أيوب أقبل على شراء الترك والخطائية ومساكن الخطا تطلـق على القسم الشمالي من الصين أي منغولستان والجهة الشرقيـة من تركستان .

السِّباهيّة : الفرسان في الجيش العثماني .

السِّمَاط : اسم التكية في العهد العثماني .

حـرف الشـين

الشُّرفـات : مثلثات تبنى متقاربة في أعلى القصر أو السور ، الواحدة شرفة .

الشهود المعدّلون : وظيفتهم دينية مثل وكالـة بيت المـال والمحتسب وحضـور مجلس القاضي .. فاذا جلس القاضي بالمجلس جلس هؤلاء الشهود حواليه يمنة ويسرة على مراتبهم في تقدم تعديلهم فيجلس الشاب المتقـدم لتعديل أعلى من الشيخ المتأخر التعديل . وكـان من مصطلحهم الا يعدل شاهد الا بأمر الخليفة (الصبح ٣/٤٦٨) .

الشُّطَّـار : طائفة من أهل الدعارة والنهب واللصوصية كانوا يمتازون بملابس خاصة بهم وكانوا لا يعدون اللصوصية جريمة وانما يعدونها صناعة ويحللونها باعتبار أن ما يستولون عليه من أموال التجار الأغنيـاء زكاة تلك الأموال التي أوصي باعطائهـا للفقـراء . وكانـوا اذا كبر أحـدهم تاب فتستخدمـه الحكومة في مساعدتهـا على كشـف السرقات . وكان في خدمـة الدولـة العباسية جماعـة من هـؤلاء الشيوخ يقال لهم « التوابون » على أنهم كثـيراً ما كانوا يقاسمون اللصوص ما يسرقونه ويكتمون أمرهم .

الشُّروطيّ : نسبة الى كتابة الشروط وهي الوثائق .

الشـوانـي : جمع شونة وهـي مركب حربي كبير كانـوا يقيمون عليه أبراجـاً وقلاعاً للدفاع وهي أهم القطـع التي كـان يتألف منها الأسطول في الدول الاسلامية ·

الشّونيزية : مقبرة ببغداد بالجانب الغربي دفن فيها جماعة من الصالحين ·

شِحنَة البلد : من كان فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان ·

والشِحْنَجِيَّة : مكتب رئيس الشرطة الذي يسمى شَحْنَة ·

شاهنشـاه : معناه ملك الملوك ·

الشّهر زوريّة : نسبة الى شهرزور احـدى جهـات كردستان وكـان بتلك جماعـة الأكراد الكوسية وظلوا فيها حتى استولى هؤلاء على بغداد وتقدمت جيوشهم شمالا نحو شهرزور ففر شهرزوريـه من وجـه التتـار الى الشام ومصر ·

الشـاشـات : جمع شاش وهي قطعة من قماش كانت تُلاث على الكلّوته ·

شَرَبْدارِيّة : الذين يسقون الشربة ·

الشّرَبْدار : (فارسية معناها ممسك الشراب) وهـو لقب لمن يتصـدى للخدمة بالشراب في الشراب خاناه ·

شادّ العمائر : هو ناظر العمارات والمباني السلطانية ·

الشَّرْبُوش : قلنسوة طويلة معربة عن سربوش أي غطاء الرأس ·

الشّـورة : هدية العرس ·

شُلاّق الزّعر : سيئو الخلق · والشلاق جمع شلق وهو مرادف للزعر والمراد بهم من يدخلون الخوف في قلوب الناس · (·· وتزايد شُلاّق الزعر وتسلط عبيد الطواشية على الناس ·· (النجوم الزاهرة ١٠/١٢٣) ·

الشاليش (الجاليش): اسم لعلم من الأعلام التي كانت تحملها (انظر كلمة الأعلام) جيوش المماليك في الحروب وكان من الحرير الأبيض المطرز تعلق في أعـلاه خصلة من الشعر · والجاليش كلمة تركيـة معناهـا مقدمة القلب وسمي بذلك لأن ترتيب جاليش السلطان في المواقع التي يحضرهـا يكون عادة في قلب الجيش (·· خرجت ريـح شديدة ألقت شاليش أرغون الكاملي على الأرض ··) (النجوم ١٣٦) ·

شاهد الخزانة : وظيفة ديوانية قد تعني موظف المالية والجمرك وأيضاً مفتشاً ومسجلا (دوزي) وقد تعني الذي يشهد شؤون الديوان نفياً واثباتاً ·

الشَّعْرِيَّة	: نسبة الى الشعر وهي غشاء أسود رقيق يكـون على وجـه النسـاء والأرمـد •
الشـش	: نوع من المسكر مثل اليشتكي والتمر بغاوي • (أهدى اليه مشروباً يقال له : الشُش) •
الشَّشْنَة	: أخذ جرعة من الشراب عنه للاختيار مخافة أن يكون به سُم(دوزي) •
شـيني	: سفينة حربية كبيرة (دوزي) •
الشرابخاناه	: الموضع المخصص للأشربة والحلوى والعقاقير والفواكه •
شادّ الشرابخاناه	: هو المشرف على شؤون الشَّرابْخاناه •
الشَّـرايـق	لقب للقائم بتقديم أنواع الشراب •
شادّ الدواوين	: اختصاصه أن يكون رفيقاً للوزير مهمته استخلاص الأمـوال وما في معنى ذلك ويعين فيها أمير عشرة (صبح الأعشى ٢٢/٤) •
الشَّـدّ	: لفظ اصطلح عليه في العصر المملوكي وصاحب هذه الوظيفة يقال له شاد مضافاً للوظيفة (انظر كلمة شاد) فيقال شـاد الأوقاف وشـاد الدواوين ، وشاد العشر وشاد الزكاة ، وشاد دار الطعم وهي تعادل ما يسمى مأمور الأوقاف ، ومأمور الدواوين ، ومأمور العشرين وقد تعادل ما يسمى بالمدير •
الشَّحْنَـة	: الشرطة في العصر المملوكي •
شيف وشياف	: أدوية خاصة بالعين والجمع أشياف مكان معـد للشـرابات والمعاجين والأكحال والأشياف •
الشَّحْنَكِيَّه	: وظيفة تعادل في عصرنا (مديرية الشرطة والأمن العام) •

حـرف الصـاد

الصولجان والصولجانة:	عصا يعطف طرفها ، تضرب بها الكرة على الدواب •
صاحب الباب	: وظيفة ثاني رتبة الوزارة وكان يقال لها : الوزارة الصغرى وهي أن ينظر في المظالم اذا لم يكن وزير صاحب سيف • فان كان ثم وزير صاحب سيف كان هو الذي يجلس للمظالم • وصاحب الباب من جملة من يقف في خدمته • وصاحبها في المعنى يقرب مـن النائب الكافـل (صبح الأعشى ٤٨٣/٣) •
صبيان الرّكاب	: وظيفتهم حمل السلاح حول الخليفة في المواكب وعددهم يزيـد على ألفي رجل ولهم اثنا عشر مقدماً •

الصَّقالبة : جيل ، حمر الألوان صهب الشعور تتاخم بلادهم بلاد الخزر وبعض بلاد الروم Slaves وكان النخاسون يحملونهم للاتجار في أنحاء العالم ، وهم احدى طوائف العسكر في أيام الخلفاء الفاطميين •

الصَّوْلق : مخلاة من جلد يضعها الشخص في حزامه من الجهة اليمنى والجمع صوالق •

الصَّفَوِيُّون : نسبة الى الشيخ صفي الدين اسحاق المتوفى سنة ١٣٢٤ مؤسس طريقة صوفية في أردبيل (سجستان) في أواخر القرن الثالث عشر •

الصَّفَوِيَّة : منهم علاء الدين شاه اسماعيل الصفوي تسمى هذه الأسرة بالصفوية نسبة الى أحد أجدادها صفي الدين وقد توصلت هذه الأسرة عن طريق الصوفية •

حرف الضاد

ضَريبة الشُّونة : ما يقدمه الأهالي للجيش المرابط عندهم •

ضريبة الدُّخولية : مرور البضائع الى المدينة •

ضريبة التسريح : على انتقال الحاصلات الزراعية •

ضريبة الطاحون : على الحبوب والمواشي •

حرف الطاء

الطُّلْب : لفظ كردي معناه الأمير ، ثم عدّل مدلوله فأصبح يطلق على الكتيبة من الجيش • وكان أول استعمال هذا اللفظ بمصر والشام أيام صلاح الدين الأيوبي (دوزي) •

الطارمة : بيت من خشب يبنى سقفه على هيئة قبة لجلوس السلطان وجمعها طارمات •

طربال : قبة عظيمة •

الطَّرْمَة : قبة أو غرفة عالية مفتوحة من جوانبها يطل الجالس فيها على ماحوله وهي الطيارة في اصطلاح أهل دمشق •

طُغْزُغْز : (يقال أيضاً تُغُزْغُزْ وتُغَزْغُزْ) جيل من الترك كانوا يسكنون أرضاً واسعة على حدود الصين وهم فيها أصحاب خيام كأعراب البادية.

الطُّومار : الصحيفة •

الطُرُز	:	جمع طراز وهو ثوب ينسج للسلطان خاصة .
الطِّلَّسْم	:	كلمة مأخوذة من لغة اليونان . (في علم السحر خطوط واعداد يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية .. وتعني أيضاً كل ما هو مبهم وغامض) .
طَيَّار	:	(يكثر ورود الطيار في كتب الأدب والتاريخ بما يفهم منه أنه زورق فخم لركوب العظماء والظاهر أنهم سموه بذلك لأنه من السفن الخفيفة السريعة الجريان كأنها لسرعتها تطير على وجه الماء واستعمال الطيران للسرعة مألوف في كلام العرب والمُحدَثين) .
طَبَنْسِيّ	:	الجماعة أو الجنود . (فارسية) ولعلها تحريف لكلمة الطَّبْش العربية وهي الجماعة) .
الطَّبَلْخاناه (١)	:	وهي طبول متعددة معها أبواق وزمّارات تختلف أصواتها على ايقاع مخصوص . تدّق في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب ، وتكون صحبة الطلب في الأسفار والحروب وهي من الآلات العامة لجميع الملوك . وتطلق كلمة الطبلخاناه على بيت الطبل الذي يشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات . وأمير الطبلخاناه هو الذي يرقى الى درجة يستحق بها أن تضرب الموسيقى على بابه ويكون أمير أربعين ويتدرج في الزيادة الى الثمانين ، ويعد أمير الطبلخاناه في الدرجة الثانية من الأمراء .
الطَّبَلْخاناه (٢)	:	لها أربعة معان : ١ ـ دار الطبل . ٢ ـ الطبول وما يتبعها من الآلات . ٣ ـ رجال الجوق أي الفرقة الذين يحملون الطبول ٤ ـ كانت من أسماء الرتب التي تمنح للأمراء .
طشت داريه	:	المكلفون بالطشت ، وهم من الحاشية .
الطَّرد وحش	:	ضرب من الثياب تصنع على هيئة جلد الوحش ، قال المقريزي في خططه : « انه ثاني الأطلسين : الأطلس الأول لأكابر أمراء المئتين والطرد وحش لمن دونهم في المرتبة . وكان يعمل بدار الطراز بالاسكندرية ومصر ودمشق .
طوامين	:	مفردها طومان وهو مقدم عشرة آلاف جندي .
الطَّسْمَة	:	كلمة فارسية ، قطعة سير من جلد تشحذ عليها الموسى اذا نَبَت .
الطباق	:	هي مساكن المماليك بالقلعة .

حـرف العـين

العِلْـج : الرجل القوي من كفار العجم .

العماريّـات : جمع عمارية وهي الهودج يجلس فيه .

العشـاريّ : نوع من السفن يسمى ديماس يخرج به الخليفة أيام الخليج أي عندما يفتـح الخليج .

العيّـارون : ظهر العيارون ببغداد في أواخر القرن الثاني وكان لهم في الفتنة بين الأمين والمأمون شأن كبير لأن الأمين لما حوصر في تلك المدينة وعجز جنده عن الدفاع استنجد العيّارين وأهل السجون وكانوا يقاتلون عراة وفي أوساطهم المآزر وقد اتخذوا الرؤوس دواخل من الخوص وسموها الخوذ ودرقاً من الخوص والبواري قد قرنت وحشيت بالحصى والرمل ونظموهم نظام الجند (المسعودي ٢/٢٣٩ ـ ٢٤١) .

العـدليـة : المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل .

العبَـرة : كلمة اصطلاحية معناها « مقدار المساحة » ، وقد تطلق على مقدار ما يكون في حيازة كل شخص من الأرض .

العنبريـنـة : نوع من الحلي المعنبر تلبسه النساء حول الرقبة .

علـم دار : لقب الذي يحمل العلم مع السلطان في المواكب وهو مركب من لفظين: أحدهما عربي وهو العلم والثاني فارسي وهـو دار والمعنى ممسك العلم (صبح الأعشى ٥/٤٦٣) .

العشـير : المعاشر وهم الجند المرتزقة (... وانتهبت العربان والتركمان والعشير وما كان من العسكرين) .

العـوديّة : المطربة التي تجيد الضرب على العود .

العـوانيـة : العوام والزعران والأوباش (أي أعوان الحاكم الظالم) .

حـرف الغين

الغـاشـية : سرج من أديم مخروز بالذهب تحمل بين السلطان عند الركـوب في المواكب الحفلة كالميادين والأعياد ونحوها (صبح الأعشى ٤/٧) . (ومشى بين يديه بالغاشية) .

الغفـارة : زرد من الدرع ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .

الغيـار : علامة أهل الذمة كالزنار وغيره .

الغـلام : هـو الذي يقوم بخدمة الخيل .

الغربـان : من جنود الانكشارية المشاة .

حـرف الفـاء

الفـارقـي : (نسبة الى ميا فارقين) .

الفِراش خاناه : ومعناها بيت الفراش ، وتشتمل على الفرش من البسط والخيام ولها مهتار (كبير أمناء مخزن الفراش خانه) يعرف بمهتار الفراش خانـاه وتحت يده جماعة من الغلمان مستكثرة مرصدون للخدمة فيها في السفر والحضر يعبّر عنهم بالفراشين وهم من الغلمان ولهم دُرْبة في نصب الخيام ، حتى أن الواحـد منهم ربما أقام الخيمة العظيمة ونصبها وحده بغير معاون له في ذلك ، ولهـم معرفة تامة بشد الأحمال التي تحمل في المراكب على ظهور البغال يبلغ الحمـل منها نحو خمس عشرة ذراعاً (صبح الأعشى ٤/١١) .

الفِداويّة : جماعة من الاسماعيلية سمّوهم الفداوية لأنهم يفادون بالمال على من يقبلونه ويسمون في بلاد العجم بالباطنية لأنهـم يبطنون مذهبهـم ويخفونه وتارة بالملاحدة لأن مذهبهم كله الحاد وهم يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية . قال القلقشندي نقلا عن مسالك الأبصار : « ولصاحب مصر بمشايعتهم مزية يخافه بها أعداؤه لأنه يرسل منهم من يقتله ولا يبالي أن يقتل بعده ، ومن بعثه الى عدوه فجبن عن قتله قتله أهله اذا عاد اليهم ، وان هرب تبعوه وقتلوه » كان الفداوية في الزمن المتقدم يسمون كبيرهم مقدم الفداوية وتارة شيخ الفداوية. (صبح الأعشى ١١٩/١) (.. وكان الملك الناصر .. يصل الى من يريد قتله بالفداوية) .
(النجوم الزاهرة ١٧٦/٩) .

الفَاميـّـة : باعـة العلف والحبوب .

حـرف القـاف

القــرط : نبات يزرع بمصر عليه تسمن الدواب .

القرامطـة : فرقة من الزنادقة أتباع الفلاسـفة من الفـرس يعتقدون بنبـوءة زرادشت وفَزْدك وماني .

القَهْرمـان : الوكيل أو أمين الدخل والخرج .

قَراقـوش : لفظ تركي معناه بالعربي العقاب الطائر المعروف وبه سمي الانسان لشهامته وشجاعته .

القبجاق : (أو القفجاق) جنس من الترك يسكنون صحارى الدشت أو صحارى القبجاق أهل حل وترحال على البدو (صبح ٤/٤٦٥) ٠

قرقل : نوع من الدروع (دوزي) ٠

القراقير : مفردها قرقور وهو ضرب من السفن وقيل هي السفن العظيمة أو الطويلة (لسان العرب) ٠

القراقل : الدرع تصنع من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأصفر والأحمر (صبح الأعشى ٤/١١) ٠

القتل صبرا : يقال للرجل اذا شدت يداه ورجلاه أو أمسكه رجل آخر حتى يضرب عنقه ، أو حبس على ذمة القتل حتى يقتل ٠

القيسارية : تطلق في مصر على سوق سقوفه تجمع مختلف الصناعات والتجارات ، وفي الشام على الخانات الكبيرة ٠

قضاء العسكر : وظيفة جليلة في العصر المملوكي يحضر صاحبها الى دار العدل مع القضاة ويسافر مع السلطان اذا سافر (صبح الأعشى ٤/٣٦) ٠

القلندرية : كلمة أعجمية معناها المحلقون ٠ وهي طائفة صوفية يحلقون رؤوسهم وشواربهم ولحاهم وحواجبهم ٠ وكانت هذه الفرقة مكروهة من الفقهاء ورجال الدين ، نشأت في عهد الظاهر بيبرس البندقداري وهو الذي شجعها وكان سبب انتشارها في الشام ومصر ٠ ومن مشاهير رجالها الشيخ عثمن كوهي الفارسي الذي ورد اسمه في قصة الملك الظاهر بيبرس الشعبية باسم (عثمان بن الحبله) ٠ وقد ظهرت هذه الطائفة بدمشق سنة ٦١٦ هـ وفي سنة ٧٦١ هـ ورد كتاب من السلطان بالزام القلندرية ترك لحاهم وحواجبهم وشواربهم وترك زي الأعاجم والمجوس وأن لا يدخل أحد الى بلاد السلطان حتى يترك هذا الزي المبتدع واللباس المستشنع ٠ ومن لا يفعل ذلك يعزر (يضرب ضرباً شديداً) شرعاً ٠ وكان للقلندرية عدة زوايا في دمشق ومصر ولهم مقبرة خاصة بدمشق ٠

قرقلا : نوع من الدروع (٠٠٠ وأرسل السلطان لكل مملوك خمسمائة وفرساً وقرقلا وخوذة) ٠

القرابيص النحاس : نوع من النقود في العهد المملوكي ٠

قرعاني : قماش يلف على الرأس في العصر المملوكي ٠

قـابي قولي : (تركية) الشبان عبيد السلطان الذين جنّدهم في جيشه وأكثرهم من الانكشارية ·

القَبْجـــاق : منطقة السهوب في جنوبي روسيا على أطراف وادي الفولغا · ومنهم المماليك البحرية في حين جاء المماليك البرجية من منطقة القفقاس ·

القزل باش : (تركية) معناها الرؤوس الحمر نسبة الى القبعات الحمـراء التي كان يلبسها الجنود الصفويون ·

القيمـريـة : نسبة الى قيمر (بين الموصل وبحيرة خلاط وان) وهم من الأكـراد وقد انضم القيمرية الى الخوارزميـة وهم الذين جندهم الظـاهر ركن الدين بيبرس الظاهري الصالحي ووطنهم في غزة ·

القلنـدريـة : أسسها يوسف العـربي الاسباني وجـاء بها الى مصـر جمال الدين السـادس ·

حرف الكاف

الكرّ العراقي : ستون قفيزاً وقيل أربعون إرْدَبّاً ·

الكَيْمُخْت : نوع من الجلود المدبوغة ·

الكـونـد : الفارس البـاسل الشاكي السلاح ·

الكـلوتــة : نوع من لباس الرأس (فارسي) ·

الكيــا : الكبير القدر المقدم بين الناس (وفيات الأعيان : الكيا الهراسي) ·

الكُـوسـات : صنج من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بأيقـاع مخصوص (صبح) (تضرب فيها الكوسات والطبول) ·

كنـــوت : جمع كونت Comte (لقب نبلاء الفرنج) ·

كُوســيّ : هو الذي يضرب بالكوسات أي الصنج بعضها على بعض ·

الكَلَـوتَـات : جمـع كَلَّوتـة (فارسيـة) Calotte معناها الطاقية الصغيرة مـن الصوف المضرَّبة بالقطن كانت غطاء الرأس في الدولتين : الأيوبيـة والمماليك وكانت شارة الأمراء يلبسونها بغير عمامـة فوقهـا ولها كلاليب تعقد تحت الذقن هي الكلنبدات · وكانت لهم ذوائب شعـر يرسلونها خلفهم وكانت صفراء · وكانت الكلّوتات تسمى في أيـام الناصر « الناصرية » وفي أيام الأشرف شعبـان « الطرّخانية » وفي أيام الظاهر برقوق « الجركسية » (صبح ٤/٤٩) ·

الكَلَبَنْدات : جمع كلبندة (فارسية) معناها لباس الرقبة أو كوفية الرقبة تلبسها النساء على رؤوسهن وتربط تحت الذقن لحفظ ما فوق رؤوسهن من اللباس حتى لا يتزحزح ما على الشعر وتطلق أيضاً على نوع من حلي الذهب تلبس حول الرقبة وكان السلطان والأمراء والعساكر يلبسون على رؤوسهم كلّوتة صفراء ولها كلاليب بغير عمامة ٠

كَمَرات : جمع كمر (فارسية) معناها الحزام المفرّغ من وسطه لحشو النقود أو نحوها ، وهو شائع الاستعمال في مصر والشام ٠

الكوسات : الطبول الصغار (فارسية معربة) وهي صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بايقاع مخصوص ويتولى ذلك الكوسي ، وهي من رسوم الملك وآلاته في العصور الوسطى ، قال الظاهري في زبدة كشف الممالك : «كانت عدة الطبلخانات التي تدق على باب السلطان تتألف من أربعين حملا من الكوسات وأربعة طبول وهول (فارسية معناها الطبل الكبير) وأربعة زمور (وهي المزمارة) وعشرين نفيراً (البوق) وكانت عدة أمراء الطبلخانات أربعين أميراً ويخدم كلا أربعون مملوكاً ٠ وكانت إمرة الطبلخاناه من الرتب العسكرية لضرب الآلات (صبح الأعشى ٩/٤ ، ١٣) ٠

كراديس : مفردها كردوس وكردوسة هي كتيبة الفرسان ٠

الكماج : خبز غير مخمّر يصنع من الدقيق الأبيض الخالص ، يخبز في الرماد (٠٠ وجهزت الأفران وصنّاع الكماج والجبن المقلي وغيره) (النجوم ٥٨/٩) ٠

الكَلابِزِيّة : وظيفة من يتولى تربية الكلاب وبيعها (٠٠ وقبض على كثير من الكلابزية وأراذل العامة ٠٠) ٠

الكَنَابيش : مفردها كنبوش وهو خمار لتغطية الوجه وكان من عادة العرب أن يغطوا أنوفهم بطرفه حتى لا يتأثر بالبرد. (دوزي:معجم الملابس) ٠

الكنبوش : البرذعة تجعل تحت سرج الفرس ويجعل فوقها الغاشية وهو غطاء مزركش يوضع فوق البرذعة ٠

الكَشَاتوين : نوع من تطريز الجلد ٠ (وكان يعمل بيده عدة صنائع ويزركش ويعمل الكشاتوين) (النجوم الزاهرة ٢٠/١٠) ٠

الكسّامية : الذين همهم في الحرب كسب الغنائم ٠

الكجاوة : هودج النساء (فارسية) ٠

كواهي : صقور برسم الصيد (دوزي) ٠

كَلْفَتَــــه : وهي الكلوته ولونها أصفر : لباس للرأس وهي من رسم الدولة التركية يلبسها السلطان والأمراء وسائر العسكر ولها كلاليب بغير عمامة فوقها ، وتكون شعورهم مضفورة مدلاة وتوضع في كيس حرير إما أحمر أو أصفر (دوزي) (وعلى رأسه كلفته وتحته فرس) ٠

الكــــرج : جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون في جبال القبق وبلد السرير (تفليس) قويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس (ياقوت ، معجم البلدان) ٠

الكَشَّــافــة : فرقة من الجند تتقدم لكشف الطريق والعدو ٠

الكَفْتِيَّــــات : آلات أو مدافع صغيرة يطلق منها النار بواسطة البارود تحمل بالكف فلذا سميت الكفيات ومفردها كفية وهي تشبه ما يسمى (قربينا) أو طبنجة ٠

كتّاب الدّرج : يكتبون الرسائل الى الولايات ٠

كتّاب الدّست : يجلسون في دار العدل ويقرؤون القصص على نائب دمشق ويوقعون عليها بأمره ٠

كِـزْلار آغـا : (تركية) ويدعى أحياناً آغا دار السعادة وظيفته الاشراف على الحريم في القصر السلطاني ويساعده عدد من الخصيان الطواشية ٠

حـرف اللام

اللـوزينـج : شبه القطائف يؤدم بدهن اللوز (فارسي معرّب) ٠

لتـــوت : مفردها لت (فارسية معربة) واللت : القدوم والفأس العظيمة ٠

اللاطئــــة : قلنسوة صغيرة تلطأ بالرأس (٠٠ ولبس قميصاً ولاطئة فوق رأسه)٠

اللَّبْخَــــة : عصيّ كبار يلعب بها العامة وهي تشبه لعبة النَّبُّوت عند عامة مصر (٠٠ وكان شجاعاً يلعب اللبخة فيخرج له عشرة من الشطّار ويهجمون عليه بالضرب فيمسك عصاه من وسطها ويرد الجميع فلا تصبه واحدة٠ (لعب العرب لتيمور باشا ٠ رحلة عبد اللطيف البغدادي ، المقريزي: الخطط ، لسان العرب : مادة « لبخ » ٠

حـرف الميـم

المَحَــــارة : مركب يشبه الهودج ٠

مَــدَرة : مفردها مادر وهو الذي يمدر القبر أي يصلحه بالمَدَر الذي هو قطع الطين اليابس ٠

المَكْـوطـة : قباء واسع الكمين طويلهما . كان لباساً قومياً في عصر المماليك يصنع من الحرير الخالص ويُزرر وهو أشبه بالنصف الأعلى من «البيجامة» المعروفة اليوم .

المَحَـايـر : مفردها محارة وهي مرادفة للمحفَّة ، صندوقـان يشدان الى جانب الرحـل كالهـودج .

المطعـم : مطعم الطيور المخصصة للصيد . وكان السلاطين ينزلون اليه وتطلق البازدارية طيوراً أعدوها لذلك ثم يطلقون وراء الطيور الجارحة لاصطيادها وكان نوعاً من أنواع التسلية والرياضة السلطانية .

المُـدوّرة : مائدة من الفضة تنصب على الكرسي وعليها الأواني الذهبية والصيني الحاوية للأطعمة الفـاخرة (صبح الأعشى ٣/٥٢٧) .

مكاحل البارود : هي المدافع التي يُرمى عنها النفـط وهي أنواع : فمنهـا ما يرمى ببندق من حديد زنته ما بين عشرة أرطال الى ما يزيد عن مائة رطل .

مُدوّرة السلطان : خيمته الكبيرة الخاصة به ، وهي غير مدورته التي تقام في الحفـلات وهي مائة مدورة .

المُكَارشَـة : هي أن يلتقي المسافر بالمسلم عليه فيلصق كل منهما بطنه ببطن الآخر (.. ويترجل السلطان ويكارشه ..) .

المكَـاحـل : مفردها مِكْحلة ، أطلق على ما يسمى الآن بالمدفـع والقنبلة التي توضع بالمَدفع فتنطلق منه وتنفجر ، كانت تسمى المدفع لأنها كانت تندفع من المِكْحلة (.. وأطلقت الكَفيَّات والمكاحل على القلعـة والسور) .

المماليك القَـراصنة : المماليك القدامى .

المماليك الجَلَبَان أو الأجـلاب : المماليك الذين جُلبوا حديثاً .

المماليك أولاد الناس : هم الذين ولدوا في مصر والشام من آباء مماليك .

المالكـانـه : الالتزام مدى الحياة .

المِهْمَنْدَاريَّة : وظيفة تلقي الرسل الواردين الى الدولة من حكومة أخرى وانزالهم دار الضيافـة .

المَقْصُـورة : حاجز خشبي يكون بأعمدة وقضبان خشبية مخروطة تسمى في عصرنا « الشعرية » توضع في المسجد حـول المنبـر والمحـراب يصلي فيهـا السلطان وجماعته خوف اغتياله وهو في الصلاة ، وأول ما وضعت في

المسجد في خلافة عثمان بن عفان بعد أن اغتيل عمر بن الخطاب وهو في الصلاة خلف المحراب ٠

المَسوحي : نسبة الى المسوح والمسح كساء من شعر كثوب الرهبان ٠

المطمورة : الحفيرة تحت الأرض ٠

المطوّعة : وهم الذين أرصدوا أنفسهم للجهاد ٠

المظلّة : نقل الفاطميون هذه العادة من المغرب لأنها كانت جارية هناك قبل الاسلام ٠ فكان الناس يظللون حكامهم بريش الطواويس فاتخذها الفاطميون من الديباج أو الخز المحلى بالذهب والمرصع بالجوهر وحولها الأعلام تختلف ألوانها باختلاف الأحوال (تاريخ التمدن الاسلامي ١٤٧/٥ ، الأغاني ٥٦/٦ طبعة بولاق) ٠

منَقّر : هو الذي يضرب بالبوق ٠

المهمندارية : موضوعها تلقي الرسل الواردين (راجع ص ٣٧) ٠

مهردار : صاحب الخاتم الذي يختم به على الماء الذي يشرب منه السلطان ٠

المجانيق : (مفردها منجنيق) وهو آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف وفيه كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر ، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئاً الا أهلكه (صبح الأعشى ١٣٧/٢) ٠

مغاني : المغنون والمغنيات ٠

المهتار : لقب يطلق على كبير كل طائفة من غلمان البيوت ، كمهتار الشراب خاناه ومهتار الطشت خاناه ، ومهتار الركاب خاناه (مهْ « بكسر الميم » معناه بالفارسية الكبير وتار بمعنى أفعل التفضيل فيكون معنى المهتار الأكبر) (صبح الأعشى ٤٧٠/٥) ٠

المرَقْدارية : وظيفة من يتصدى لخدمة ما يتعلق بالمطبخ وحفظه سمي بذلك لكثرة معاطاته لمرق الطعام عند رفع الخوان (صبح الأعشى ٤٧٠/٥) ٠ (٠٠ فدخل بعض المرَقْداريّة يهزل ويهرج ٠٠) النجوم الزاهرة ٥٤/٩) ٠

المثالات : الأوراق التي كان يعطيها السلطان الى الجند مبيّنا فيها مقدار الأطيان التي كانت تمنح اقطاعاً لهم وبيان النواحي الكائنة بها تلك الأطيان ٠

المُسْرَسَلة	:	هي أجزاء العقد من الجوهر التي تتدلى على الصدر .
المُلَطَّفات	:	كتب سرية تكتب على كاغد لطيف وتُلف وتُختم ثم تُوضع في مكان خفي كنصاب سكين أو سواك أو عصا ونحو ذلك يجوّف داخلها وتوضع فيه وتسلم الى من يُراد تسليمها اليه بصورة سرية .
المُخامرون	:	المخامرة تغير نية الشخص نحو الأمير والسلطان والانقلاب عليه .
المُبَاركين	:	المجاذيب .
الميعاد	:	اشتهر في العصر المملوكي دور الحديث أو الوعظ بالميعاد اذا لم يكن الدرس متواصلا كما اذا كان في الأسبوع مرة أو مرتين .
المِحَفّدار	:	هو الذي يتصدى لخدمة المِحَفّة .
المُسْتَحْفظان	:	من جنود الانكشارية المشاة .
مُزَوَّرة	:	مرقة يطعمها المريض وقال الفقهاء : هي ما يطبخ خالياً من الأدهان (شفاء الغليل) والجمع مزوّرات .

ـ حرف النون ـ

النَّوروز	:	ويقال النيروز ، كلمة فارسية معربة معناها يوم جديد .
النِّمْجاه	:	الخنجر أو السيف أو السكين المنحنية (معرّب فارسي) وتعني آلة من آلات الملك .
النّرنجيان	:	مفردها نيرنج وهو ما يشبه السحر .
نيابة السلطنة	:	وهي أجلّ نيابات المملكة الشامية وأرفعها في الرتبة ونائبها يضاهي النائب الكافل بالحضرة السلطانية في الرتبة والألقاب والمكاتبة ويعبّر عنه في المكاتبات السلطانية وغيرها « بكافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس » ويكتب له من الأبواب السلطانية تقليد شريف وهو قائم بدمشق مقام السلطان في أكثر الأمور المتعلقة بنيابته .
النِّيابة	:	يعبّر عن صاحبها بالنائب الكافل ، وكافل الممالك الاسلامية وهو يحكم بكل ما يحكم به السلطان ويعلم في التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك مما هو من هذا النوع على كل ما يعلم عليه السلطان .
نيزداريّه	:	أصحاب الرماح .
النّخ	:	بساط طوله أكثر من عرضه (هو اللّيان عند الشاميين) والجمع أنخاخ .

نائب الغيبة : هو نائب السلطان أو نائب نائبه وله حرية التصرف في الحكم (صبح ٤/١٧) .

نيابة دمشق : لقب القائم مقام السلطان في حكمها ولأهمية دمشق يطلق على نائبها كافل السلطنة .

نظر الخاص : وظيفة أحدثها الناصر محمد بن قلاوون واختصاصه الاشراف على مالية السلطان .

نقيب الجيش : هو الذي يتكفل باحضار من يطلبه السلطان من الأمراء وأجناد الحلقة ونحوهم (صبح الأعشى ٥/٤٦٥) .

النائب الكافل : في الحضرة السلطانية ، يعادل في عصرنا رئيس الوزراء وقد قالوا في تعريفه : هو السلطان مختصر بل هو السلطان الثاني .

نائب القلعة : وظيفته حفظ القلعة وصونها ، ولا يسلم مفتاحها لأحد وتعد نيابة القلعة منفردة عن نيابة السلطنة يعين صاحبها بمرسوم من ديوان الانشاء الشريف .

ـ حرف الهاء ـ

هنَّابات : جمع هنَّاب وهو قدح الشراب .

الهَيَاطِلة : قبائل من أصل تركي مغولي استوطنوا المناطق الشرقية من الهضبة الايرانية .

ـ حرف الواو ـ

الوطاق : الخيمة (تركية) ، محرف عن أوتاق وهو بالتركية الخيمة الكبيرة التي تعد للغطاء .

ـ حرف الياء ـ

اليتيمة : هي الجوهرة الثمينة التي تعلو عمامة الخليفة .

اليَشْرُطيَّة : مؤسسها علي بن أحمد اليشرطي الشاذلي من طرق الشاذلية (الأعلام ٥/٦٦) .

★ ★ ★

العلوم العربيّة في الأندلس
وأثرها في أوربّا

د. عمر الدقاق

□ المدخـــل :

منذ أن خلق الله الانسان ، وأودع في جبلته قبساً من نوره الكشاف ، ثم منذ أن جعل الله الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا ، بدأت في ذلك الوقت عملية التفاعل الثقافي والتبادل المعرفي بين البشر • وهكذا اكتسبت الحضارات الانسانية غنى ومضاء عبر العصور ، وكان ذلك بفضل هجرة الأفكار الى الأفكار ، ورحلة العقول الى العقول • وكان من أهم المثاقفات الكبرى في التاريخ ما حدث من تمازج فعال بين ثقافة العرب وبين ثقافات شعوب الفرس والاغريق والهند والصين ••• وذلك ابان العهود العباسية في العصور الوسطى ، ثم ما حدث من هذا القبيل عبر موجة تالية من المثاقفة الواسعة بعد حين في أثر الاحتكاك المباشر بين العرب والفرنجة ابان الحروب الصليبية • وما تم أيضاً من المثاقفة بين الشعوب عبر موجة ثالثة كانت تفعل فعلها خلال زمان مواز للحقبة العباسية ، وعلى صعيد آخر في أقصى العالم القديم من الغرب الأوربي ، ولا سيما في شبه جزيرة ايبريا وربوع الأندلس •

على أن هذا التلاقي العربي الاسباني في العصر الأموي لم يكن أول لقاء بين العرب واسبانيا في التاريخ ، « فقد وصل ملاحون من سورية القديمة الى سواحل اسبانيا والبرتغال والجزر القريبة منها بقصد التجارة منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد • ففي قادس ومالقة وقرطاجنة وجزيرة ايبيزا وغيرها ، نزلت جماعات من الكنعانيين الفينيقيين ومن البونيين »(١) الذين أبحروا من مدن فلسطين وسورية(٢) ، من القدس وانطاكية وصور وبيروت ودمشق وجبيل وأوغاريت وارواد ؛ وهناك في شواطىء شبه جزيرة

ايبريا ، تشكلت في أثر تلك الموجات النازحة جاليات سورية ناشطة حيث أقامت مستوطنات لها ، تاركة مياسمها فوق تلك الأرض من أسمائها وأسماء أربابها منقوشة على الحجر الأصم وعلى شواهد القبور .

« وكان بعض هذه الأسماء والأفعال عربياً من مثل (عز ، عزة ، ملك ، بعل ، عشترت) ، ومثل (فعل ، نذر ، حدّث ..) ، وأقدمها يرجع الى نحو سبعة قرون قبل الميلاد »(٣) ، وينبىء عن وجود حضاري كنعاني ذي شأن في شبه جزيرة ايبريا على الصعيد الديني والاقتصادي والاجتماعي .

كان هذا التفاعل الحضاري الغابر أول الغيث ، قبل الانهمار الكبير بعد قرون أخرى، حين تم الفتح الاسلامي للأندلس محدثاً ذلك المنعطف التاريخي البارز في خارطة العالم القديم .

لقد استمر الوجود العربي في الأندلس قرابة ثمانية قرون ، كان خلالها ظلهم السياسي والثقافي المنبسط على تلك الربوع يتراوح بين مد وجزر ، قبل أن ينحسر عن الأفق الغربي ، وينكفىء الى الشاطىء الافريقي في نهاية المطاف ، لتسقط بذلك تلك الدرة النفيسة من تاج الملك العربي .

□ الانصهار والتمازج :

غير ان سيل الماء قد ينحسر ، ومع ذلك فان آثاره تبقى طويلا بعده وتتجلى في تلك الأخاديد المنتشرة على كل صعيد ، وخلال كل مسيل ، كما أن تلك المياه التي تغيب وتتبدد من على سطح الأرض هي باقية على نحو ما في الداخل ، نافذة على نحو غير ظاهر الى باطن التراب ، منسربة على مهل في الأعماق . وهذا ما كان من حال حضارة العرب والاسلام في تلك الربوع في العالم الغربي ..

« لقد ازدهرت هذه الحضارة ازدهاراً هائلا ، بحيث تركت بصماتها على كل التاريخ الاسلامي بل والعالمي . ثم ضعفت وتراجعت حتى اندثرت ، ثم خلّفت وراءها بعض الرواسب أو البقايا والمخلّفات الثقافية في المجتمع الاسباني حتى الوقت الحاضر ، ولم تكن حضارة الأندلس حضارة بسيطة التركيب ، وانما كانت تتألف من عناصر متعددة ومتباينة أشد التباين في أصولها البشرية والثقافية . وكان هذا التباين وذلك التعدد في وقت من الأوقات عاملا من عوامل قوة تلك الحضارة وثرائها وعمقها ، ولكنهما كانا يحملان في الوقت نفسه بذور الضعف وأسباب التدهور والاضمحلال »(٤) .

ففي أعقاب فتح الأندلس امتزج أولئك الوافدون من عرب وبربر بالسكان الأصليين الذين يدينون في معظمهم بالمسيحية ، وفيهم الكلت القادمون من أوربا والرومان والقوط والفاندال والجرمان وبعض العناصر الأوربية الشمالية التي تعرف باسم النورمانديين أو الفايكنغ ، ثم الصقالبة وجماعات يهودية قديمة ...

وكانت بداية التخالط السكاني والتمازج الثقافي جنوح الكثيرين من السكان الى اعتناق العقيدة الاسلامية ، اذ دخلت في هذا الدين أفواج غفيرة من العبيد والأسرى الذين استعبدهم القوط والجرمان من قبل ، فتحولوا الى احرار بحكم اعتناقهم الاسلام • يضاف الى هؤلاء وأولئك كثيرون من المضطهدين الذين استردوا اثر الفتح أملاكهم وعقاراتهم المصادرة واستعادوا مكانتهم • وكان من نتائج هذا الواقع الجديد تحسن الزراعة ونشاط التجارة وازدهار الاقتصاد • وكان في جملة المستفيدين من الفتح اليهود ، اذ تمتعوا بالحماية ونعموا بالرعاية وأعيدت اليهم حقوقهم ، وفسح لهم المجال لتولي المناصب الرفيعة في الدولة الاسلامية(٥) •

ومما اورده المستشرق الاسباني غارسيا غوميس(٦) انقرطبة كانت بلداً نصف عربي، يتحدث أهله العربية وعجمية أهل الأندلس ،ويختلط فيه رنين الأجراس بأذان المؤذنين • ونجم عن تخالط الأجناس وتجاور الديانات مناخ انساني سَمْح جميل ، وجو حضاري متألق رفيع •

وقد نجم عن زواج العرب بالاسبانيات عنصر مسلم جديد عرف باسم المولدين الذين أصبحوا بمرور الزمن يؤلفون معظم سكان الأندلس • وكان لابد لهؤلاء أن يكتسبوا كثيراً من عناصر الثقافة الاسبانية من لغة وعادات وسلوك •• وربما كان أخطر مثل لهذا التأثر هو ازدواج اللغة ، حيث انتشرت لغة الرومانس الى جانب لغة العرب،وهذا يكشف عن مدى قوة ذلك الاحتكاك الثقافي بين الحضارة العربية الوافدة والحضارة الاسبانية السالفة •

ثم ظهرت في تلك الربوع ، تبعاً لذلك الاحتكاك المباشر والمتنوع ، فئات أخرى غدا لها دور هام في حياة المجتمع الأندلسي وثقافته، كان أبرزها جماعة المستعربين Mozarabes وهي العناصر الأصلية التي بقيت على دين المسيح ، الا أنها تعرّبت في اللغة والعادات والسلوك والتقاليد وهذا ،ا أهّلها لأداء دور ناشط في الحياة العامة •

وقد أفرز الواقع الاجتماعي والسياسي في الأندلس خلال حقبة تالية من الوجود العربي فئات أخرى ، في طليعتها جماعة المدجنين ، أو المستعجمين ونعني المسلمين الذين وجدوا أنفسهم عائشين في ديار المسيحيين فتم تدجينهم وصبغهم بالصبغة الاسبانية ، وان ظلوا محافظين على دينهم الاسلامي وثقافتهم العربية ، وهؤلاء المدجنون ــ تبعاً لظروف حياتهم واختلاطهم بالاسبان ــ ساهموا مساهمة كبيرة في نقل التراث العربي الاسلامي وكثير من التقاليد والمثل والأفكار والقيم الى مواطنيهم •

وفي مقابل هؤلاء المدجنين كانت هنالك فئة ثالثة تضم المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام ، والى جانبهم المسلمون الذين اعتنقوا المسيحية أو الذين ارتدوا عن الاسلام •

وكانت حصيلة ذلك كله هذا الاحتكاك الفريد والتلاقي المتميز بين ديانتين وعقيدتين، وأيضاً بين ثقافتين وحضارتين ، وذلك على نحو ليس له مثيل بين الأمم •

□ المثاقفة العربية الاسبانية :

ولعل أبرز ما تمخضت عنه تلك المثاقفة الفعالة بين العرب والفرنجة في بلاد الأندلس هو ولادة حركة ترجمة ناشطة كان عمادها في الغالب فئات من المستعربين الفرنجة Mozarabes التي برز منها أناس كثيرون جمعوا بين لغتهم الأصلية واللغة العربية الوافدة • وقد أتقن بعضهم العربية ونبغوا في أدبها على نحو يذكرنا بمن كان من هذا القبيل أيضاً في المشرق مثل ابن المقفع وسيبويه وأبي عبيدة •• الذين كانوا فرساً ثم تعرّبوا ونبغوا في العربية • وابن القوطية (٣٦٧هـ ــ ٩٧٧ م) واحد من أئمة العلم والأدب والفقه والتاريخ ، وهو كما يدل عليه لقبه متحدر من أم اسبانية من القوط ، ومثله حفص بن البرّة الذي أسلم وتعرّب وصار قاضياً لأمثاله من المسلمين في طليطلة من ذوي الأصول الفرنجية(٧) •

وقد شاركت في حركة الترجمة جماعات المستعجمين المسيحيين الذين أصبحوا يمثلون الموريسكيين Los Moriscos وهم المسلمون الذين بقوا في اسبانيا يتكلمون الاسبانية ويكتبونها بالعربية الى أن تم اخراجهم من الأندلس سنة ١٦١٤ على الرغم من تنصرهم•

لقد بلغ من أمر المستعربين الاسبان انهم شغفوا بالعربية وأدبها ، حتى ان كثيرين منهم نسوا لغتهم أو تخلوا عنها ، وأقبلوا على تعلّم لغة العرب الفاتحين ، فراحوا يستعملونها في مخاطباتهم ومعاملاتهم ، ويتدارسون آدابها وعلومها ، ويرتدون الأزياء العربية ، ويصطنعون أساليب الحياة الاسلامية • وقد عبّر البيرو القرطبي عهدئذ عن شعور مرير تجاه هذه الأحوال فقال(٨) :

« ان اخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويُقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين ، لا ليردوا عليها وينقضوها ، وانما ليكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلا صحيحاً. وأين تجد الآن واحداً ــ من غير رجال الدين ــ يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة ؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل ؟ يا للحسرة ، ان الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم الا لغة العرب وآدابها ، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم • وهم ينفقون أموالا طائلة في جمع كتبها ، ويصرّحون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالاعجاب ، فاذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك في ازدراء ، بأنها غير جديرة بأن يصرفوا اليها انتباههم • يا للألم، لقد أنسي النصارى حتى لغتهم ، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب الى صاحب له كتاباً سليماً من الخطأ • فأما عن الكتابة في لغة العرب فانك واجد فيهم عدداً عظيماً يجيدونها في أسلوب منمق ، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعراء العرب أنفسهم فناً وجمالا » •

وقد أورد المستشرق بالنثيا في هذا الصدد خبراً من مخطوط يضم مجموعة من القوانين الكنسية التي تمت ترجمتها من اللغة اللاتينية الى اللغة العربية بقلم قس اسباني اسمه (بنجينسيوس) كان يتقن لسان الضاد اتقاناً تاماً ، وقد توج الكتاب المترجم باهداء

شعري موجه الى أسقف يدعى عبدالملك • وهذا الشعر العربي الذي نظمه القس (بنجينسيوس) لا يفترق في شيء عما ينظمه المسلمون في مثل ذلك المقام شكلا وموضوعاً ، ومن ذلك قوله(٩) :

كتاب لعبد المالك الأسقف الندب — جواد نبيل الرفد في الزمن الجدب

همام ذكي الحدس واحد عصره — عليم كريم ذو حلوم وذو لب

يجدد فضل الله فينا بفضله — وعم به كلَّ الأنام هدى الرب

والكثير من الكتب اللاتينية التي كتبها المستعربون تحمل هوامشها شروحاً وتعليقات عربية •

□ حركة الترجمة :

ونظراً الى أن العربية كانت في تلك الحقبة هي لغة العلم والحضارة في القرون الوسطى ، وأنها في موقعها عهدئذ كانت تمثل التراث الأغنى والثقافة الأرقى ، فقد غدا من الطبيعي أن تكون حركة الترجمة متجهة اليها ، على حين كانت حركة الترجمة المعاكسة ، أي من اللاتينية الى العربية دون هذا المدى • يضاف الى ذلك أن الفرنجة أو اللاتين الذين تعلموا العربية باعتبارها لغة الفاتحين كانوا يشكلون الكثرة البالغة ، أما المسلمون فكان اقبالهم أقل من أولئك على تعلّم اللاتينية بطبيعة الحال •

ومن أشهر المتأثرين بالعلوم العربية وأقدمهم الراهب جيلبرت الذي اعتلى فيما بعد عرش البابوية في روما سنة ٩٩٩ باسم سلفستر الثاني ، وقد وفد الى قرطبة في أيام الخليفة عبدالرحمن الناصر للتزود بالعلم •

كذلك وفدت على منطقة ابرو الاسبانية في الشمال مجموعة من طلاب العلم من مدرسة شارتر Chartre بفرنسة وقاموا بنشاط ملحوظ في ترجمة الكتب العربية • وما لبث دير سانتا ماريا دو ريبول S. M. de Ripoll في مقاطعة كاتالونيا الاسبانية أن أصبح مركزاً هاماً لحركة نقل العلوم العربية وخاصة في الفلك والحساب والزراعة •

وجملة القول أن حركة الترجمة في المقاطعات الأندلسية قد ازدهرت الى حد كبير ، ومما قاله شارل هاسكينس في هذا الصدد :(١٠) :

« ان مراكز الترجمة نشطت في اسبانيا وفرنسا وغربي أوربا ، ولا سيما في برشلونة وطرزونة وسيكوفيا وليون وبامبالونة ومرسية ، ثم كان المركز الرئيسي في نهاية الأمر مدينة طليطلة » ، حيث ضمت مجموعة كبيرة من أساقفة اسبانيا ما لبثت بعد استرداد الفونسو السادس لها أن اشتهرت باسم مدرسة المترجمين الطليطليين التي تم بفضلها نقل المؤلفات العربية في مختلف العلوم باشراف الأسقف رايموند(١١) ، كبير الأساقفة (١١٣٠ ـ ١١٥٨ م) ، « وقد عهد الى يحيى الأشبيلي وهو يهودي اعتنق المسيحية بترجمة

العديد من كتب العرب في العلوم ، وكلف معه كبير الشمامسة والمترجمين دومنغو غونديسلفي ليتوليا نقل الكتب العربية في الرياضيات والفلك والتنجيم والفلسفة ، وعدد من رسائل الخوارزمي ورسالة العمل بالاصطرلاب لابن الصفار ، وكتاب عبدالعزيز القابسي في التنجيم ، وكتاب مقاصد الفلاسفة للغزالي وكتاب السماء والعالم لابن سينا »(١٢) .

كذلك كان بلاتو التيفولي Plato de Tivoli الذي عاش في القرن الثاني عشر من أقدم النقلة الذين كان لهم كما يقول الدكتور محمد السويسي فضل تعريف الغرب بالعلوم اليونانية ـ العربية مثل كتاب الهندسة التطبيقية . وهو ناقل رسالة الفلك للبتاني (١٣) ، ونشرت في نورمبورغ سنة ١٢٣٧ . ومعظم ترجماته أنجزها في برشلونة ، وكان يؤرخها بالتقويم الهجري (١٤) .

على أن واسطة عقد المترجمين على الاطلاق كان جيرار القرموني ، وكان على رأس فريق ترجم أكثر من سبعين مؤلفاً ترجمة حسنة منها ملخص لكتاب الخوارزمي الموجود في أكسفورد . ومن أبرز المترجمين أبو الوفاء الذي ترجم كتاب المجسطي ، وقد نشرت الترجمة في البندقية سنة ١٥١٥ ، وكتاب جابر بن أفلح الاشبيلي في اصلاح المجسطي الذي نشر في نورمبورغ سنة ١٥٣٧ ، ومن هذه المترجمات زيج الزرقالي ، وتوجد عدة نسخ منه مكتوبة باللاتينية . ومن هؤلاء غوندي سلفو وهوغو سانتا ليسنسيس وبلاتو تيبرتينوس وروبيرتو كاتينانسيس .

وقد ظهر في الأندلس عدد من العلماء والشعراء اليهود الذين كتبوا وألفوا بلغة العرب ، أو بالعبرية في بعض الأحوال . غير أن ثقافة يهود اسبانيا ، كما يرى المستشرق بالنثيا « قد نبعت من موارد الثقافة الاسلامية بصورة مباشرة(١٥) » . وأشهر هؤلاء المفكرين موسى بن ميمون القرطبي الذي نحا منحى مفكري الاسلام في التوفيق بين الفلسفة والدين(١٦) . غير أن جل جهود اليهود انصرفت بعد ذلك الى الترجمة ، الى العبرية في بعض الأحيان والى اللاتينية في أغلب الأحيان . وكان أكثر مترجميهم يعيشون في مقاطعتي كاتالونيا الاسبانية وبروفانس الفرنسية ، بالاضافة الى كثرتهم في طليطلة وسائر مدن الأندلس الكبرى . ويدل استنطاق التاريخ على أن أولئك « اليهود كانوا دائماً يتعاطفون مع الفرنجة ويميلون اليهم حين يتغلبون على المسلمين(١٧) » . وهؤلاء يعيدون الى الأذهان على نحو ما جماعة السريان الذين اهتموا بالترجمة في المشرق ابان العهد العباسي . وأشهرهم ابراهيم برحيا وموسى بن طبون اليهودي الفرنسي الذي أقام في مونبلييه ونقل فيها سنة ١٢٧٠ كتاب الحساب والجبر لمحمد الحصار الذي يعد تلميذاً لابن البناء المراكشي صاحب كتاب تلخيص أعمال الحساب . وابن شلومون وابراهام بن صموئيل بن حسداي وليفي بن غرسون وموسى الأربوني(١٨) .

ثم استمرت حمى الترجمة على هذا النحو وسرت الى سائر الحواضر الأوروبية في فرنسا وايطاليا والمانيا ، وتواصلت حتى القرن الخامس عشر ، « وكان من أبرز المترجمين في هذه المرحلة المتأخرة علماء في البندقية وبيزا مثل ليونارد فيبوناتشي ومثل لوقا دو

بورغو من مقاطعة توسكانا الذي نشر سنة ١٤٨٤ الكتاب العربي : خلاصة الحساب والهندسة والنسبة والمناسبة(١٩) ٠

ويمكن القول في ضوء ما تقدم من شذور متناثرة في مجال النقل ولا سيما عن العربية ، أن الأندلس وما جاورها من البلدان شهدت حركة ترجمة موارة ، وازدهرت ازدهاراً لم تشهد مثله تلك البلاد في القرون الوسطى ، وكانت بذلك رافداً كبيراً لنظيرتها في المشرق العربي في ابان العصر العباسي ، ثم في أعقاب الحروب الصليبية ٠ وذلك كله ساهم الى حد بعيد في بعث النهضة العلمية في أوربا واغناء الحضارة الانسانية ٠

☐ تفتح العقل العربي :

في الطور الأول من حياة العرب العلمية كان التطلع منصباً على كشف أسرار الطبيعة وسبر أغوار الكون ٠ لذلك كثرت في مؤلفاتهم وبحوثهم عناوين مثل : كشف الأسرار أو رفع الحجاب أو نحو ذلك(٢٠) ، ولكن هذه النزعة المغشاة بالماورائية أخذت تنحسر عن العقل العربي ليحل محلها النزوع الفكري الى معرفة الواقع وادراك الحقائق ٠

وبرغم اقرار مفكري العرب في القرون الوسطى بقصور العقل البشري عن ادراك المعرفة الكلية ، وأنه ليس بوسع الانسان أن يجيب عن كل سؤال ويحل كل معضلة ، فانهم كانوا يدركون في الوقت نفسه أن للحقيقة الموضوعية وجوداً ثابتاً ، وأنه بوسع الانسان أن يقترب الى أبعد مدى من بؤرة الحقيقة(٢١) ، ولا سيما في العلوم البحتة من فلك وحساب وفلاحة ٠٠٠ ويجسد هذا المنحى العالم الفلكي الرياضي أبو علي الحسن المراكشي من رجال القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، وهو صاحب كتاب (جامع المبادىء والغايات) الذي وصفه مؤرخ العلوم جورج سارتون بقوله : « ان هذا المصنف أهم مساهمة للجغرافيا الرياضية ، ليس في ديار الاسلام ، بل في خارجها ، وفي كل مكان»(٢٢) ٠ هذا العالم الجليل فطن الى شان ينطوي على أهمية بالغة في مضمار البحث العلمي ، اذ قال في مقدمة كتابه « جامع المبادىء والغايات بصدد الرصد الفلكي(٢٣) : « ان الطرق التي نذكرها صحيحة في نفس الأمر ٠ وما يُتوصل بها اليه من المقادير الجزئية قد يوجد فيها تقريب ٠ وأسباب هذا التقريب كثيرة ، منها ضعف حواسنا عن ادراك الأجزاء الدقيقة ، وعدم ثبات الأجرام السماوية ،ودوام تغير آلات الرصد ، وأشباه ذلك»٠

وفحوى هذا القول هو نسبية المعرفة الانسانية ومحدوديتها وأنها لا تتسم دوماً بالحتمية ٠ وهذا منطلق ركين في العلم والمعرفة ومنطلق أساسي لمن يطمح الى بلوغ حقائق الكون والحياة جنح اليه الجاحظ من قبل ثم ديكارت من بعد في صدد المعرفة اليقينية والبحث التجريبي ٠

كان القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي منطلق النهضة العلمية العربية في الأندلس، التي بلغت شأواً كبيراً من النضج والازدهار في هذا العصر أيضاً بالمشرق الاسلامي ٠ واذا

كانت الفنون ، ومنها الشعر ، تتأبى أحياناً على حتمية التطور وتتمرد على منطق الزمن، فان العلوم تبعاً لارتباطها بتطور العقل وتسلسل معطيات المعرفة لا بد لها من معايير وأسس تتنامى في ضوئها وتزدهر على هديها ٠

□ في الفلك والرياضيات :

وهكذا أخذ علم الفلك Astronomie ، القائم على الرصد والحساب يبتعد عن التنجيم Astrologie القائم على التوهم والغيبية ٠ كان من نتائج سياسة التسامح ورعاية العلم التي بدأها الخليفة عبدالرحمن الناصر ورفع لواءها عالياً ولده الحكم المستنصر « ان ظهرت المدارس واجتمع المشتغلون بكل علم من العلوم بعضهم الى بعض ٠ وكان الحكم نفسه من المشغوفين بالدراسة ، وكان يحيط نفسه بالعلماء ٠ وقد جمع في القصر مكتبة عظيمة زاخرة ، واجتهد في الحصول على كتب علوم الاغريق ٠»

ومن أوائل ثمار هذه الحركة الناشطة نبوغ العالم الرياضي والفلكي أبي القاسم المجريطي (٣٩٤ هـ ، ١٠٠٤ م) ، وفي طليعة مؤلفاته في علم الفلك (رسالة في الاصطرلاب)، «وقد ترجمها الى اللاتينية جون هيسبالنسيس Joan Hispalensis » . وقام رودولف اف بورغس Rodolf of Burges بترجمة شروحه على كتاب بطليموس الى اللغة اللاتينية(٢٤) ، وهو كتاب (قبة الفلك Planisphaerium) الذي تم نقله الى اللاتينية سنة ١٥٣٦ في مدينة بازل بسويسرا(٢٥) » ٠ وقد عرف المجريطي في الأوساط العلمية بأنه اقليدس الأندلس ٠

وأنجب المجريطي عدداً من تلاميذه النبهاء أنشأ بعضهم مدارس في قرطبة ودانية كأبي السمح الغرناطي وأبي القاسم المهري والزهراوي وأبي القاسم بن الصفّار ، وابن الصفر هذا (٩٨٠ ـ ١٠٣٤) من أبرع علماء الرياضيات والفلك ٠ وعبدالرحمن بن زيد المعروف بالاقليدس ، كان مهندساً ذا شهرة ٠

أما الزرقالي القرطبي أحد علماء القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي فقد عرفته الأوساط العلمية الأوربية معرفة جيدة من خلال مؤلفاته الحسنة ٠ ويورد بالنثيا رأياً فيه يقول(٢٦) « انه يعتبر أعظم أهل الفلك من العرب ، وهو من طبقة أكابر علماء هذا الفن في العصور القديمة ٠ فقد وضع جداول فلكية وركّب اسطرلابا ، واخترع أجهزة دقيقة منها (الزرقالية) و (الصفيحة) وهذه معروفة في الغرب وتسمى Asafia » (٢٧) ٠ وقد قام الزرقالي حوالي سنة ١٠٢٩ م بأكثر من أربعمئة عملية رصد فلكي في طليطلة بهدف تحديد أوج الشمس ، ومحاولة الضبط الدقيق لنقطة الاعتدال الربيعي(٢٨) ٠ وكان طبيعياً أن تحظى أعماله باهتمام معاصريه وأمثالهم من بعدهم ، وان تلقى كتبه اهتمام محب العلم الملك الفونسو العاشر والذين حوله من العلماء ، اذ كان اعتماد هؤلاء على مؤلفاته وأدواته كبيراً(٢٩). كما عني الغرب بكتابه (زيج الزرقالي) وعمدوا الى نقله الى اللاتينية في جملة ما نقلوه من كتب جمة مماثلة ٠

واذا ما قفزنا الى عصر تال متجاوزين عدداً وافراً من العلماء ، قد ينتهي بنا السير عند أبي الحسن القلصادي(٣٠) ، أبرز علماء القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي (٨١٥ ـ ٨٩١ هـ ، ١٤١٢ ـ ١٤٨٦ م) • وهو عالم بالحساب وفقيه ، ويعد آخر أئمة العلم من أصحاب التصانيف في الأندلس • وكتابه الهام هو في الحساب واسمه : (شرح الأرجوزة الياسمينة) وقد لقي عناية علماء أوربا ، بالأضافة الى كتابيه (قانون الحساب) و (شرح ايساغوجي) • ومن أفضال القلصادي في علم الرياضيات ايجاده ظاهرة الاختزال واعتماده على الرموز في الحساب والجبر والمعادلات والمجاهيل •

ثم مضى في أثره أحمد بن غازي المكناسي (٨٤١ ـ ٩١٩ هـ ، ١٤٧٧ ـ ١٥١٢م) فزاد في هذا المجال ، وهكذا رمز للشيء وهو العدد المجهول بحرف ش = شيء الذي تم اختزاله ليغدو بعده (س) ، وهو ما نستعمله الى اليوم، واستعمل الغرب مقابله حرف S أو × ، والرمز : ك = مكعب كما رمز للمجموع بحرف ل وهو مختصر من اصطلاح (المال) الذي يعني حصيلة الجمع عند العلماء العرب• كذلك اتخذ حرف جـ = الجذر التربيعي ، وكان يوضع في أعلى العدد • ثم طرأ تعديل على حرف جـ أي رمز الجذر(٣١) بعد أن انتقل الى فرنسا فحوّل علماء الغرب زاويته الى الأعلى وزاد عليه خطاً أفقياً على هذا النحو ($\sqrt{٩}$) ، وبذلك استقر هذا الرمز وغدا عالمياً •

□ في علوم الزراعة والنبات والأعشاب :

وعلى صعيد آخر من تقدم العلوم في الأندلس وامتداد تأثيرها الى شعوب أوربا ، خطت العلوم الزراعية خطوات واسعة ، اذ الزراعة وما يتصل بها من صناعة الزيوت والخمور والأنسجة ••• كانت عماد الحياة الاقتصادية في تلك البلاد • ولما كان للفلك والحساب صلة وثيقة بأحوال المناخ والحرارة والرطوبة وبشؤون الفلاحة والحصاد والقطاف فقد اقتضت حياة الأندلسيين تأليف كتب في الأنواء والنبات وما اليها • من هذا القبيل أبو الحسن القرطبي الذي ألف(كتاب الأنواء) وهو من أعلام القرن الرابع الهجري • وفي طليعة العلماء في هذا المجال عبد الرحمن بن وافد الذي ألف رسالة هامة في علم الفلاحة ، ما لبثت أن ترجمت الى اللغة الكاتالونية(٣٢) • وابن وافد هذا كان المشرف الرسمي على الحدائق الملكية في طليطلة بعد أن عادت الى حوزة الفرنجة(٣٣) •

وقد تكاثرت كتب الفلاحة الأندلسية بعد ذلك ، من مثل ما ألفه العالم الأديب أبو بكر بن خير الاشبيلي أحد أعلام القرن السادس الهجري (٥٠٢ـ٥٧٥هـ،١١٠٨ـ١٨٨٥م) ثم معاصره وتلميذه أبو زكريا بن العوام(٣٤) الاشبيلي أيضاً (٥٨٠ هـ ـ ١٨٨٥ م) • وتمت ترجمة كتاب الفلاحة هذا لابن العوام مرتين في القرن التاسع عشر، اذ نشر بانكويري J. A. Banqueri نصه العربي مصحوباً بترجمته الى الاسبانية وصدر سنة ١٨٠٢ في مدريد• كذلك عمد الى ترجمته الى الفرنسية خلال ١٨٦٤ ـ ١٨٦٧ كليمان موليه Clement Mullet وصدر في باريس(٣٥) • وهذا الكتاب كما يقول آنخل بانثيا « يعطينا

فكرة عن ازدهار الفلاحة في الأندلس الاسلامية، وكان مؤلفه نفسه من المشتغلين بالزراعة في ناحية اشبيلية • وهو أشبه بدائرة معارف تاريخية عن الفلاحة ، وكان له أثر كبير فيما بعد في كتابات ج• أ• هريرا G. A. de Herrera

□ في الصيدلة والطب والجراحة :

واذا كان طبيعياً أن ينشط التأليف في الفلك والأنواء والفلاحة ضمن زمرة متآلفة، فمن الطبيعي أيضاً أن تظهر كتب أخرى تمت بصلات الى علوم الزراعة والنبات والأعشاب، وهي كتب الصيدلة أو الصيدنة كما كان يسميها العرب ، اذ أنها بطبيعتها رافد كبير للعلوم الطبية • وفي هذا المجال برع أبو جعفر الغافقي ، من علماء القرن السادس الهجري ـ الثاني عشر الميلادي ـ فألف (كتاب الأدوية المفردة) عن العقاقير والأعشاب • ومن مزايا كتابه أنه « ذكر أسماء النباتات باللغات العربية واللاتينية والبربرية(٣٦) » • كما ألّف كتاباً آخر اسمه (المرشد في الكحل) وهو في مداواة العيون ، وقد نهض بترجمته ماكس مايرهوف ، وهو القائل فيه « ان الغافقي أعلم أطباء المسلمين في العصور الوسطى في الأدوية والأعشاب(٣٧) » •

ويبقى العالم ضياء الدين بن البيطار « أعظم علماء النبات في المشرق في عصره(٣٨) » وهو من أعلام القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي (٥٩٣ ـ ٦٤٦ هـ ، ١١٩٧ ـ ١٢٤٨ م) • وقد ولد بمالقة وسكن اشبيلية، ثم رحل الى مصر ، وتوفي بدمشق • وكتابه الرئيسي اسمه « كتاب الجامع لمفردات الأغذية والأدوية » • وهو موسوعة طبية رتبها مؤلفها على حروف الهجاء ، ويعد « أكمل ما ألف العرب في ذلك الباب وأكثر تفصيلا ، وهو يضم أكثر من ٢٣٣٠ مادة جمع فيها كل ماذكره سابقوه من اليونان والعرب عن الأدوية ، وزاد عليهم بثلاثمئة دواء لم يشر اليها أحد قبله(٣٩) » وآخر من عني بكتاب الجامع لابن البيطار هو مؤرخ العلوم لوكليرك ، اذ نهض بترجمته الى اللغة الفرنسية •

واذا كانت صلة علم النبات والأعشاب وثيقة بالتداوي والصيدلة ، فان صلة الصيدلة أوثق بعلم الطب ، وهي جميعاً تدخل في زمرة العلوم الطبية التي كان العلماء الأوائل يجمعون بينها ، على قدر كبير من البراعة ، اذ قلما اقتصر عالم كبير ، ممن ذكرنا ومن لم نذكر ، على علم دون علم أو فن دون فن ، فكان أولئك الأفذاذ متنوعي الجوانب متعددي المواهب •

وأبو القاسم الزهراوي(٤٠) أحد هؤلاء الأفذاذ في العلوم الطبية ، (٩٣٧ ـ ١٠١٣) وقد وصفه ابن أبي أصيبعة بأنه أعظم أطباء ذلك العصر(٤١) ، وهو المعروف عند اللاتين باسم Abulcasis .وكان الزهراوي من العلماء العرب الأوائل الذين اعتمدت أوربا على مؤلفاتهم في تدريس الطب وممارسته مدة تزيد على خمسة قرون • وكتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » ،ويعرف بـ «الزهراوي» اختصاراً ، أشهر كتبه اطلاقاً • قال براون Brown « ان الزهراوي أشهر جراح عربي أنجبه العالم الاسلامي على مر العصور » • وهو مبدع آلات حديثة ومبتكر عمليات لم يسبقه اليها أحد ، ورفع شأن الجراحة وقفز

بها ، كما اكتشف فنوناً جديدة في الجراحة لم تكن معروفة من قبل ، ولا سيما في الجراحة النسائية ، بعد أن شكا من قلة الطبيبات والممرضات في عصره • وهو أول من وصف الاستعداد الجسدي الخاص لنزف مرض الناعور Hemophilia ويرى الدكتور محسن الخير(٤١) أن فضل هذا العالم الجليل والجراح الفذ يتجلى في أنه أول من ابتكر عملية رفع حصاة المثانة عن طريق المهبل ، وأول من استعمل السنارة لاستئصال الزوائد اللحمية من الأنف، وأول من وصف المحقنة الشرجية والمس الشرجي ، وأول من استعمل المحقنة المعدنية لزرق المحاليل الطبية الى داخل المثانة • كما أنه أول من استخدم الآلة التي تستعمل لخفض اللسان أثناء عملية استئصال اللوزتين •وأول من ربط الأوعية الدموية بخيوط الحرير • وفي صدد الطب النسائي كان الزهراوي أول من أشار الى امكان حدوث الحمل خارج الرحم وأول من شق جيب المياه أثناء المخاض لتعجيل الولادة • وهو مكتشف ملقط الجنين • وكان اعتماده كبيراً على الشق والكي في مجال الأورام حين لا يجدي التداوي المعهود ، ومن ذلك أنواع من الدمل وأورام الرحم • وقد بين الزهراوي أن أورام الرحم نوعان ، سليمة وتعالج بالاستئصال ، وخبيثة لا فائدة من علاجها • واليه ينسب الفضل في استعماله للعديد من أدوات الجراحة التي شاعت من بعده ، مثل السنارة ، المبضع ، المنشار ، الملقط ، الكلاّب ، لولب المهبل وعنق الرحم، المشرط ، المثقب ، المكواة ، القثطرة(٤٢) •

والزهراوي أصبح رائداً في فن الجراحة حين أفلح في شق القصبة الهوائية ، وايقاف نزيف الدم بربط الشرايين الكبيرة(٤٣) • وهذا انجاز علمي كبير ادعى الجراح الفرنسي أمبرواز باريه Ambroise Pare من أطباء القرن السادس عشر أنه حققه لأول مرة ، مع أن أبا القاسم الزهراوي حقق تلك العملية قبله بستة قرون(٤٤) • كذلك كان الزهراوي سباقاً حين أوصى ــ لدى اجراء جراحة في النصف السفلي للانسان أن يتم رفع الحوض والأرجل قبل كل شيء • وهذه الطريقة كما تقول زيغريد هونكه ، « اقتبسها الغربيون منه واستعملوها كثيراً حتى قرننا العشرين ، حين عرفت باسم الجراح الألماني فريدريك ترندلنبورغ »(٤٥) •

لقد تمت ترجمة القسم الأخير من كتاب الزهراوي الشهير (التصريف لمن عجز عن التأليف) أي القسم الجراحي ، الى اللغة اللاتينية في طليطلة في القرن الثالث عشر تحت اسم الجراحة Chirurgia بفضل (جيرا ردو الكريموني ، أو القرموني) ، ومن اللاتينية نقله (شائين توب) الى العبرية • ثم انتقل هذا الجزء المترجم من الزهراوي الى صقلية بفضل روجار الملك أي (روجيه الباليرمي) • ثم آل الى فرنسا بفضل الجراح (شولياك) ، ثم الى اوكسفورد سنة ١٧٧٨ . كما أعيدت ترجمات أقسام أخرى من الكتاب على مراحل ، الى العبرية واللاتينية • وفي عام ١٥١٩ طبع منه جزء بعنوان « كتاب النظر والعمل »(٤٦) ، فكان أهم وأذيع كتاب في تاريخ الطب كله(٤٧) • وبعدئذ طبع في مدينة غوتنبرغ سنة ١٨١٥(٤٨) • وبعد ذلك طبع القسم الجراحي من كتاب الزهراوي بنصه العربي في حيدرأباد بالهند سنة ١٩٠٨، وأخيراً صدر النص العربي مرة أخرى بطبعة

أنيقة في جامعة كاليفورنيا سنة ١٩٧٣ مع ترجمة انكليزية بفضل سبينك لويس Spink Lewis (٤٩) ٠٠٠ كل ذلك رفع الزهراوي في أعين الشرق والغرب الى طبقة أبقراط وجالينوس (٥٠) ٠

ثم بلغ الطب العربي أوجه في الأندلس خلال القرن السادس الهجري ــ الثاني عشر الميلادي ، اي في ذلك العصر الذي جمع الفلاسفة فيه بين الفلسفة والطب كأبي الصلت أمية الداني وابن باجه ، وكذلك أبو الوليد ابن رشد صاحب كتاب « الكليات » ، وقد جعله في مقدمة وسبعة أجزاء ، تناول فيه أعضاء الجسد والتشريح ، وأحوال الصحة والمرض ، ثم الطب الوقائي والعلاجي(٥١) ٠

« بيد أن زعامة الطب في ذلك العصر عقدت بلواء بني زهر ، تلك الأسرة العالمة الشهيرة التي أنجبت أبا مروان عبدالملك بن زهر وابنه أبا العلاء (٥٢٥ هـ ، ١١٣١ م)، ثم أعظمهم جميعا وهو أبو مروان عبدالملك بن أبي العلاء بن زهر (ــ ٥٥٧ هـ ، ١١٦٢م) من أهل اشبيلية(٥٢) » ٠

ومؤلفات ابن زهر Avizohr في الطب عديدة ، منها كتابه : « الاقتصاد » وهو في الطب عامة ، وكتاب « في الأغذية والأدوية »، ثم كتابه « التيسير » ٠ ولعله أجل كتبه ، وقد أهداه الى ابن رشد ، وفيه تتجلى شخصيته بكل وضوح ، ويعتبر خير ما ألفه العرب في الطب العملي ٠ وتثوي أهمية ابن زهر أيضاً في أنه جنح الى تطبيق مبدأ الاختصاص في الطب ، وقد صرف همه الى الطب الباطني ، وابتعد به عن الجراحة من جهة ، وعن الصيدلة من جهة أخرى. ومؤلفاته هذه وتجاربه كانت كأمثالها موضع احتفال أوساط الغرب على هذا الصعيد ٠

□ هبة الأرقام :

ولعل أظهر المؤثرات العربية في أوروبا وسائر العالم على صعيد العلوم البحتة انما يتجلى في استخدام سلسلة الأرقام في العلم والحياة ، وهي نمطان ، نمط يعرف بالأرقام الهندية وهو المتداول بين عرب المشرق العربي وبعض بلدان الشرق ، ونمط يسمى الأرقام الغبارية ، وكلاهما انبثق على الأرجح من الهند ٠ أما الأرقام الغبارية فقد انتقلت الى بلاد المغرب والأندلس(٥٣)٠ وبفضل المعاملات التجارية والرحلات التي قام بها بعض علماء العرب ، والسفارات التي كانت تجري بين الحكومات الاسلامية وبعض البلاد الأوربية ، دخلت هذه الأرقام الى أوربا(٥٤) ، وأزاحت الأرقام الرومانية التي كان يرمز اليها بالحروف الأبجدية ٠ وهكذا عرفت أوربا هذه الأرقام الجديدة « الغبارية » وأطلقت عليها التسمية الجديدة التي تعرف اليوم في العالم ، وهي « الأرقام العربية Chiffres Arabes » .

والأهم من ذلك هو دخول العدد (صفر) الى أوربا بفضل الحضارة العربية الاسلامية، وبفضل الخوارزمي على وجه التحديد ٠ وبذلك أمكن ايجاد طريقة الحساب العشري ٠

ولفظ (صفر) انتقل بنصه أيضاً مع مفهومه، وغدا ينطق سيفر Cifer بالبرتغالية ، وسيفرا Cifra بالاسبانية وسيفرا Cifera بالايطالية ، وسيفر Cipher بالانكليزية ، وشيفر بالفرنسية Chiffre ..

ثم طرأ اختصار وتحريف على الكلمة ، اذ يبدو أنه اكتفي بالحرفين الأول والثاني ، فأصبحت الكلمة (زيرو Zero) . وبفضل هذا الرقم (صفر) أصبحت الأرقام عشرة بدلا من تسعة(٥٥) ، وهذه ثورة في العلوم الرياضية والفلكية أدت الى تيسير العمليات الأربع الحسابية والمسائل الرياضية المعقدة • وعلى صعيد آخر أصبحت الكلمة العربية (صفر) المنطوقة (سيفرا أو شيفرا) رمزاً عاماً لنظام التخاطب السري بالأرقام ، وهو الذي بات يعرف في المصطلح الغربي باسم (الشيفرة) •

وهكذا يسجل التاريخ أن العرب السالفين في مملكة أوغاريت السورية الذين منحوا الحضارة الانسانية حروف الهجاء هم الذين حملوا أيضاً اليها في عهود تالية نظام الأرقام الغبارية •

☐ في اللغة والمصطلح :

ولعل أهم الدلائل على مدى ما بلغه التأثير الحضاري العربي بمشرقه ومغربه في العالم الغربي هو تلك المعطيات الباقية في لغاته الأوروبية ، ولا سيما في اللاتينية وسائر اللغات المتحدرة منها ، وفي مقدمتها الاسبانية والبرتغالية ، ومن ثم الفرنسية والايطالية ، بالاضافة الى بعض اللغات الأخرى كالانكليزية والألمانية واليونانية •••

ومعاجم اللغات الأوربية حافلة بالألفاظ العربية التي دخلت اليها وفرضت نفسها عليها ، تبعاً للتفاعل الفكري والتمازج الثقافي الذي تم عبر العصور • ومن هذا القبيل :

الانبيق	ALAMBIC	الزرنيخ	ARSENIC
القاضي	ALCADE	الزعفران	SAFFRON
الجبر	ALGEBRI	السكر	SUCRE,
القصر	ALCAZAR	الشراب	SIROP
الجبة	JUPE	الطاس ، الفنجان	TASSE
الحمام	HAMMAM	الغزال	ALGAZELLE
الحساب الخوارزمي (اللوغاريتمه)	ALGORITHME	الفستق	PISTACHE
أمير البحر	AMIRAL	القطن	COTTON
البرقوق	APRICOT	الصفر (الرقم)	CHIFFRE
التعرفة	TARIF	القهوة	COFFEE
دار الصناعة	ARCENAL	الكافور	CAMPHRE
الرز	RIS, RISO	الكحول	ALCOOLE
الزرافة	JIRAFE	الكمون	CUMIN
		الكوب ، الكأس	COUPE

الليمـــون	LEMON	المســـجد	MOSQE
المخـــزن	MAGASIN	النارنــج	ORANGE
المناخ ـ التقويم	ALMANACH	الياســمين	JASMIN
المنـــارة	MINARET	الله	OLEH

والملاحظ في هذه الألفاظ الأجنبية وفي المئات الأخرى التي تملأ بطون المعاجم والكتب الأوربية أن عدداً وافراً منها مبدوء بالمقطع اللاتيني AL ، وهذا المقطع في حقيقته هـو أل التعـريف المعهـودة في لغـة العرب ، ثـم التصقت بكثـيـر مـن الكلمـات في اللغـات الأوربية ، اذ توهم الغربيون أو اللاتين أنهـا من صلب الكلمة العربية ، ومن هنا باتت هذه الكلمات وأمثالها تشكل نسبة كبـيرة في تلك اللغات ولا سيما في الاسبانية والبرتغالية •

وينبغي أن نلاحظ أيضاً أن قسماً من الألفاظ الأجنبية ذات الأصول العربية ما زال مستخدماً في اللغات الأوربية الى الآن ، على حين تم التخلي عن قسم آخر واستعيض عنـه بمصطلحات جديدة •

واذا كانت اللغة هي وعاء العقل ، والألفاظ هما حاملة الأفكار ، واذا كان الأدنى في سلم الحضارة ـ وفق قوانين علم الاجتماع ـ هو الذي يستمد معطيات الأرقى ، فان وجود هذه الكثرة البالغة من الألفاظ المنحدرة مـن اللسان العربي داخـل اللغات الأوربية انمـا ينبىء عن مدى عمق التأثير الأندلسي في نهضة الغرب وحضارته • وقـد يكون حصر هـذه الألفاظ مهمة عسيرة ، ولكنها ممكنة في السعي الـى تصنيف معجـم مقـارن شـامل في هذا المـوضـوع •

ومجمل القول ، حين ينضج العقل وتؤتي النهضـة ثمارها ، فـان التقدم العلمـي يتجلى على كل صعيد في رحاب المعارف الانسانية المختلفـة • وهكـذا كان الشـأن في الأندلس منذ القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي ، عندما أخذت العلوم والآداب ، على اختلافها، تغتني وتتنامى على نحو يكاد يكون متوازياً. لقد شهدت البلاد الأندلسية تقدم العلوم الرياضية والفلكيـة ، كما عرفت في الـوقت نفسه تطور العلوم الزراعية والطبية ، ونضج المعارف الفقهية والفلسفية • وكان من ذلك كله ، ـ وفي موازاته ازدهار الفنون والآداب والشعر والموسيقى ، والموشحات والأزجال ـ تألق حضاري أشع من الأندلس ، كما أشع من الشرق فأضاء العالم بسناه قروناً مديدة مـن الزمن ، نعمت خلالها الانسانية عبر مسيرتها المتعاظمة بما أكد حقيقتها وأغنى وجودها •

ان فضل عرب الأندلس في الحقبة العربية الاسلامية لا يقتصـر على ما قدمـوه الى أوربة وسائر العالم من ابداعاتهم الأدبية وانجازاتهم العلمية في تلك الربوع ، بل يتعدى ذلك الى أنهم قدموا الى أوربة حصيلة ما كان يؤول اليهم من علوم عـرب المشرق وفنونهـم وآدابهم وسائر معارفهم ، اذ الحضارة العربية الاسلامية بشطريها كل متلاحم متكامل • على

أن تأثر أوربة بمعطيات الأندلسيين كان أظهر ، تبعاً للاحتكاك المباشر الذي حدث فوق ربوع الغرب الأوربي نفسه ، وتجلى في التزاوج السكاني والتفاعل العلمي والتمازج الثقافي • وفي رأي كراتشكوفسكي أن التفاعل الحضاري في شبه الجزيرة الايبرية كان متواصلا ، وهو مثال ساطع على عدم ثبات الحدود الفاصلة بين الشرق والغرب على الصعيد الثقافي العالمي •

ولعل من أبرز ما استمده الأوربيون من حضارة العرب على صعيد منهج البحث والدرس هو ما امتاز به العرب من تغليب عنصر المشاهدة على النظر والخبرة على الخبر •

على أن أهم ما لمسه الأوربيون في الأندلس ، حين تهافتوا على قرطبة وسواها من الحواضر للتزود بالعلم ، ما لمسوه في الحضارة العربية الاسلامية من اشادة بقيمة الانسان • وهذا المفهوم السامي لمنزلة الانسان لم يكونوا يعهدونه في مجتمعاتهم ، وقد كرمه الله تعالى، وتجلى ذلك في آيات قرآنه الكريم •

ان المعارف الانسانية قسمة مشتركة بين الشعوب ، على تفاوت فيما بينها ، وهي لذلك أخذ وعطاء • ومن قبل اطلع العرب على جملة العلوم والفنون والآداب والصناعات لدى شعوب الهند والصين والفرس والاغريق ، وتمثلوا ذلك كله واختزنوه ، ثم جاء دورهم في العطاء في مشرق العالم القديم ومغربه •

ان العلوم العربية في الأندلس ، وما امتازت به من تقدم وازدهار ، كانت البذرة الأولى للتطور العلمي في الغرب ، والشرارة التي اتقد بها عصر النهضة الأوربية •

□ مصادر البحث :

- أثر الأندلس على أوروبا : د• عباس الجراري • مجلة عالم الفكر • المجلد ١٢ ، ابريل ـ مايو ـ يونيو • الكويت ١٩٨١ •
- الأعلام : خير الدين الزركلي • بيروت ١٩٧٠ •
- تاريخ الفكر الأندلسي : آنخل جنثالث بلنيثا • ترجمة د• حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ •
- تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك : قدري حافظ طوقان • القاهرة ١٩٦٣ •
- الثقافة العربية ـ الاسبانية عبر التاريخ : (الدراسات التي القيت في ندوة الثقافة العربية الاسبانية) وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٩١ •
- حضارة الأندلس : د• احمد أبو زيد • مجلة عالم الفكر ، المجلد ١٢ • ابريل ـ مايو ـ يونيو• الكويت ١٩٨١ •
- دراسات في تاريخ العلوم عند العرب : حكمت نجيب عبدالرحمن منشورات جامعة الموصل ١٩٧٧ •
- شمس العرب تسطع على الغرب : زيغريد هونكه •
- الشعر الأندلسي : غارسيا غوميز ، ترجمة د• حسين مؤنس • القاهرة ١٩٦٦ بحوث مخطوطة متفرقة مقدمة الى ندوة الثقافة العربية ـ الاسبانية عبر التاريخ التي انعقدت بدمشق سنة ١٩٩٠ ، وهي بقلم د• محمد حرب فرزات ، د• عدنان البني ، د• روبرت لاندا ، د• محمد السويسي ، د• محسن الخير •

□ الحواشـي :

١ ـ دلالات حضارية في قراءة عربية لنصين بونيين من اسبانيا • بحث مخطوط قدمه الدكتور محمد حرب فرزات الى (الندوة العالمية للثقافة العربية الاسبانية عبر التاريخ) التي انعقدت في دمشق ، كانون الأول (ديسمبر ١٩٩٠) •

٢ ـ البونيون ، ويسمون أيضا البونيقيين ، هم الفينيقيون الغربيون •

٣ ـ العلاقات بين الكنعانيين (الفينيقيين) والاسبان في الأزمنة الاقدم ، بحث مخطوط قدمه الدكتور عدنان البني الى الندوة العالمية للثقافة العربية الاسبانية بدمشق ١٩٩٠ •

٤ ـ حضارة الأندلس ، د• احمد أبو زيد ، مجلة عالم الفكر ، ص ٤ ، ٥ ، المجلد الثاني عشر ، ابريل ـ مايـو ـ يونيو ١٩٨١ ، الكويت •

٥ ـ كانن عدد الفاتحين في جيش طارق نحو عدة آلاف معظمهم من البربر ، وكان بينهم بضع مئات من العرب • وحين تولى الداخل حكم الأندلس لم يتجاوز عدد المسلمين خمسين ألفا ، على حين كان السكان المحليون بقومياتهم الكثيرة نحو ستة ملايين •

٦ ـ الشعر الأندلسي : ترجمة د• حسين مؤنس ٣٥ ، القاهرة ١٩٦٦ •

٧ ـ التفاعل والتآلف الحضاري في شبه الجزيرة الايبرية ، بحث مخطوط قدمه روبرت لاندا الى الندوة العالمية للثقافة العربية الاسبانية عبر التاريخ ، التي انعقدت في دمشق ، كانون الاول ـ دسمبر ـ ١٩٩٠ •

٨ ـ تاريخ الفكر الأندلسي ، انخل جنثالث بالنثيا ، ترجمة د• حسين مؤنس ص ٤٨٥ ، مكتبة دار النهضة المصرية ـ القاهرة : ١٩٥٥ •

٩ ـ تاريخ الفكر الأندلسي ، بالنثيا ـ مؤنس ٤٨٦ •

10 — CHARLES HSKINS. Studies in the History of Medieval Sciences, P. 113, Cambridge 1924.

١١ ـ آثر الأندلس على أوربا ، د• عباس الجراري • مجلة عالم الفكر ، ص ١٩ المجلد الثاني عشر ، ابريل ـ مايو ـ يونيو ١٩٨١ الكويت •

١٢ ـ العلوم العربية بالأندلس ونقلها الى أوربـا ، بحث مخطوط ص ١٢ ـ ١٣ قدمه الدكتور محمـد السويسي الى الندوة العالمية للثقافة العربية الاسبانية ، في دمشق• كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٩٠ •

١٣ ـ المرجع السابق ١١ •

١٤ ـ المرجع السابق ١٢ •

١٥ ـ تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة د• حسين مؤنس ٤٨٨ •

١٦ ـ تاريـخ الفكـر الأندلسي ، بالنثيا ـ مؤنس ٥٠٢ •

١٧ ـ أثر الأندلس على أوربا ، د• عباس العراري • مجلة عالم الفكر ، المجلد الثاني عشر ١٩٨١ •

١٨ ـ المرجع نفسه •

١٩ ـ العلوم العربية بالاندلس ونقلها الى أوربا ، بحث مخطوط ص ١٣ ، د• محمد السويسي •

٢٠ ـ المرجع السابق •

٢١ ـ العلوم العربية بالأندلس ونقلها الى أوربـا ، بحث مخطوط ، بقلم د• محمد السويسي • المرجع ٤ •

٢٢ ـ المرجع السابـق ٦ •

٢٣ ـ المرجع السابق ٤ ـ ٥ •

٢٤ ـ دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، حكمت نجيب عبد الرحمن ، ص ٢١١ ، منشورات جامعة الموصل ١٩٧٧ •

٢٥ ـ تاريخ الفكر الأندلسي ، بالنثيا ـ مؤنس ٤٤٨ •

٢٦ ـ المرجع السابق ٤٥٠ .
٢٧ ـ المرجع السابق ٤٥٢ .
٢٨ ـ العلوم العربية بالاندلس ونقلها الى أوربا ، د. محمد السويسي ٦ .
٢٩ ـ تاريخ الفكر الأندلسي ، بالنثيا ، مؤنس ٤٥٢ .
٣٠ ـ ترجم له خير الدين الزركلي في كتابه « الأعلام » ٥ : ١٦٣ .
٣١ ـ العلوم العربية بالاندلس وأثرها ... د. محمد السويسي ٥ .
٣٢ ـ العلوم العربية وأثرها ، د. محمد السويسي ٧ .
٣٣ ـ العلوم العربية بالاندلس وأثرها في أوربا ، د. محمد السويسي ٦ .
٣٤ ـ الأعلام ، خير الدين الزركلي ٩ : ٢٠٨ ـ ط ٢ ـ القاهرة ١٩٥٧ ـ وأيضا مجلة المقتطف ٦٩ : ٢٦٩ ، وأيضا معجم المطبوعات لسركيس ١٩٤ .
٣٥ ـ تاريخ الفكر الأندلسي ، بالنثيا ، مؤنس ٤٧٥ .
٣٦ ـ دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ٢١١ ، حكمت نجيب عبد الرحمن . منشورات جامعة الموصل ١٩٧٧ .
٣٧ ـ تاريخ الفكر الأندلسي ، ٤٧٢ ، بالنثيا ، مؤنس ٤٧٢ . وأصل كتاب الغافقي ضائع ، أما مختصره فقد نشره ماكس مايرهوف وجورج صبحي بالقاهرة في سنتي ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ .
٣٨ ـ تاريخ الفكر الأندلسي ٤٧٨ .
٣٩ ـ المرجع السابق ٤٧٨ . وابن البيطار أستاذ ابن أبي أصيبعة . وكتابه المذكور طبع في القاهرة وصدر في اربعة مجلدات ١٢٩١ هـ ـ ١٨٧٤ م .
٤٠ ـ الزهراوي : نسبة الى ضاحية الزهراء بظاهر قرطبة ، وقد بناها الخليفة الناصر .
٤١ ـ اسهام أبو القاسم الزهراوي في الفكر الانساني ، بحث مخطوط قدمه الدكتور الخير الى الندوة العالمية للثقافة العربية الاسبانية ، في كانون الثاني ١٩٩٠ بدمشق .
٤٢ ـ اسهام أبو القاسم الزهراوي في الفكر الانساني ، الدكتور محسن الخير .
٤٣ ـ دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، حكمت نجيب عبد الرحمن ٦٩ ـ ٧٠ .
٤٤ ـ المرجع السابق ٧٠ ، منشورات جامعة الموصل .
٤٥ ـ شمس العرب تسطع على الغرب ٢٧٨ .
٤٦ ـ تاريخ الفكر الأندلسي ، بالنثيا ، مؤنس ٤٦٦ .
٤٧ ـ تاريخ الفكر الأندلسي ٤٦٦ .
٤٨ ـ اسهام الزهراوي في الفكر الانساني ، د. محسن الخير ٤ .
49 — University of California Press 1973.
٥٠ ـ تاريخ الفكر الأندلسي ٤٦٦ .
٥١ ـ تاريخ الفكر الأندلسي ٤٧٠ ـ ٤٧١ .
٥٢ ـ تاريخ الفكر الأندلسي ٤٧١ .
٥٣ ـ يقال ان وصف الأرقام بانها غبارية تعود الى ان الهنود كانوا يذرون رماداً فوق الصحيفة ثم يكتبون باصبعهم التي تمر على الغبار فتزيله ويتضح المراد .
٥٤ ـ تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، قدري حافظ طوقان ٤٨ ، القاهرة ـ ١٩٦٣ .
٥٥ ـ دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، حكمت نجيب عبد الرحمن ٨٦ .

المعاني القرآنية في الشعر الجزائري الحديث

د. عبدالقادر هني (*)

من يقلب النظر في الشعر الجزائري في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الذي نحن فيه يلحظ أن الطابع المميز لهذا الشعر هو الركاكة والضعف اللذان جعلا اسم « الشعر » لا يصدق على ما كان ينظمه شعراء هذه الحقبة ، الا على سبيل التسامح والتجوز ؛ لافتقاره الى العناصر الحقيقية للشعر كما يعرفه النقد الحديث . اذ لا تعدو منظومات هذه الفترة أن تكون كلاماً لا يختلف في شيء عما هو متداول في حلقات الذكر وفي المجالات الأخرى من الحياة اليومية ، وقد جاء هذا الكلام في أوزان مكسورة غالباً ، طابعها التعمل والتكلف . وعُقد بقواف لا أثر فيها للطبع والموهبة ، فهي مجتلبة اجتلاباً يجعلك تحس بنبوها احساساً يؤذي الذوق ويبعث على الاشمئزاز . واذا نظرت الى لغته ومعانيه فانك لا تجد فرقاً بينها وبين لغة النحو والفقه والتوحيد ، وما اليها من العلوم والمعارف التي يتميز الشعر منها تميزاً بيناً ؛ لما يحتاج اليه من ملكات فطرية وأدوات كسبية ليست من نوع ما يحتاج اليه في غيره من المجالات المعرفية الأخرى .

واذا كنا لا ننكر أن العقد الثاني من القرن العشرين في الجزائر بدأ يعرف مع أمثال عمر بن قدور والمولود بن موهوب وعبد القادر المجاوي وسعد الدين بلقاسم بن الخمار وغيرهم محاولات لاخراج الشعر من الدوائر المغلقة التي ظل حبيسها ردحاً طويلا من الزمن(١) ، فان ما لا بد من توكيده هو أن هذه المحاولات ظلت فردية ولم تستطع أن تغير الوجه الشاحب المميز للشعر الجزائري في هذه الآونة ، فالشيخ البشير الابراهيمي فحص ما أُنتج من أشعار في هذه المدة فوجدها ـ كما يقول : أختاً للأشعار « الملحونة الرائجة في

(*) باحث وأستاذ في جامعة الجزائر .

السوق ، لأنها منقطعة الصلة بالشعر في أعاريضه وأضربه ، ومنقطعة الصلة بالعربية في ألفاظها ومعانيها ، ومنقطعة الصلة بالخيال في تصرفه واختراعه »(٢) ٠

واذا كان كلام الابراهيمي لا يشمل في تقديرنا أشعار الشعراء الذين ذكرناهم على الأقل ، فان الجهود التي بذلها هؤلاء على الرغم من قيمتها في مسار الشعر الجزائري الحديث ، فانها لا تمثل المنعرج الحاسم في تاريخ هذا الشعر ، فالقطيعة النهائية مع النموذج الشعري لعصر الضعف في الجزائر لاتبدأ الا مع المشروع النهضوي الذي أقرته الحركة الاصلاحية لتحديث المجتمع الجزائري وتحريره من التخلف الذي كرسته السياسة الاستعمارية لقطع صلته بأصوله العربية والاسلامية ، ولا نحسب أن الشيخ عبد الحميد بن باديس كان متزيداً ومبالغاً حين حدد بداية نهضة الشعر الجزائري بميلاد جريدة (المنتقد) سنة ١٩٢٥ ، فقال : « ٠٠ الحقيقة التي يعلمها كل أحد أن هذه الحركة الأدبية ظهرت واضحة من يوم أن برزت جريدة المنتقد ، فمن يوم ذاك عرفت الجزائر من أبنائها كتاباً وشعراء ما كانت تعرفهم من قبل »(٣) ٠ معنى هذا أن البعث الحقيقي للحركة الأدبية والشعرية في الجزائر ، بدأ مع الحركة الاصلاحية التي نشأت في هذا التاريخ وكان مشروعها الثقافي المتدرج في مخططها النهضوي العام عربياً اسلامياً في روحه ومنهجه وأهدافه ٠

واذا كان الاصلاحيون الجزائريون قد رأوا ـ في سعيهم الى تحديث الثقافة العربية والاسلامية بالجزائر ـ أن العودة الى التراث الأدبي العربي في عهود ازدهاره تُعد عاملا رئيساً من عوامل الارتقاء بالأدب الجزائري ليؤدي وظيفته الحقيقية بحسبه أداة ناجعة من أدوات التربية والنهضة الاجتماعية التي كانت من بين الغايات الأولى في الخطة النهضوية للاصلاحيين ، فحرصوا على ربط الناشئة بالتراث العربي في فترات قوته ، فان حرصهم كان أشد على تنشئة الجيل الذي سيمثل ركائز النهضة وأعمدتها على القرآن الكريم، ايماناً منهم بأن النهضة الاسلامية المأمولة في الجزائر لا يمكن أن يكون لها معنى ، الا اذا كان عمودها الفقري هو كتاب الله عز وجل ، وهذاما تفسره وتدل عليه الأهمية الكبرى التي أعطيت للقرآن الكريم في مدارس الاصلاحيين وفي برامجهم التربوية والتعليمية بوجه عام ، وفي هذا الاطار يتنزل قول رائد الحركة الاصلاحية الامام عبد الحميد بن باديس : « اننا والحمد لله نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم ، ونوجه نفوسهم الى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكوّن القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم ٠ وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها ، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها »(٤) ٠

ونفس هذه العناية بالقرآن في تعليم الناشئة نلمسها عند رجال الاصلاح الآخرين كالشيخ البشير الابراهيمي الذي كان يرى أن التزود به لا ينبغي أن يكون وقفاً على المراحل الأولى ، انما يجب أن يبقى مستمراً حتى بعد التخرج في المدارس العالية ؛ لما لكتاب الله من آثار محمودة لا في السلوك فحسب ، بل أيضاً في صقل الألسنة وتربيتها على الفصاحة والبيان ، وهو نفس الاهتمام الذي أبداه الشيخ أبو اليقظان الذي خصص للقرآن وآثاره عدداً من المقالات نشرها في جريدة الفرقان(٥) ٠

ولما كان الجيل الذي شهد معه الشعر الجزائري الحديث بداية تطوره الحقيقي قد تخرج في مدارس الحركة الاصلاحية التي بينت لنا مكان القرآن الكريم في برامجها ، فانه من الطبيعي أن تكون لهذا الرافد آثار واضحة فيما ستجود به قرائح الشعراء الذين شبوا واستقام عودهم في هذه المدارس ، خصوصاً أن هؤلاء الشعراء فهموا أن وظيفتهم الأولى في المجتمع وظيفة تهذيبية تربوية تهدف الى النهوض بالأمة ومحاربة البدع والضلالات ، التي كان يشجع عليها المستعمر ليبقى الشعب الجزائري يعيش في ظلمات متراكبة الجهل ، منقطع الصلة بالحياة الحقة ، كما هو منصوص عليها في كتاب الله عز وجل • وقد اعترف الشعراء أنفسهم بفضل القرآن في تكوينهم وبأثره في أشعارهم ، وهو أثر تجلى في أكثر من عنصر من عناصر الشعر عند هؤلاء ؛ فقد مس المعجم الشعري والصورة بأنماطها المختلفة والايقاع والمعاني • وسنحاول في السطور التالية أن نبرز هذا الأثر في معاني الشعر فحسب •

ان المتأمل للشعر الجزائري الحديث يلفت انتباهه الحضور القوي للمعاني القرآنية فيه ويلحظ كيف كان الشعراء يفزعون الى القرآن الكريم يستلهمون منه مواقفهم من الاستعمار الفرنسي ومن الظواهر السلبية التي أفرزها الاحتلال وحاول الدخلاء جهد طاقتهم أن يكرسوها في الجزائر المسلمة ، قصد تغريب شعبها وابقائه في فلكهم • وفي هذا المجال احتلت مسألة الايمان بالله والتشبث بالعقيدة ــ باعتبارها الخطوة الأولى في التربية والاصلاح ــ مركزاً سامياً من اهتمام الشعراء ، رغبة منهم في تقوية الجانب الروحي في النفوس ، وتوكيد صلة الشعب بحبل الله المتين ، حتى يقوى على مواجهة مخططات فرنسا الرامية الى ضرب هذا الجانب من الشخصية الجزائرية ، كيما يسهل الاجهاز عليها وترويضها حسبما يخدم مصالحها وأطماعها الاستعمارية • لقد كانت متيقنة أن قوة هذا الشعب تكمن في قوة ايمانه ، فاذا ما أفلحت في زعزعة هذا الجانب من شخصيته وتحويله عن قصده ، فان السبل تنفتح حيالها لاستغلاله كيفما شاءت ، وتحويله عبداً يأتمر بأوامرها ويمشي طوع ارادتها • يقول مفدي زكرياء منبهاً الى مغبة التهاون في عبادة الله :

اذا الشعب أخلف عهد الاله ... وخان العقيدة فارقب زواله

وقال يبرز الأثر الايجابي للايمان :

وحرارة الايمان يخبو دونها ... وهج الخطوب وجاحم الأخطار

فالايمان والعقيدة القوية ، كما يرى زكرياء ، يمثلان الأداة الناجعة لمقاومة الفناء والذوبان في الآخر ، والوسيلة الفعالة لمجابهة الخطوب والنوازل مهما كانت شدتها وعنفها ، وهي اشارات من مفدي الى شعبه المسلم يبين له فيها عواقب التهاون والتفريط في العقيدة حتى يظل متمسكاً بايمانه الذي يرتبط بقاؤه وعزته بمدى قوته وتمكنه من نفسه •

والايمان الصحيح ، الضارب بجذوره في أعماق النفس ، كما يبرز ذلك محمد العيد هو اللحمة التي تؤلف بين الناس بقوة لاتنفصم عراها ولا تتزعزع مهما كانت

العواصف هوجاً ومهما بلغت الهزات من الشدة والعنف ؛ لأن ما أبرمه الله عز وجل يستحيل أن يقوى أحد على حل عقده :

لقد شد بالايمان عقد قلوبنا وليس لعقد شده الله فاصم

أما الايمان كما عبر عنه أحمد سحنون فهو أقوى عدة بيد الشعب لمقارعة العدو الغاصب بجيوشه الجرارة ، وقوته — أي الايمان — لا تكافئها قوة الحديد والنار ، لذلك يوجه نداءه الى اخوانه في مصر فيقول :

واجعلوا الايمان أقوى عدة تغنموا النصر على الباغي العنيد
قوة الايمان لا ترهب ما حشد الطغاة من (جيش عتيد)
قوة الايمان لا تعدلها قوة النار ولا بأس الحديد

فمن ينعم النظر في الأبيات التي سقناها هنا يلاحظ في يسر أنها غير خارجة عن دائرة المعاني القرآنية في آي الذكر الحكيم التي تحث الانسان على الايمان وتبرز له فضله في حياته الدنيا وفي الآخرة كقوله عز وجل : « فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (الأنعام : ٤٨) وقوله تعالى « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » (الأنعام : ٨٢) .

وقد اهتدى بعض الشعراء ، في هذا الاطار ، بنهج القرآن الكريم في تذكير الانسان بخالقه وتقوية ايمانه به ، وذلك عن طريق دعوته الى تدبر ما يحيط به من آيات الكون العجيبة ، التي توقد جذوة الايمان في النفس ، وتزيد الانسان يقيناً بوجود الله وهيمنته على الكون بأشيائه وأحيائه . فمفدي زكرياء تملى في قسمات بلاده فأدرك من خلالها ربه ، فازداد يقيناً بوحدانية الله الذي لا يشاركه في ملكه أحد :

بلادي عرفت الله في قسماتها وآمنت أن الله ليس له ثاني

ويعجب من أولئك الذين يعصون الله ، وكل ما في هذا الكون من مظاهر يشير اليه ، ويشهد على وجوده ، ويدل على وحدانيته :

أيا عجباً كيف يُعصى الاله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد
ولله في كل تحريكة وتسكينة أبداً شاهد

ويستلهم محمد العيد آل خليفة طائفة من المعاني القرآنية ليحفز النفوس على الاستمساك بالدين والعمل بتعاليمه وتطبيق أحكامه وليحمل الناس على عدم الخوف من أية قوة مهما كانت جبارة ، لأن الله القوي العزيز الذي يعتصمون به لا يقوى مخلوق أيًّا كانت سطوته وعدته من مغالبته . بل ان الوجوه جميعاً لتعنو له صاغرة ، وأحكامه في خلقه نافذة لا معقب عليها :

حمداً لمن في الحق غاث وغارا ولوجهه عنت الوجوه صغارا
سبحانه زجر القويّ من الأذى وحمى الضعيف من الأذى وأجارا
الغالب القهار فوق عباده من ذا يكيد الغالب القهارا
من ذا يعقب من سوى القوي ودرى الغيوب وقدّر الأقدارا

فالشاعر اذ اتكأ على المعاني القرآنية في أبياته هذه ؛ فانه كان يسعى الى أن يقوي من عزيمة مخاطبيه ـ الشعب الجزائري ـ في صراعهم المرير مع المستعمر الفرنسي حتى لا يفشلوا وتذهب ريحهم ، وهو اذ يذكر بقوة خالقه وقدرته وارادته النافذة في خلقه ، فانه يهدف الى أن يعيد الثقة الى النفوس في النصر الأكيد بمعونة الله ، الذي قطع على نفسه وعداً بنصر عباده المؤمنين المستضعفين على الظالمين . معنى ذلك أنه اذا أراد هذا الشعب المقهور نصراً من الله العلي القدير ، فما عليه الا أن يخلص في تقواه وفي ايمانه به ، وأن يلتمس العون منه وحده عزّ وجلّ لأنه القادر على اللطف بهم ورفع الغبن ودفع الأذى عنهم بهزم الطغاة بالغاً ما بلغ عددهم وعدتهم .

ونلحظ هنا أن « العيد » حرص حرصاً شديداً على أن يحتفظ لمعانيه التي استوحى فيها، كتاب الله بنفس دلالاتها في مصدرها الأصلي كما يتبين من الموازنة بينها وبين مثل قوله تبارك وتعالى : « وعنت الوجوه للحيّ القيوم وقد خاب من حمل ظلما » (طه:١١١) وقوله عزّ وجل : « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (يوسف:٢١) وقوله أيضاً : « والله يحكم لا معقّب لحكمه والله سريع الحساب » (الرعد : ٤١) ، الى آيت كثيرة أخرى غير هذه كانت مرجعاً للشاعر في أبياته المتقدمة .

ومفدي زكرياء هو الآخر يبين لاخوانه في فلسطين السبيل الناجعة لاسترجاع أرضهم المغتصبة ظلماً وعدواناً ، واستعادة حقوقهم المسلوبة ، فيربط ربطاً مباشراً بين تحقيق هذه الغايات وبين طاعة المولى جلّ جلاله واخلاص العبدة له وحده ، فنصرهم مرهون بنصرتهم العلي القدير ، قال :

فان تنصروا الله ينصركم وينجز أمانيكم الغالية
ولن يخلف الله ميعاده ولا ريب ساعتنا آتية

والعلاقة واضحة بين المعاني المصوغة في هذين البيتين وبين قوله تعالى : « ... **حتى يأتي وعد الله ان الله لا يخلف الميعاد** » (الرعد : ٣١) وقوله : « **وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » (الروم : ٦) وقوله في سورة « محمد » « **يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم** » (محمد : ٧) .

وتكشف الموازنة في هذا الموضع أن الشاعر كاد أن يعيد بعض هذه الآيات بنصها : فالألفاظ هي نفسها مع بعض التصرف الذي اقتضته قواعد النظم في نسج الأبيات .

ونرى زكرياء مرة أخرى يشد أزر أبناء الريف المغاربة في حربهم مع الاستعمار الأسباني فلا يجد في شحذهم بروح البذل والتضحية في سبيل تحرير أرضهم ودفع الظلم عن أنفسهم أنسب من معنى الرعاية التي يحيط بها الله عباده المؤمنين بعينه التي لا تنام في جهادهم الكفر والطغيان ، فيقول :

(بني الريف) لا بني الشرق جمعا   هلمّوا فقد عَذُبَ المستقر

ففوقكم عين ربٍ خبير   تنام العيون ولا تنحسر

وأحسب أن مفدي قد استلهم في بيته الثاني قوله عزّ وجل : « الله لا اله الا هو الحيُّ القيوم لا تأخذه سنَة ولا نوم ... » (البقرة : ٢٥٥) . أما معنى الرعاية والنصر الالهيين المفهوم من البيَت فان مرجعيته القرآنية أوضح من أن تحتاج الى بيان .

وقد عمل الشعراء على تمتين صلة الشعب الجزائري بربه وتقوية ثقته في نصره على عدوه ، بتذكيره المستمر بما أسبغه عزّوجلّ على نفسه من نعوت وأوصاف . من هنا نرى صفات الله وأسماءه الحسنى ، التي حفل بها القرآن الكريم ، تتردد في كثير من القصائد التي نظمت في هذه المرحلة الدقيقة ، التي كانت فيها الجزائر المسلمة تعاني من جبروت الاستعمار وطغيانه . ومن أمثلة هذه الأسماء والصفات : الرحمن ، الرحيم ، الغالب ، القهار ، القوي ، المهيمن ، عالم الغيب ، الخبير .. الخ ، فاذا عدنا الى الأبيات السابقة التي أوردها لمحمد العيد ، فاننا نجده يستخدم لهذا الغرض نفسه بعض هذه الأسماء الصفات ، وقد عاد الى توظيفها في قصائد أخرى كما في قوله :

تبارك الله ، هذا معترف   بأنّ صانعه رحمن قهّار

وقال في قصيدة أخرى أفردها للدعوة الى التعاون وفعل الخير وترك مالا يرضي الله من أفعال قد يأتيها المرء خفية ظناً منه أن لا أحد يراقبه ، والحال أن المولى تبارك وتعالى المهيمن على كل شيء في هذا الكون لا تخفى عليه صغيرة أو كبيرة من أفعال مخلوقاته :

الحُكْمُ لله كم غلّت يداً يده   والأمرُ لله كم أعلى وكم وضعا

مهيمنٌ كلُّ شيءٍ تحت قبضته   ومالكٌ كلُّ سلطانٍ له خضعا

وقال مفدي زكرياء :

على ذمّة القهار ما أنا فاعل   الى مفرق الجوزاء الى السمك العالي

وفي النداء الذي رفعه الى أبناء الريف المغربي يحثهم فيه على ترك الخنوع والتخاذل والنهوض لكسر قيود الذل التي تطوق أعناقهم يقول مفدي أيضاً :

فان سامحتكم ضمائركم   فان المهيمن لا يغتفر

واللافت للنظر أن توظيف الشاعر كلمة (المهيمن) في هذا المساق ، الغرض منه استنهاض الهمم وتحريك النفوس للثورة على الغاصبين ، فهو بتذكيره مخاطبيه بأن

« المهيمن » ـ أي الله عز وجل ـ لا يرضى على تقاعسهم وقعودهم عن بذل النفوس من أجل الحرية ، فانه يريد أن يوقد الشعور بالذنب والتقصير في حق الله تعالى ، وهو معنى يكون له من غير شك وقع شديد في النفوس التقية المؤمنة التي تعلم حق العلم أن غضب الله ليس بالأمر الهين مصداقاً لقوله جلت قدرته :« **ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى** » (طه : ٨١) . وقد لا نحتاج استعراض أمثلة كثيرة لنبين أن القرآن كان المصدر الأول لهؤلاء الشعراء في المعاني التي أدتها هذه الأسماء الصفات في السياقات التي استخدمت فيها . فحسبنا في ذلك قوله تعالى في سورة الحشر :«**هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر. سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يُسبّح له مافي السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم** »(الحشر ٢٢ ـ ٢٤) .

ومن الطبيعي أن يؤدي ربط الشعراء الانتصار على الطغاة الغاصبين بقدرة المولى عز وجل ولطفه على عباده المؤمنين المظلومين الى التوكيد على معاني التقوى والتوحيد والاخلاص في عبادة الله ، وفي هذا المساق وجد الشعراء في القرآن الكريم ، الذي كان يمثل عمود ثقافتهم ، المصدر الأول الذي أمدهم بما حاولوا من خلاله أن يوثقوا صلة جمهورهم المسلم بربه ، وهذا ما نلحظه بجلاء في طائفة من الأبيات التي مرت معنا ، ويمكن أن نزيد ذلك اظهاراً بشواهد أخرى كقول محمد العبيد :

وحـده في ذاتٍ وفي وصفٍ وفي فعلٍ وفي خلقٍ وفي ابداع

وقال مفدي زكرياء في الموضوع نفسه :

ان من يُشرق الفؤاد بتقوى الله يعتز سعيه بسداد

وقال أيضاً :

راقب الله في مصيرك يا شعب يراقبك حاضراً ومآلا

أما أحمد سحنون فيقول في هذا الموضوع أيضاً :

فمن يتحلَّ بثوب التقى يجد مخرجاً وينل ما طلب
ويلق رضى الله من جنده « ويرزقه من حيث لا يحتسب »

ولهؤلاء الشعراء وغيرهم كأبي بكر بن رحمون مثلا أبيات أخرى ركزوا فيها تركيزاً واضحاً على مسألة التقوى وعبادة الله ، وكانوا في ذلك كله يفزعون الى القرآن الكريم يستمدون منه معانيهم كما هو بيِّن من النماذج التي قدمناه في هذا الموضع، والتي يدرك القارىء بيسر مرجعيتها فالشطر الثاني من البيت الثاني فيما أوردناه لأحمد سحنون مثلا هو تضمين لقسم من الآية الثالثة من سورة (الطلاق) والبيتان معاً اعتمد فيهما الشاعر على الآيتين الثانية والثالثة من السورة نفسها ، والبيت الأول عند مفدي زكرياء استلهم فيه من غير شك قوله عزّ وجل : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » (الطلاق : ٢) أما بيته

الثاني فاستوعب فيه الآيات التي وعد فيها المولى عزَّ وجل عباده المؤمنين المتوكلين عليه بالفوز في الدارين كقوله تعالى : « ومن يطع الله ورسوله ويخشَ الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » (النور : ٥٢) وقوله : « ومن يتوكَّل على الله فهو حسبه ․ » (الطلاق:٣) الى آيات كثيرة أخرى بيَّن فيها الخالق الكريم لعباده الصالحين الذين يعبدونه في الغدوِّ والآصال ويفزعون الية في كل شأن من شؤونهم أنه غير متخل عنهم ․

أما ما في بيت محمد العيد من دعوة الى توحيد الله وعدم الاشراك به فان صلته بالقرآن الكريم على درجة كبيرة من البيان والوضوح ونقتصر هنا بالتذكير بقوله تبارك وتعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً »(النساء : ٣٦) ، فدعوة الناس الى عبادة الله وعدم الاشراك به هي دعوة الى توحيده في كل شيء والتسليم له بالقدرة على خلق ما يشاء ․

وقوة الجانب الايماني في النفوس على النحو الذي سعى الشعراء الى تحقيقه هو ما سيجعل الشعب المسلم مهيأً لقبول أحكام الله فيه بنفس راضية مطمئنة لا تشوبها نزعة من قلق أو حيرة ، أو شك في عدل الله عزَّ وجل ؛ لأن المؤمن الحق يرضى بما قدره الله عليه رضاءً كاملاً ، من غير فزع أو جزع ، سيما أن جزعه لا يرد عليه قضاء الله وقدره ، ولا يدفع عنه الضر الذي أصابه ، كما يقول محمد العيد آل خليفه(٧) :

تُردِّدُ (لو) بعد المصيبة نادماً	وما قول (لو) بعد المصيبة نافع
لقد قدَّر الله المقادير كلها	وما ثَمَّ مشفوع ولا ثمَّ شافع
أحاط قضاءُ الله بالخلق كلهم	فلم يمتنع شيخٌ ولم ينجُ يافع
ألا فارجع الطرف الذي أنت طامح	به وأخفض الرأس الذي أنت رافع
فمالك فيما يدفع الله جالب	ولا لك فيما يجلب الله دافع

فقد استعان الشاعر في تقرير حقيقة القضاء والقدر ، وحتمية قبول حكم الله بكثير من المعاني المترددة في آي الذكر الحكيم في هذا الموضوع ، منها قوله تعالى : « الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انَّا لله وانَّا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » (البقرة ١٥٦ ــ ١٥٧) ومنها قوله عزَّ وجل:«واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور » (لقمان : ١٧) ومنها قوله : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرةُ من أمرهم » (الأحزاب : ٣٦) الى غير ذلك من الآيات التي جاءت لتقرير هذه الحقيقة(٨) ․ وفي البيت الأخير استلهم محمد العيد ــ كما لاحظ الأستاذ بو حجام ــ قوله تعالى :« ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يُمسك فلا مُرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم » (فاطر : ٢) ․

وقد بلغ ايمان « العيد » بالقضاء والقدر وضرورة التسليم لما يصيب به الله عباده ويمتحنهم به أن جعل هذا الاعتقاد صفة يستحق المؤمنون أن يمدحوا بها ، لما فيها من

دليل وبرهان على صدق ايمانهم وثقتهم في عدل الخالق الكريم الذي يريد لهم الخير في كل حال :

وليس لهم على القدر انتقاد ... وليس لهم على العمل اتكال
رضوا أبداً بقسم الله حظاً ... وهل في قسمه الا الكمال

وظني أن محمد العيد وهو يصوغ هذين البيتين استعاد الى ذهنه آيات قرآنية كثيرة تدور معانيها حول نفس المجال الدلالي الذي يتنزل فيه المعنى الذي قصده ونذكر من هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر والاستقصاء قوله تعالى : « ان الله لا يظلم الناس شيئاً » (يونس : ٤٤) وقوله : « والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء » (غافر : ٢٠) .

وقد التقى مفدي زكرياء أيضاً مع محمد العيد في الرؤية التي تبناها في تقرير قضية القضاء والقدر في تعامله مع الواقع الصعب الذي كان يعيشه الجزائريون في عهد الاحتلال ، فمن شعره في هذا الموضوع قوله :

.. بل النصر في السعي والاتحاد ... لنيل المنى ودوام النظر
وصبر وحزم وعزم الى ال ... على ورضى بالقضا والقدر

ولا بد من لفت النظر الى أن تعامل الشعراء مع هذه المسألة لم يكن الغرض منه تنويم الناس ودعوتهم الى الاستسلام للظلم المسلط عليهم والاستكانة له ، انما كان هدف الشعراء من ذلك تقوية الجانب الايماني في نفوس مخاطبيهم ، وحملهم على التعامل مع واقعهم انطلاقاً من ثقتهم المطلقة في تأييد الله عز وجل ونصره لهم ؛ حتى لا يتطرق اليهم الوهن والضعف وهم يخوضون حرباً ضروساً غير متكافئة من حيث الوسائل المادية مع قوة تعد من أعتى القوى الاستعمارية في العصر الحديث نقول ذلك ، لأن من كان ايمانه بربه قوياً وثقته في عدله وفي وفائه بما قطعه على نفسه من وعود مكينة ، فانه لا يتوانى ولا يتخلف عن مقاومة الظلم والظالمين : لأنه على يقين مطلق من أن الخالق الكريم الذي لا يرضى عن الظلم ناصره لا محالة ، ومكافئه على جهاده لقطع دابر الفساد ، من ثم فانه في الوقت الذي رأينا فيه العيد وزكرياء يقرران أن القضاء والقدر حق يجب على المؤمن أن يسلّم به ويقبله . فاننا نراهما من ناحية أخرى يذهبان الى أن رفع السلاح في وجه الطغاة الظالمين حق ، لأن الله جلت قدرته قضى وحكم على فناء فرنسا وانتهاء جبروتها الى الأبد كما يقول مفدي :

نطق الرصاص فما يباح كلام ... وجرى القصاص فما يتاح ملام
وقضى الزمان فلا مردّ لحكمه ... وجرى القضاء وتمت الأحكام
وسعت فرنسا للقيامة وانطوى ... يوم النشور وجفت الأقلام

وهكذا فإن الدعوة الى الصبر والى الاعتقاد بالقضاء والقدر والتوكل على الله وحده كانت تأتي في الشعر الجزائري الحديث في مقاصدها الحقيقية ، ولم توظف لتبرير الاحتلال وتسويغ ظلمه وتعسفه فمثل قول محمد العيد :

أفوض أمري للذي غمر الورى بآلائه من كل رطب ويابس

عملا بقوله تعالى : « فستذكرون ما أقوله لكم وأفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد » (غافر : ٤٤) .

وقول زكرياء :

وارادة المستضعفين اذا دَعَوا ربَّاه أنفذها قرار الباري

وقول أحمد سحنون :

فصبراً لعل الله يجمع شملنا ويجعل بعد العسر من أمرنا يسرا

مستفيداً من قوله تبارك وتعالى : « فان مع العسر يُسراً ان مع العسر يسرا » (الانشراح : ٥ ـ ٦) وقوله : « فاصبر ان وعد الله حق .. » (الروم : ٦٠) وقول صالح خرفي :

يا جسم صبراً ما شقيت فهكذا شقيت جسوم الأنبياء قديما
اصبر على مرّ القضاء فانه حلوٌ اذا بقي الفؤاد سليما
واذا الورى لم يرحموك فلاتضق ذرعاً فربك لن يزال رحيما

مستلهماً في البيت الأول خاصة قوله عزّ وجل : «فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » (الأحقاف : ٣٥) .

هذه النماذج وغيرها كثير ، التي تمثل فيها الشعراء المعاني القرآنية في الحث على الصبر والتوكل على الله والايمان بقضائه وقدره ، لم توظف لحمل الناس على الانتظار السلبي غير المقرون بالعمل . ولم يلجأ الشعراء اليها لاقناعهم بوجوب الاستسلام للمستعمر وقبول ممارساته المتعسفة على أنه قضاء لا مفر منه ، بل كانت الغاية منها تقوية الضمائر وشحذ العزائم في مواجهة الغاصبين ، وتعليق الأمل في النصر الأكيد ودحر الطغاة بالمولى جلّ جلاله ، الذي رأينا فيما تقدم كيف كان الشعراء يؤكدون على قوته التي لا تضاهيها قوة مخلوقاته ، وكيف أنهم كانوا يذكّرون الشعب المظلوم دوماً بعدله وبنصره لعباده المؤمنين . ويمكن أن ندعّم فكرتنا هذه بأدلة من الشعر نفسه تبين بما لا يدع مجالا لأي شك أن المعاني الشعرية المستقاة من القرآن الكريم في الدعوة الى الصبر والتوكل والى الايمان بالقضاء والقدر . انما استخدمت لتوثيق الصلة بالله ، حتى تكون الانطلاقة في مواجهة الطغاة المعتدين ذات غاية أسمى وأشمل هي الاستجابة لارادة الله ، الذي قضى بنصر الحق ودحر الظلم ؛ فهذا الوعد يجعل المؤمن يشق طريقه نحو هذه الغاية دونما

تردد أو خوف مهما كان المسلك وعرا شائكاً ؛ لأنه واثق من انجاز الله وعده ، مصداقاً لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » (محمد : ٧) وفي هذا المساق يتنزل قول مفدي يتوعد المستعمر بحكم الله الذي سيقضي فيه للمسلمين على أعدائهم :

فلنا مع التاريخ وعد صادق فترقبوا حكم الزمان قليلا

الله يعلم صدقنا وخداعكم والله أجدر أن يكون وكيلا

وتتضح هذه الفكرة أكثر حين يقرن الشعراء هذه المعاني بالجهاد ودعوة المجاهدين الى الصبر والثبات مهما كانت المعارك ضارية شديدة ، لقطع دابر الاستعمار كما في قول أحمد سحنون :

لله صبرك في الكفاح فانه أمضى السلاح لقطع كل وريد

صبر به غدت الفتاة لبوءة والطفل ليث وغى وحلف بنود

فاستمسكي ـ ما عشت بالصبر الذي يجلو ظلامك في الليالي السود

من البين أن الشاعر لم يسق دعوته الى الصبر ليقنع الناس بقبول الذل والمهانة واحتمال عسف المتعسفين ، انما دعا اليه بحسبه قوة فاعلة وسلاحاً ناجعاً لاستئصال شأفة العدو · ولا بد من التذكير أن دعوة المسلمين الى الصبر في القرآن نفسه لم تأت لتسوغ لهم الاستكانة والخنوع ، فكثيراً ما جاءت في سياق حثهم على الثبات في الجهاد واحتمال شدته وانتظار نصر الله قال عز من قائل : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » (آل عمران : ١٤٢) ، وقال أيضاً : « وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » (آل عمران : ١٤٦) · وقال في سورة الأنفال : « الآن خفف الله عنكم، وعلم أن فيكم ضعفاً ، فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين » (الأنفال : ٦٦) ·

ومن هذا المنظور نفسه يرى محمد العيد آل خليفة أن التواصي بنصرة الحق والصبر فيه هو جهاد وتضامن ، قال :

تواصى بالحق والصبر فيه والتواصي تضامن وجهاد

ومن الحق بطبيعة الحال محاربة الظلم ومجاهدة الاستعمار ، وأحسب أن العيد في بيته هذا كان ينظر الى قوله تعالى في سورة (العصر) : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» (العصر : ٣) ·

ولعل في الدعوة الى الجهاد ـ بمفهومه القرآني ـ التي احتلت مكاناً بارزاً في الشعر الجزائري الحديث ، ما يزيدنا يقيناً بأن الشعراء انما كان قصدهم من توظيف المعاني

التي تكلمنا عليها تعبئة النفوس ، لتستجيب لنداء الثورة التي كانت اسلامية في روحها ومنطلقاتها وأهدافها . وفي هذا المضمار نلاحظ أن معاني القرآن الداعية الى الجهاد تحتل حيزاً واسعاً في القصائد التي خاطب بها الشعراء الشعب ليهب للتضحية بالنفس والمال في سبيل الله وفي سبيل تحرير الوطن من سيطرة الاستعمار الفرنسي ، فكثيراً ما كان الاعتماد في هذا المجال على نفس المعاني التي رغّب بها المولى عزّ وجلّ عباده المؤمنين ، ليقدموا أنفسهم وأموالهم بسخاء في سبيله ، فالله سبحانه وتعالى يقول في محكم تنزيله : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهُم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون ، وعداً عليه حَقّاً في التوراة والانجيل والقرآن ومَن أوفَى بعهده من الله » (التوبة : ١١١) . وقال في سورة « النساء » : « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غيرُ أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلاً وعَد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما » (النساء: ٩٥) .

ان معاني هذه الآيات وغيرها(٩) التي جاءت لحثّ المؤمنين على بذل النفس والمال في سبيل الله شكلت المصدر الأول للشعراء في تحفيز الشعب الجزائري المسلم للاستجابة لنداء الجهاد ، ونعرض فيما يلي طائفة من النماذج نبرز من خلالها العلاقة الواضحة بين المعاني الجهادية في الآيات التي عرضناها وفي تلك التي أحلنا عليها وبين هذه المعاني في الشعر الجزائري الحديث . قال عمر بن قدور :

ألم تعلمي أن الاله قد اشترى   من المؤمنين النفس والمال في الحرب

وقال محمد العيد :

هلمّ نبع لله ما ابتاع منهم   ففي البيع أرباح لنا وغنائم

وقال في مناسبة أخرى :

البائعون نفوسهم لله في   سوق الجهاد بجنة الانعام

ان قارىء هذه الأبيات لا يحتاج الى جهد كبير ليدرك علاقة معانيها بالمعاني التي تضمنتها الآية الحادية عشرة بعد المائة من سورة التوبة ، والآية الخامسة والتسعون من سورة النساء مثلا ، بل ان محمد العيد ــ كما لاحظ الأستاذ بو حجام ــ يدقق النظر في آي الذكر الحكيم التي تحث على الجهاد بالمال والنفس فينتبه الى أن عدداً منها يقدم التضحية بالمال على التضحية بالنفس كما في قوله تعالى : « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » (الأنفال ٧٢) وكما هو الحال أيضاً في قوله : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله » (التوبة : ٢٠) ، وفي غير هذين الموضعين من القرآن الكريم(١٠) ، فاستغل ذلك في قصيدة له بعنوان : « بشرى للجزائر » فقال :

أيـن الذين يجاهـدون بمالهـم في نفـع أمتهـم ودفـع أذاهـا
المال قبل النفس واقـرأ ان تشا سور الكتـاب تجـده في آياتهـا

ومثلما نبه القرآن المسلمين الى ضرورة اعداد العدة للقتال ، وعدم استصغار العدو والاستهانة بامكاناته مع التزام الحيطة والحذر ووضع كل التوقعات في الحسبان قبل لقائه ، فان الشعراء كانوا هم الآخرون يُسدون مثل هذا النصح الى المجاهدين ، ادراكاً منهم أن الغفلة والتهاون وعدم تدبر الأمور قبل الاقبال عليها يعرضهم الى الوقوع في شرك العدو(١١) ، فالعيد يوصي المجاهدين بالاحتياط والحذر في القول والعمل حتى يحققوا الآمال المرتجاة ، وهي تفريج كرب الشعب الذي طالت عليه ليالي الاستعمار فيقول :

خذوا حذركم في القول والفعل وابسطوا لنـا منهمـا الأجـدى المفرّج للكـرب

فالشاعر استوحى في بيته هذا ما جاء في الذكر الحكيم في المواضع التي حذر فيها الله المؤمنين الغفلة حتى لايأخذهم العدو مفاقصة ، كما في قوله سبحانه وتعالى : « واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ،فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يُصلّوا فليصلوا معك · وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم. ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » (النساء : ١٠٢) ·

أما أبو الحسن فيستفيد في نصحه وتوجيهه مما اشتملت عليه الآية الستون من سورة الأنفال من معان في هذا الموضوع فيقول :

لهـم أعـدوا ما استطعتـم هكـذا أمـر الالـه بحجـة بلجـاء

وفي بيت آخر يضم الى المعنى الذي استقاه من الآية التي أشرنا اليها معنى ثانياً أخذه من قوله تعالى : « وأنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » (الحديد : ٢٥) فيقول :

وأعـدوا للغاصبيـن قواكـم واقرؤوا في الحديد بأساً شـديداً

وبالاضافة الى ترديد الشعراء هذه المعاني في حمل الناس على بذل النفس والمال في سبيل الله والوطن ، فانهم لنفس هذه الغاية استفادوا من المعاني القرآنية في تذكير المجاهدين بمنازلهم عند ربه ، وبما وعدهم به من حسن الثواب في دار الخلود ، قال صالح خبشاشة في هذه المعاني :

ثُـر لا تخـف شيئـاً فـان الله قـد وعـد المجـهـد رفعـة وعـلاء
يحيـا الذيـن يجاهـدون مكـرّميـ ـن وان فنـوا فلقـد فنـوا شـهـداء

ويذكـر أحمد سحنون المجاهد بالأجر العظيم الذي ينتظره ان وافتـه منيتـه وهو يقاتل في سبيل الله ، فيقول :

كيـف للمسلـم أن يخشـى الردى   وهـو يخشـى فوتـه أجـر شـهيد

وترددت هذه المعاني عند محمد العيد في أكثر من قصيدة كما في همزيته التي منها :

لا تخـل معشـراً قضـوا في سبيل اللـــه موتـى بـل هـم مـن الأحيـاء
انهـم عنـد ربهـم حـول رزق   منـه في نعمـة وفي سـرّاء
هكـذا أخبـر الالـه فصـدّق   نبـأ الله أصـدق الأنبـاء

أما في قصيدة دالية له فانه عاد الى هذه المعاني على النحو التالي :

ان الشـهيد مخلـد الذكـرى لـه   نصـب لدينـا في القلـوب مشـيد
حسـب الشهيد رضـى الالـه كرامة   ورضى الالـه هـو العـلا والسـؤدد
•• فحياتـه في النشـأتـين حياتـه   يحيـا ويـرزق وهـو ميـت ملحـد
وثوابـه عنـد الالـه مضـاعف   بشـرى ومغفـرة وعيش أرغـد

ان المعاني الواردة في هذه النماذج تكشف بنفسها عن مصدرها ، فجميعها مستلهمة من قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضلـه ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهـم ألا خـوف عليهم ولا هم يحزنون » (آل عمران ١٦٩ ــ ١٧٠) • ومن قوله عز وجل : « •• ومـن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يَغْلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » (النساء : ٧٤) • ومن قوله في سورة البقرة : « ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون» (البقرة : ١٥٤) •

وزيادة على ما ذكرنا تصادفنا معان أخرى وثيقة الصلة بالقرآن تطرق اليها الشعراء في مناسبات مختلفة سواء حـين توجهـوا الى الشعب يناشدونه أن يتوحد ويتضامن ويترك الفرقة والخلاف والتنازع وكل ما من شأنـه أن يذهب قوتـه ويضعف شوكتـه ويصـدع صفه(١٢) أم حين سعـوا الى تربيـة النفوس وتقويم المنحرف من سلوكها • أم في غير ذلك من المناسبات • ففي الدعوة الى وحدة الصف يقول محمد العيد :

أعيـذكـم بالله أن تتقسـمـوا   هـوى ، فذهاب الريح عقبى التقسم

ونفس هذا التوجيه يقدمه العيد للشعب الجزائري حين دبت في صفوفه الفتنـة غداة الاستقلال ، فكاد الناس أن يتفرقـوا شيعـاً فيريق بعضهم دماء بعض ، فقد قال يدعوهم

للاحتكام الى كتاب الله لحسم الخلاف وفض النزاع وقطع دابر الفتنة، التي أطلت برأسها لتمزق شعباً ضرب أروع الأمثلة في الوحدة والتماسك وتلاحم الصفوف بالأمس القريب :

ودع عنك أسباب التنازع واعتصم — بميثاق الثوري واشدد به أزرا

وحكّم كتاب الله في كل فتنة — فتحكيمه لا بد أن يطفىء الجمرا

وفي معنى قريب من هذا نرى مفدي زكريا ينصح هو الآخر الجزائريين أن يتركوا الانقسام وألا يفتحوا للتناحر بينهم باباً ،ويدعوهم الى أن يعود بعضهم الى بعض مستمداً توجيه هذا من القرآن أيضاً ، قال :

أصلحوا ذات بينكم واستقيموا — ان فعلتم سيجعل الله أمراً

من البين أن هذين الشاعرين وهما يسعيان الى اصلاح ذات البين وتجنب الشعب الفرقة والانقسام كانا يمتاحان من القرآن الكريم ، فمن النظرة الأولى فيما قالاه في هذا الموضوع يستطيع القارىء أن يحدد مصدر معانيها فيدرك أنها مستوحاة من مثل قوله تبارك وتعالى : « وأطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » (الأنفال : ٤٦) وقوله جل جلاله : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » (النساء : ٥٩) .

وقوله في سورة « الأنفال » : « .. وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين » (الأنفال : ١) .

وما دام الشعراء قد ربطوا انتصار المسلمين في الجزائر على أعدائهم بتقواهم وتضامنهم ووحدة صفوفهم وتجنبهم الخلافات والمنازعات ـ سواء قبل الاستقلال أم بعده ـ فقد كان من الطبيعي أن ينتبهوا ـ وهم الحفظة للقرآن الكريم ـ الى مبدأ مهم من المبادىء التي أقرها القرآن الكريم ودعا المسلمين الى التمسك به ، ضماناً للعدل والانصاف ، وتقوية الروابط بين الناس ، واتقاء للظلم والاستبداد بالرأي ، والتعسف في استعمال السلطة ، ذلكم هو مبدأ « المشورة » الذي عنونت به سورة كاملة من سور الذكر الحكيم هي سورة (الشورى) ، وقد قال فيها المولى سبحانه وتعالى يحث المؤمنين على الالتزام بهذا المبدأ في حياتهم : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » (الشورى:٣٨) ؛ ووكده مرة أخرى في سورة آل عمران فقال يخاطب رسوله الكريم صلوات الله عليه :« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » (آل عمران : ١٥٩) . وقد تمثل معاني هاتين الآيتين عدد من الشعراء منهم محمد العيد في رده شعراً على « روبير آشيل » الذي كتب مقالات تحامل فيها على الاسلام والمسلمين واتهم القرآن بأنه يدعو الى الحروب وسفك الدماء(١٣) فقال يذكره بحقيقة المؤمنين :

وأمرهم بينهم شورى ودينهم — فتح من الله لا قتل وتمثيل

وعاد العيد الى هذا المعنى في لفته نظر الجزائريين الى ما حققه جيرانهم من نجاح بفضل اعتمادهم على مبدأ الشورى ، فقال :

بنوا بيد الشورى مناهج سيرها وحاكوا قضاياها على خير منوال

ويمكن لمن يتابع الشعر الجزائري الحديث متابعة متأنية(١٤) أن يلاحظ أن استفادة الشعراء الجزائريين من المعاني القرآنية لم تقتصر على المجالات التي ذكرناها ، انما كانت دائرتها أوسع من ذلك بكثير . فلما كان الشاعر الجزائري في الحقبة الاستعمارية يشعر أن دوره الأول في المجتمع دور توجيهي تربوي ، فانه أولى عناية كبيرة للسلوك الذي ينبغي أن يتحلى به الفرد ، واستمد توجيهاته في هذا المضمار أيضاً من القرآن ، فكانت الصورة التي أراد أن يرفع اليها الانسان الجزائري هي صورة الانسان كما قررها كتاب الله ، وهذا ما نلمسه في مثل قول مفدي زكرياء :

.. وقصَّ لهم نبأ السابقين مع السلف الركَّع السجَّد
من الخالدين خلود الجبال مع الصالحات الى الابد
من الحافظين فروجهم من الحافظات على كمد
من الذاكرين ، من الذاكرات من الفئة الهجَّد العبَّد
من الصادقين اذا حدَّثوا وأهل الوفاء على الموعد
من الأمناء اذا أوتمنوا ذوي الصبر والحزم والجلد
من الذائدين حماة البلاد أسود الجلاد ذوي لبد
خفاف ثقال اذا استنجدوا ليوم ثقيل على أحد
هم الرحماء لذي رحمة صواعق هون على المعتد

فأنت اذا عدت الى ما أثبته الشاعر من أوصاف في هذه الأبيات وطمح أن يتحلى بها بنو وطنه ، وجدته قد استوحاها من آيات متفرقة من آي القرآن الكريم ، فالاكثار من الركوع والسجود ، والالتزام بالصالح من الأعمال ، وحفظ الفروج ، والمداومة على ذكر الله والوفاء بالعهود ، والصدق في القول، والحفاظ على الأمانة والصبر ، والذود عن حياض الاسلام ، والاستجابة لنداء الجهاد في سبيل الله ، والتراحم ... الخ وكلها صفات أكد عليها القرآن كثيراً . واذا كان المقام لا يسمح باستعراض جميع الآيات المتعلقة بها ، فحسبنا أن نشير الى بعضها كقوله عزَّ وجل : « ... والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدَّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً .. » (الأحزاب : ٣٥) وقوله : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركَّعاً سجداً .. » (الفتح : ٢٩) .

وفي هذا الاطار المتعلق بتهذيب الأخلاق وتقويم السلوك ، لم يغفل الشعراء أيضاً عن التعرض لبعض الصفات السلبية التي تضر بالمسلمين فحذروهم منها وأبرزوا ما ابتلوا به من نقائص كانت السبب في ما أصابهم من هوان وضعف بعدما كانوا فيه من سؤدد وعزّ ـ كما يقول الأستاذ بو حجام ـ واجتزىء هنا بنموذج واحد لأحمد سحنون سجل فيه بعض هذه الصفات السلبية فقال :

ربِّ عن نهج دينك حدنا	حسبنا ذاك شقوة لا تزدنا
حسبنا أننا هدمنا بأيدي	نا علانا الذي بنينا وشدنا
وقطعنا أرحامنا فقعدنا	ونسينا آخاءنا فحسدنا
وعن الدين والحياء انحرفنا	وعن الصدق والوفاء ابتعدنا
وعلى الشرِّ والفساد تواددنا	وعن مهيع الرشاد صددنا

والآيات التي تشير الى هذه المظاهر السلبية في السلوك الانساني وتحذر منها كثيرة ، هذه بعضها ، قال تعالى : « فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون » (البقرة : ٥٩) وقال : « كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين» (المائدة:٦٤) وقال أيضاً : «فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم »(محمد : ٢٢) وقال في « الأعراف » : « قل انما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن » (الأعراف : ٣٣) ٠

وقد تعرض الشعراء أيضاً لمعاني الحياة والموت والجنة والنار ويوم القيامة ٠ وما اتصل بها ، كما وظفوا معاني أخرى تتصل بالملائكة والجن والشياطين ، وكانوا في كل ذلك ينهلون من القرآن ، قال ابن رحمون يزهّد في زخرف الدنيا ومتاعها :

زخرف الأرض ان تأملته ألـ	ـفيته كالسَّراب أو كالخيال
ما عليها من زينة ومتاع	وثراء مصيره للزوال
كل من فوقها سيفنى ويبقى	وجه ربِّي سبحانه ذو الجلال

وينصح محمد العيد للانسان ألا يطمئن الى الدنيا الفانية ولا يغتر ببهرجها فيقول :

أيها المطمئن فيها اغتراراً	بالأماني متى ملكت الحياة ؟
انها ساعة تمرّ كأن لم	تغن فيها عشيةً أو غداة
كم غنيٍّ بالفقر فوجىء يوماً	ومعافى اذا به قد مات

ان معاني ابن رحمون والعيد في هذين النموذجين مستوحاة من الآيات التي تذكر الانسان بفناء الدنيا وما عليها من أشياء وأحياء ، حتى لا تغريه متعها وملذاتها فيذهب به الظن الى الاعتقاد في الخلود والاقامة الدائمة فيها كما في قوله تعالى : «وما هذه الحياة

الدنيا الا لهو ولعب ٠ وأن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ـ العنكبوت/٦٤» ، وكما في قوله : « يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وأنّ الآخرة هي دار القرار » (غافر : ٣٩) وفي قوله أيضاً : « كل من عليها فان ويبقى وجه ربِّك ذو الجلال والاكرام » (الرحمن : ٢٦ ـ ٢٧) وفي التذكير بيوم الحساب وهوله يقول أحمد سحنون :

وستلقى جزاء صنعك في يو م عظيم فيه الجوارح تشهد

اشارة الى قوله تعالى : « حتى اذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » (فصلت : ٢٠) ٠

ويذكِّر « العيد » الانسان المؤمن الذي كان ديدنه في الدنيا عبادة الله وتقواه ، ببعض ما ينتظره من نـعِمٍ في الجنة فيقول :

ستسقاها مشعشعة وصرفا مداماً لذة لا كالمدام
فليس تضر شاربها بغول وليس تجرّ شاربها لذام
يطاف عليك من وقت لوقت بها بين احتفاء واحتشام
يشعُّ بكل ابريق سناها ويعبق طيبها من كل جام
وبين يديك خيرات حسان قصرن عليك في أبهى الخيام

ان المعاني التي تضمنتها هذه الأبيات تمثل فيها الشاعر قوله سبحانه وتعالى : « في جنات النعيم ، على سرر متقابلين ، يطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين ، لا فيها غول ولا عنها ينزفون ، وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهنّ بَيْضٌ مكنون » (الصافات : ٤٣ ـ ٤٩) ٠

ويبشِّر ابن رحمون أستاذه ابن باديس ، الذي لبى نداء ربه ، بما ينتظره في دار الخلود ، من محبة الله عزّ وجل ، ومن ثواب ونعيم موفورين ، جزاء لعمله بما أمر به ربه وجزاء ما قدمه من عمل صالح في دنياه :

ناداك ربك فاستجبت له كما من قبل كنت تجيبه ان نادى
فنزلت في دار الخلود مبجلاً فيها فنلت البر والاسعاد
روح ترفرف في الجنان زكية كملائك مع حورها تتهادى
رُزقت من الفردوس كل رغيبة ومن الاله محبةً ووداداً

والآيات القرآنية التي تحدثت عن النعيم المقيم الذي وعد به الخالق الكريم عباده المتقين في دار القرار كثيرة ، ومنها استقى ابن رحمون معاني أبياته ، وهذه بعض منها نقدمها على سبيل التمثيل ، ليتضح المصدر الذي كان يمتاح منه الشاعر وهو ينظم مرثيته ، قال تبارك وتعالى : « ان الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون ، تعرف

في وجوههم نضرة النعيم ، يُسقون من رحيق مختوم ختامه مسك" ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، ومزاجه من تسنيم ، عيناً يشرب بهـ المقربون » (المطففين : ٢٢ ـ ٢٨) ٠ وقال جل من قائل : « مَثَلُ الجنة التي وعِدَ المتقون ، تجري من تحتها الأنهار ، أكُلُها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار » (الرعد : ٣٥) ٠ وقال كذلك : « ان المتقين في مقام أمين ، في جنات وعيون، يلبسون من سندس واستبرق متقابلين، كذلك وزوجناهم بحور عين ، يَدْعون فيها بكل فاكهة آمنين ، لا يذوقون فيها الموت ، الا الموتة الأولى ، ووقاهم عذاب الجحيم ٠ فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم » ٠ (الدخان : ٥١ ـ ٥٧) ٠

أما معاني النار والجحيم ، فان الشعراء وان لم يتحدثوا عنها حديثاً مباشراً ـ في حدود علمنا ـ فانهم حين تحدثوا عن الوضع الحالك الذي كانت تعيشه بلادهم الجزائر خاصة ، استخدموا معاني وألفاظاً أخذوها من السور القرآنية(١٥) التي صور فيها المولى تعالى ما ينتظر أهل النار من عذاب أليم ٠ فمفدي زكرياء يميط اللثام عما كان يمارسه المستعمر من أشكال الظلم والقهر والاضطهاد على الشعب الضعيف فيقول :

وطعام طهاه للشعب زقّـ ـوما وذا غصة وداء وبيلا

ويعتمد محمد اللقاني السائح على ألفاظ ومعان قريبة من تلك التي نراها في بيت مفدي ، لتصوير شدة أحوال الجزائريين ودقتها ، وقساوة حياتهم ومرارتها بسبب تسلط المستعمر وجبروته ، فيقول :

حياتنا قط لا يرضى بها أحد وعيشنا صار زقوماً وغسلينا

ويحوّم الطّيب العقبي حول نفس المعاني والألفاظ ، وهو يعبر عن ضجر الشعب وضيقه ، وعن آلامه المادية والمعنوية الشديدة في هذه الحقبة المظلمة من تاريخ الجزائر في العصر الحديث فيقول :

غاض العدى مجدنا قِدماً وقد عملوا لنيل ما زرع الآباء تلقينا
حتى سقونا حميماً لا مساغ له وجرّعوا الكُلَّ زقوماً وغسلينا

فأنت اذا عدت الى هذه النماذج وأخرى غيرها في نفس الغرض ، لاحظت العلاقة الحميمة بين معجم الشعراء اللفظي والمعنوي وبين المعجم القرآني في المواضع التي أبان فيها رب العزة سوء منقلب أهل النار ، قال تعالى:« ان شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمُهل يَغْلي في البطون كغلي الحميم » (الدخان :٤٣ ـ ٤٦) ، وقال أيضاً : « فليس له اليوم ها هنا حميم ، ولا طعامٌ الا من غسلين »(الحاقة ٣٥ ـ ٣٦) ٠ وقال في موضع ثالث: « ان لدينا أنكالا وجحيماً ، وطعاماً ذا غُصةٍ وعذاباً أليما » (المزمل : ١٣) ٠

فالكلمات : (زقّوم) ، (غُصة) ،(طعام) ، (غسلين) ، الواردة في هذه الآيات استخدمها الشعراء كما هو واضح من الأبيات التي عرضناها ، بنفس الدلالات التي جاءت في القرآن الكريم ٠

وحين وظف الشعراء اسم : (الملائكة) في أشعارهم فانهم لم يخرجوا به عن المجالات الدلالية التي استخدم فيها القرآن أيضاً ، فقدجاء عندهم ـ مثلما هو الحال في كتاب الله ـ رمزاً للصفاء والطهر والابتعاد عن الرذيلة وعن مفاسد الدنيا وصغائرها وآثامها ، فمحمد العيد مثلا في مدحه شيوخ الجزائر الحامين حقيقة الوطن ، يشبههم في طيبتهم بالملائكة فيقول :

بوركت من وطن تسامى فالتقى ... بالمنتهى في مستواه الأرفع

يحميه شِيبٌ كالملائك طيبة ... وشبيبة مثل النجوم اللمّع

أما أحمد سحنون فتمثل غزوة بدر ، التي أمد فيها الله المسلمين بملائكة قاتلوا الى صفوفهم ، فحققوا على الكفار نصراً ما كانوا يتوقعونه لقلة عددهم وعدتهم يومئذ ، فقال متضرعاً الى ربه أن يؤازر بملائكة المسلمين في فلسطين كما صنع في بدر :

رباه كن عونا لنا وكن لنا مؤيدا

ابعث لنا ملائكا كيوم (بدر) مَدَدا

واجعل جيوش الظالمين المعتدين بددا

وفي أبيات أخرى يستعيد سحنون أحداث هذه الغزوة المباركة ويبرز دور الملائكة في النصر الذي عُقد لواؤه للمسلمين في هذه الغزوة فيقول :

يا غزوة جبريل من جندها ... يبث روح الخوف والذعر

يسير في جيش عظيم من ... ملائك أهل البر والطهر

وقد امتطوا خيلاً على أهبة ... لسحق أهل الزيغ والكفر

كي يطمئن المؤمنون الى ... أنَّ لهم عاقبة الأمر

وفي هذا المجال لقي (جبريل) عليه السلام اهتماماً واسعاً من الشعراء ـ كما لاحظ « بو حجام » ، وقد منحوا له في قصائدهم نفس المهام التي منحت له في القرآن ؛ اذ ظل عندهم عنواناً ، « على السلام المبلغ الأمين الذي يبلغ الرسالة » ، فقد اختاره مفدي زكرياء مثلا ليكون المبشر بنصر أبناء الريف المغاربة فقال :

أجبريل هلل بآي الظفر ... وكبر وخط جليل الخبر

ورف بأجنحة النصر فوق ... (بني الريف) حول القنا المشتجر

وقد لا يحتاج المرء الى التذكير بأن « العيد » و « زكرياء » و « سحنون » وهم يتعاملون مع هذه الرموز ظلوا مرتبطين بدلالاتها القرآنية ، فالمولى عز وجل يقول في نصرة المسلمين ببدر : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ، اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يُمِدَّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى ان

تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يُمددكم ربُّكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسومين» (آل عمران ١٢٣ ـ ١٢٥) ، وفي قيام جبريل عليه السلام بتبليغ الرسالة الى الرسول ﷺ يقول جل جلاله : « قل نزلـه روح القُدُس من ربك بالحق ليُثبت الذين آمنـوا وهدىً وبشرى للمسلمين » (النحل : ١٠٢) . وقال في سـورة الشعـراء : « وانه لتنزيـلُ ربِّ العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبـك لتكون من المنذرين ، بلسانٍ عربيٍ مبـين » (الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٥) .

وسلك الشعراء نفس هذا المسلك في أغلـب قصائدهـم حـين تعاملوا مـع لفظة (الشيطان) ؛ فقد احتفظوا لها بالدلالات التي وردت فيها في القرآن الكريم ، فظل اسم (الشيطان) وما اتصل به رمزاً للشـر بكل ألوانه وأشكاله ، فاحمد سحنـون يشـير الى مساعي الشيطان لاغواء الناس وايقاعهم في شَـرَكه ، وكيف أن مساعيه هذه ذهبت هبـاءً فيقول :

يا رسـول الله صرنـا قــوة لا تبـالـي أيَّ جبـار عنيد
عجـز الشيطـان عـن إغوائنـا مـذ قهرنـا كـلَّ شيطـان مريد

وقد تكرر اسم (الشيطان) بهذا المعنى في طائفة من النماذج ، كمـا في قـول مفدي زكرياء يهجو أنصار الشعر الحرّ :

اذا كـان للشيطان فضـلٌ عليهم فشِعري وحيٌ لا وساوس شيطان

واذا قابلنا المعاني التي تؤديها هـذه اللفظة في الأبيات التي وردت فيها بمعانيها في القرآن الكريم تبين لنا كيف أن الشعراء لـم يخرجوا بها الى دلالات أخرى غير التي أفادوها من مصدرها الأصلي ، والأمثلة في هذا المساق كثيرة نكتفي منها بقولـه تعالى : « فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخُلد ومُلكٍ لا يبلى ، فأكلا منها ، فبـدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنـة ، وعصـى آدم ربـه فغـوى » (طه : ١٢١) .

وبعد ، اذا كان قصدنا في هذه الصفحات هو ابراز حجم حضور المعاني القرآنية في الشعر الجزائري الحديث ، ومدى ارتبـاط هذا الشعر بمحفـوظ الشعراء من القـرآن الكريـم ، الذي كان يمثـل العمود الفقري لثقافة شعراء الحركة الاصلاحية في الجزائر ، فان ما لا بد من الاعتراف به هو أن التوفيق لم يحالف الشـعراء دائمـاً في صياغـة هـذه المعاني ، لذلك ترى الواحد منهم أحياناً يردد المعنى الذي استوحـاه من هذا النبـع بنفس الألفـاظ التي وردت فيهـا في القـرآن ، أو يحتفظ بجل ألفاظ العبارة القرآنية في بيته ، ويمكنك أن تعود الى النماذج التي استشهدنا بها لتتأكد من هـذه الظاهرة ، لذلك تحـول الشاعر في بعض الأحايين الى مجرد ناظم لمـا تُمدّه به ذاكرته من معان ، فلا تكـاد تحس بقدراته الابداعيـة التي تلمسها في أشـعار أخرى له . ومرجع ذلك أن الشعراء تعاملوا مع المعنى القرآني في بعض أشعارهم بحسبه بضاعة جاهـزة دون أن يتمثلوه تمثلا كامـلا

ليصبح عنصراً عضوياً في التجربة المعبر عنهـا بعد أن ينصهر مع بقية العناصر المكوّنة لها ، من ثم جاءت المعاني القرآنيـة في عدد مـن النماذج التي أثبتناها باردة لا تكاد تحـرك فيـك شعوراً ، واذا عـدت اليها في مواطنهـا الأصلية في القرآن الكريم وجدت نفسـك في جوّ آخر غير الجو الذي كنت فيه بما تُثيرُهُ فيك من احساسات وتنبهه لديك من مشاعـر وأفكار . فهل لطبيعة الدور التوجيهي التربوي الذي انتدب الشعراء أنفسهـم له في المجتمـع الجزائري أثر في هذا التوظيف المباشر للمعنى القرآني ؟ وهل لمفهوم الشعر عنـد الشعراء الاصلاحيين تأثير ما على هـذه الطريقـة في التعامل مع ما أمدهم به هذا المصدر الثر من مادة وافرة في معالجة القضايا التي كانت تلح عليهم ؟ وأخيراً هل رأى الشعراء أن سـلوك مسلك آخـر في استخدام المعـاني القرآنيـة لا يكون له التأثـير الكبير عـلى جمهورهـم ففضلوا عرضها عرضاً مباشراً عليه ؟

★ ★ ★

الهـوامش :

١ ـ الشعر الجزائري الحديث تأليف د. محمد ناصر ص ٢٥ ـ ٢٦ .

٢ ـ الشهاب ج : ٩ م : ١٠ سنة ١٩٣٤ ص : ٣٩٠ وانظر المرجع السابق ص : ٢٣ .

٣ ـ الشهاب ج : ١ م : ٥ فيفري ١٩٣٠ وراجع الشعر الجزائري د. ناصر ص : ٢٩ .

٤ ـ الشهاب العدد الخاص بالتفسير ص : ١٦٧ .

٥ ـ راجع أبو اليقظان وجهاد الكلمة د. محمد ناصر ص١٨٧ والشعر الجزائر الحديث ، ص : ٤٣ ـ ٤٤ .

٦ ـ في هذا الموضوع ، راجع شعراء الجزائر في العصـر الحاضر لمحمد الهادي السنوسي الزاهري١٠/٢ ، ١٥/٢ـ١٦ .

٧ ـ راجع أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث رسـالة ماجستير مخطوطة بجامعة الجزائر تقديم أ/محمد ناصر بوحجام ص : ٣٨ وسنعتمد على كثـير من النمـاذج الواردة في هذا البحث .

٨ ـ راجع مثلا : التغابن : ٦٤ ، الواقعة : ٦٠ ، الأنعام : ١٧ ، يونس : ١٠٧ ، الحج : ٣٥ ، الزمر : ٣٨ ، المجادلة : ١٠ ، البقرة : ١٠٢ ، الاسراء : ٦٧ .

٩ ـ راجع مثلا : الأنفال : ٧٢ ، التوبة : ٢٠ ، ٤٤ ، ٨١ ، الحجرات : ١٥ .

١٠ ـ راجع مثلا : التوبة : ٤٤ ، ٨١ .

١١ ـ أثر القرآن في الشعر الجزائري ص : ٦١ .

١٢ ـ فصل هذه المسائل الأستاذ بوحجام في بحثه المتقدم ص : ٦٣ وما بعدها .

١٣ ـ راجع بو حجام المرجع السابق ص : ٦٥ وهامش : ٢ من نفس الصفحة .

١٤ ـ كما فعل بو حجام في بحثه المشار اليه .

١٥ ـ اعتمدنا هنا على كثير من النماذج التي أوردها الأستاذ بو حجام في بحثه : «أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث» .

مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية

د. حسين جمعة

مشـهد الحيوان في القصيـدة الجاهلية يحمل الصنعة الجاهليـة بفطرة هادئـة تقابل الواقع بداهة دون أن يجعل الشاعر لذلك تفسيراً الا ما توحيه مشاهدة الطبيعة الحية ، ولهذا آثر التحدث عن ذلك بصـور شعرية دون الولوج في بيـان قيمتهـا الدلاليـة ، ولكن بعض الشعراء ركب أجزاء صورتـه الشعرية على نحو غريب ربما كان أقـرب الى الخرافة وان كانت أجزاؤها تلك مستمدة من واقع القوم كالغول (١) والعنقـاء(٢) ٠

ومن هنا يتميز مشهد الحيوان من شاعر الى آخر باختلاف تجارب الشعراء ومواقفهم النفسية والفكرية ٠ وهـذا كله أضـاف الى مشاهد الحيوان ملامح جديدة فوق ما هي عليه في الأصل القائم على حيـاة البداوة ٠ وتبقى الطبيعة الحية مـادة أصيلة في حياة العـرب وقيمهم على اختـلاف مواضعهم ، وهـي في الوقت نفسه نسيج في عاداتهم ومعتقداتهم ٠

ومن أراد استيضاح ما تقدم كان لا بد له من أن يتخيـل صفـات الحيوان قبـل أن يستنطق القصيدة الجاهلية ذاتها ، وما يقال في هذه يقال في تلك ، **فمشاهد الحيوان تضع المـرء أمـام أسّ أولي للضمير الانسـاني** ، وتجاه أخلاق فُطر عليها أصحابها ٠ وهي طبع أصّله الذوق السليم وحياتهم الساذجة الخالية من كل غش وتعقيد ٠

وذلك كله يقـود الى التعلق بأهـداب مشهد الحيوان وأفانين التصوير فيه ، وكلهـا قادرة على الايحاء بكل ما تأملته عيون الشعراء ، ووعته عقولهم ، وأبدعته قريحتهم ٠ فمشهد الحيوان أسلوب تعبيري يحاكي الواقـع ومفاهيم أبنائه في شكل ينبض بالحيـاة ، وبشعور رقيق وفطري ٠ وبالتالي فهو يؤصل كثيراً من العـادات والمعتقـدات التي جـرى عليهـا الجاهليون ، ودلالاتهـا لا تتضح بغيـر صورة الحيوان ، ولا أدل على هذا من اختيار صورة

الأفعى الرقطاء والدقيقة الحجم التي تساورأحدهم بسمها القاتل حتى يبقى ليله مسهّداً وقد وضعت خلا في يديه لئلا يغفو فيسري السم في جسده • وعلى الرغم من أنهم اختاروا لفظ السليم لذلك الملدوغ تيمناً بسلامته الاأن الرقاة الذين تعاوروا عليها وعليه واحداً بعد آخر لم يستطيعوا فعل شيء ، وأخذ كل واحد ينذر الآخر بشدة نكارتها ، كما يفسره قول النابغة(٣) :

فبت كأني ساورتني ضئيلة	من الرقش في أنيابها السم ناقع
يُسَهّد من ليل التمام سليمها	لحلي النساء في يديه قعاقع
تناذرها الراقون من سوء سمها	تطلّقه طوراً وطوراً تراجع

فحالة النابغة الذبياني وقد تزاحمت عليه الهموم وداخلته المخاوف من تهديد النعمان له ما كانت لتبرز في هذا الشكل المؤثر لولا صورة الأفعى الرقشاء ، فقد بات كالملدوغ الذي يعاني الآلام في أطول ليالي الشتاء •

وهذا يؤكد أن مشهد الحيوان صدى للواقع وحالة شعورية ونفسية ، وصورة من مرحلة تاريخية لا يمكن اغفال معطياته • ومن هنا لم يكن مشهد الحيوان مسخراً لهدف انساني فحسب ، وانما كان من الأسباب التي تؤلف بين أجزاء القصيدة منهجاً وفكراً • فأي مشهد من مشاهد الحيوان كان مفعماً بالأشكال الفنية التي أرست قيماً لا تحصى ، وقد يعود هذا الى تشابه المصادر في حياة البداوة • وكانت هذه الأشكال تمثل نضجاً فكرياً مثلما تبرز تقدماً فنياً تسجل لأبناء العصر الجاهلي وهم ينتقلون من الملموس الى المجرد غالباً ، ولا سيما حين جعلوا صورة الحيوان وسيلتهم الى ذلك • فتداخلت العزة والاباء والشجاعة والجرأة والغدر والخيانة والروغان والختل ••••• الخ بصور من حيوانات باديتهم • فغضبة الجاهلي لا تكون الا بعد صبر وتدبر ، وهي ليست منفصلة عما يراه في الطبيعة • ولهذا اتخذت صورة الليث مثلا للقدرة والسطوة والشجاعة(٤) لأنه يأنف من التبعية للآخرين ، ويترفع عن مهاجمة فريسته غدراً ، على حين أنه كره طباع الذئب ، وانتقل هذا المفهوم الى صورة من يشبهه في سلوكه ، فالذئب اقترن بالظلم والغدر والفجور(٥) ولم يمنعه حذره ولا كنيته الحسنة (أبو جعدة)(٦) من ذلك ، بينما بقي الثعلب مثلا للروغان والختل(٧) •

وأياً ما تكن المشاهد فهي تدل دلالة قاطعة على الاتصال الفريد للجاهلي بواقعه ومعطياته ، وبهذا أخلصت لزمانها وكانت قادرة على كشف أبعاده • فصورة القطا مثلا ارتبطت بالفلاة أو المفاوز ولهذا غدا القطا مرشداً ودليلا الى موارد الماء فيها ، ورمزاً للتفاؤل حين تنقطع السبل بمن ضل في القفار بعد أن ساورته المخاوف ، وأيقن بالتهلكة • وبهذا يمثل القطا روح التمسك بالحياة في قلب البادية الرعناء ، ومن أمثلة ذلك قول النابغة الذبياني(٨) :

تدعو القطا بقصير الخطم ليس له	أمام منخرها ريش ولا زغب

حذاء مدبرة سكّاء مقبلة | للماء في النحر منها نوطة عجب
تدعو القطا وبه تدعى اذا انتسبت | يا صدقها حين تلقاها فتنتسب

ولا تستطيع كلمات قليلة أن تحيط بمشاهد الحيوان كلها على تعدد الابداع فيها ، فمشهد الذباب عند عنترة يظل فريداً في بابه حتى صار من التشبيهات العقم(٩) ، وراحلة الشعراء التي كانت صورة من واقعهم مثّلت وحدة فنية واتساقاً لموضوعاتهم التي عالجوها في قصائدهم(١٠) • ولم يكن مشهد الخيل المشبع بالنضج الفني والفكري بأقل من ذلك ، وهو ما نخصه بالذكر في الصفحات القادمة • ففي هذا المشهد كان كثير من الشعراء معلمة في الحذو حينما تحدثوا عن الخيل فامرؤ القيس الذي حذا حذو أستاذه أبي دؤاد وفاقه يقف على رأس من تعقب صفات الخيل(١١) وكأنه نسيج وحده • ولعل قيم الفروسية التي أرساها هو وأضرابه تبقى على مر الزمن دلالة على حب العرب للخيل وفخرهم باقتنائها حتى غدت لديهم مظهر عزة وفخار ، بل هي مظهر مروءة وأصالة • ولهذا اشتبكت صورتها بملامح انسانية راقية مثلما تداخلت هيئتها بصورة الخيمة العربية التي يحتمي بها العربي ، ومن أمثلة ذلك قول طفيل الغنوي(١٢) :

وبيت تهب الريح في حجراته | بأرض فضاء بابه لم يحجّب
سماوته أسمال برد محبر | وصهوته من أتحميٍّ معصّب
وأطنابه أرسان جرد كأنها | صدور القنا من بادىء ومعقب

وهذا المشهد واحد من جملة(١٣) مشاهد تنبىء بالمعطيات الاجتماعية والفكرية وتغدو شكلا نابضاً بالصلابة والوقار فوق ما تضطلع به من أصول فنية • فالخيل أشبه بمثال جمالي وفني ، ولهذا لم يتوان طفيل لحظة واحدة في اختيار ما أدى الى التطابق الذاتي بين رغباته وواقعه ، وما تعارف المجتمع عليه • فالموقف النفسي والفكري عند طفيل حدد صورة المنفعة من الخيل في الوقت الذي ظهرت فيه صورة للكرامة وهي تحمي أهلها • وهذا يجعل الخيل صورة للمتعة والزينة(١٤) فوقما تحمله من شدة المبالغة في الحفاظ عليها لأنها صورة للعزة • فالجاهلي فضل فرسه على نفسه وعياله لأنه حصنه اذا عزّت الحصون ، وقرينه اذا جدت الخيل ودلفت الى المعارك ، ولا نظير له بين أترابه • وفي هذا الباب تكفي اشارة واحدة الى مشهد الخيل في شعر حاجب الأسدي ، لينهض دليلا على ما تقدم • فزوج حاجب تدفعه لبيع فرسه ثادق وتغريه بارتفاع أثمان الخيل ، ولكن فرسه وحده قادر على اغاثتهم من ضائقة السنوات العجاف • ولذلك يحرص حاجب على انكار ما يسمع ويصر على التمسك بفرسه فيخاطبها قائلا(١٥) :

باتت تلوم على ثادق | ليُشرى فقد جدّ عصيانها
ألا إن نجواك في ثادق | سواءٌ عليّ واعلانها
وقالت : أغثنا به إنني | أرى الخيل قد ثاب أثمانها

فقلت : ألم تعلمي أنه كريم المكبَّةِ مِيدانها
تراه على الخيل ذا جرأة اذا ما تقطع أقرانها
وقلت : ألم تعلمي أنه جميل الطلالةِ حُسانها

فهذا الحوار الطريف حول سياسة المال بين الأزواج ، وعظم المأساة التي تحملها قسوة السنوات لا يتضح الا من خلال مشهد الخيل • فحاجب صم أذنيه عن رغبة زوجه على شدة حاجتها للطعام ، وطفق يعلل لها تمسكه بشادق ، فهو كريم في المعارك ؛ جميل الطلعة يعجب الناظرين ، وهو يفوق عتاق الخيل • فالحاجب الأسدي يجيبها اجابة الحكيم حين تغافلت عن قيمته عنده ، وعما يمثله له • وليس هناك أنكى من أن يتخلى الجاهلي عن فرسه مهما تعوزه الحاجة وتشتد به الفاقة •

وهذا التلوين الفني الذي يطفح بأخيلة مثيرة ذات معطيات انسانية يماثل ما توحيه مشاهد الحيوان الأخرى في القصيدة الجاهلية •

فمشاهد الطبيعة الحية كالحمر(١٦) الوحشية والبقر الوحشي وغيرها أخلصت فنها لمعطيات عصرها وفق أسلوب آسر من جزالة العبارة ، وشيوع القوالب البدوية التي ظلت الشاهد على اختلاف أنواع الطبيعة الحية ، وقدرة الشعراء على انتزاع الصور منها • فحسن الصنيع يفضح قبح التصنيع مهما تجنح المشاهد الى التعقيد اللفظي أو التضمين(١٧)•

وهذا يثير في مشهد الحيوان مسألة من نوع آخر ، ويضعه في صميم مشكلة ملخصها أن البادية خلعت ثوب الخشونة والغرابة على أغلب مشاهد الحيوان ، فألفاظها(١٨) غريبة الوقع على الأسماع ، وغامضة غير مُحصَّلة ، وهي تكره المرء على الاستعانة أبداً بالمعجمات •

واذا كان المرء يحس بطغيان ذلك في مشاهد دون أخرى كمشاهد الناقة مثلا فانه يرى في البعد الزماني ، وقلة الدراية بما كان يهتم به الجاهليون سبباً لما وقع في هذه المسألة • فالجاهليون عاينوا الحيوان الأليف والوحشي، وتفهموا ما أظهرته حياة البراري وضواريها ونقلوا ذلك بصدق وأمانة ، فكانوا أكثر اخلاصاً لواقعهم وحياتهم ممن يتغافل عن واقعه • وغرابة الألفاظ ما كانت(١٩) لتستغلق على ذوي الأفهام لأن مشهد الحيوان يفيد كثيراً من المبادىء الفنية التي قامت عليها القصيدة الجاهلية عامة ، وتركزت فيه خاصة • ولعل أشهر تلك المبادىء مبدأ العناية بالجزئيات ، واستعمال المثل والتكرار وتداخل الأنواع الفنية • وقد اتكأ مشهد الحيوان على ذلك مستفيداً من صفة الاستطراد والايغال في المقارنات •

وبهذا كله اتخذت مشاهد الحيوان سبيلها الى كشف معطياتها مهما يكن غموض الألفاظ في بعضها ، وكان ذلك قادراً على الوصول الى ما استكنَّه الشاعر من حقائق ومعان •

هكذا يظهر مشهد الحيوان فناً تعبيرياً غنياً بالتلوين والتنوع ، ومادة من حياة التبدي التي قامت على ظاهـرة الارتحـال وطلب النجعة ، وهي تتشبع بقيـم أصيلـة لا ينفك الجاهلي من اسارها ، اذ آمن بها وتعارف معذويه وأقربائه عليها ٠

☐ الحواشـي :

١ ـ انظر مثلا : تابط شراً ، ديوان تابط شرا (بيروت ـ دار الغرب الاسلامي ـ جمع وتحقيق علي ذو الفقار شاكر) ص ١٦٤ ـ ١٦٦ و ٢٢٤ ـ ٢٢٧ ٠

٢ ـ انظر ابن منظور : لسان العرب (بيروت ـ دار صادر) مادة (عنق) ج ١٠ ـ ص ٢٧٦ ٠

٣ ـ النابغة : ديوان النابغة الذبياني (القاهرة ـ دار المعارف ـ تحقيق أبو الفضل ابراهيم) ص ٣٣ ـ ٣٤ ٠

٤ ـ عبيد : ديوان عبيد بن الأبرص (بيروت ـ دار صادر ـ تحقيق كرم البستاني) ص ٨٠ و ٩٠ و ٤٩ ٠

٥ ـ أوس : ديوان أوس بن حجر (بيروت ـ دار صادر ـ تحقيق د٠ نجم) ص ٧٥ و ١١٥ ٠

٦ ـ المصدر الأسبق ص ١١ ٠

٧ ـ طرفة : ديوان طرفة بن العبد (دمشق ـ مطبوعات مجمع اللغة العربية ـ تحقيق درية الخطيب ـ ولطفي الصقال) ص ١١٨ ٠

٨ ـ النابغة : ديوان النابغة الذبياني ص ١٧٧ ٠

٩ ـ عنترة : ديوان عنترة (دمشـق ـ المكتب الاسلامي ـ تحقيق ـ مولوي) ص ١٩٧ ـ ١٩٨ ٠

١٠ ـ انظر الرافعي : تاريخ آداب العرب (بيروت ـ دار الكتاب العربي) ج ٣ ص ١٢١ ، والقيسي : وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية (العراق ـ الموصل ـ مطبعة مؤسسة دار الكتب بجامعة الموصل) ص ٢٩ ٠

١١ ـ امرؤ القيس : ديوان امرىء القيس (القاهرة ـ دار المعـارف ـ تحقيق أبو الفضـل ابراهيـم) انظر مثـلا : ص ١٩ ـ ٢١ و ٢٣ و ٣٦ و ٤٦ ـ ٤٩ و ٧٤ ـ ٧٦ ٠

١٢ ـ طفيل : ديوان طفيل الغنوي (بيروت ـ دار الكتاب الجديد ـ تحقيق عبد القادر احمد) ص ١٩ ٠

١٣ ـ المصدر الأسبق ص ٥٣ ٠

١٤ ـ سورة النحل ١٦ الآية ٨ ٠

١٥ ـ المفضل : المفضليات (القاهرة ـ دار المعارف ـ تحقيق شاكر وهارون) ص ٣٦٨ ق ١١٠ ٠

١٦ ـ انظر النويهي : الشعر الجاهلي (القاهرة ـ الدار القاهرة ـ الدار القومية للطباعة والنشر) ج ٢ ص ٤٨٤ ووهب رومية : الرحلة في القصيدة الجاهلية (دمشق ـ مطبوعات اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين) الطبعة الأولى ص ١٤١ ٠

١٧ ـ القرطاجني : منهاج البلغاء (بيروت ـ دار الغرب الاسـلامي ـ تحقيـق محمد الحبيب) ص ٢٧٦ والعسكـري : الصناعتين (بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ حققه د٠ مفيد قمحية) ص ٣٨ ٠

١٨ ـ انظر السيوطي : المزهر (القاهرة ـ طبع عيسي البابي الحلبي ـ تحقيق محمد أحمد جاد المولى ورفاقه ج ١ ، ص ٣٨٩ وبعد و ص ٣٩٧ ، وطه حسين : في الأدب الجاهلي (القاهرة ـ دار المعارف ـ ط ١٠) ص ٢٥ ، وشوقي ضيف: العصر الجاهلي ٠
(القاهرة ـ دار المعارف ـ ط ٢) ص ١٣١ ٠

١٩ ـ ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعـر (القاهرة ـ مكتبة نهضة مصـر ـ تحقيـق د٠ أحمد الحوفي وبدوي طبانة) ج ٣ ص ٢٠١ ٠

المصادر والمراجـع :

١ ـ ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (القاهرة ـ مكتبة نهضة مصر ـ تحقيق د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة) ١٩٥٩ ـ ١٩٦٢ م .

٢ ـ امرؤ القيس : ديوان امرىء القيس (القاهرة ـ دار المعارف بمصر ـ ط ٣ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م .

٣ ـ أوس بن حجر : ديوان أوس بن حجر (بيروت ـ دار صادر ـ تحقيق د. محمد يوسف نجم) ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .

٤ ـ تابط شراً : ديوان تابط شراً (بيروت ـ دار الغرب الاسلامي ـ جمع وتحقيق وشرح علي ذو الفقار شاكر) ط ١ ـ ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .

٥ ـ الرافعي ؛ مصطفى صادق : تاريخ آداب العرب (بيروت ـ دار الكتاب العربي ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م .

٦ ـ رومية ؛ د. وهب : الرحلة في القصيدة الجاهلية (دمشق ـ مطبوعات اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٧٥ م .

٧ ـ السيوطي ؛ عبدالرحمن جلال الدين : المزهر في علوم اللغة وأنواعها (القاهرة ـ طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ تحقيق محمد أحمد جاد المولى وشركاه) د/ت .

٨ ـ د. ضيف ؛ شوقي العصر الجاهلي (القاهرة ـ دار المعارف بمصر) ١٩٦٥ م .

٩ ـ طرفة : ديوان طرفة بن العبد (دمشق ـ مطبوعات مجمع اللغة العربية ـ تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال) ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م .

١٠ ـ طفيل الغنوي : ديوان طفيل الغنوي (بيروت ـ دار الكتاب الجديد ـ تحقيق د. عبد القادر أحمد) ١٩٦٨ م .
١١ ـ طه حسين : في الأدب الجاهلي (القاهرة ـ دار المعارف ـ ط ١٠) ١٩٦٩ م .

١٢ ـ عبيد بن الأبرص : ديوان عبيد بن الأبرص (بيروت ـ دار صادر ـ تحقيق كرم البستاني) د/ت .
١٣ ـ العسكري ؛ أبو هلال : كتاب الصناعتين (بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ تحقيق د. مفيد قميحة) ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م الطبعة الأولى .

١٤ ـ عنترة بن شداد : ديوان عنترة (دمشق ـ المكتب الاسلامي ـ تحقيق محمد سعيد مولوي) ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م .
١٥ ـ القرآن الكريم .
١٦ ـ القرطاجني ؛ أبو الحسن حازم : منهاج البلغاء وسراج الأدباء (بيروت ـ دار الغرب الاسلامي ـ تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة) ١٩٨١ م ط ٢ .

١٧ ـ القيسي ؛ نوري حمودي : وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية (العراق ـ الموصل ـ دار الكتب بجامعة الموصل) ١٩٧٤ م .
١٨ ـ المفضل الضبي : المفضليات (القاهرة ـ دار المعارف ـ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ١٩٧٦ م الطبعة الخامسة .
١٩ ـ ابن منظور : لسان العرب (بيروت ـ دار صادر) د/ت .
٢٠ ـ النابغة : ديوان النابغة الذبياني (القاهرة ـ دار المعارف بمصر ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ١٩٧٧ م.

٢١ ـ الدكتور النويهي ؛ محمد : الشعر الجاهلي ـ منهج في دراسته وتقويمه (القاهرة ـ الدار القومية للطباعة والنشر) د/ت .

من أعلام التراث :

ابن الأثير الجزري

(٥٥٥ - ٦٣٠ هـ) (١١٦٠ - ١٢٣٤ م)

عبداللطيف أرناؤوط

يحتل المؤرخ العربي الاسلامي عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير مكانة متميزة بين المؤرخين في تراثنا العربي الاسلامي مثلما يحظى كتابه : « الكامل في التاريخ » بثقة مطلقة اذ يعدّه عمدة المؤرخين القدامى والمحدثين مرجعاً هاماً لا يستغنى عنه ، قال فيه السخاوي في كتابه « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : » « قال شيخنا : انه أحسن التواريخ بالنسبة الى ايراد الوقائع موضحة بينة حتى كأنّ السامع في الغالب حاضرها من حسن التصرف وجودة الايراد » .

ونوه مترجم حياة ابن الأثير في دائرة المعارف الاسلامية بكتاب الكامل فقال : « وهو - أي ابن الأثير - صاحب الكتاب المشهور : « الكامل في التاريخ » الذي يستشهد به كثيراً في هذه الدائرة »(١) .

وابن الأثير مؤلف الكامل هو الابن الأوسط لأثير الدين الجزري وأحد ثلاثة أخوة نسبوا الى والدهم « أثير الدين » المتحدر من أسرة عربية الأصل تنتمي الى بني شيبان أحد بطون بكر بن وائل العربية ، وهي أسرة غنية كانت تمتلك عقارات واقطاعات ، وشغل أفرادها مناصب حكومية عالية ، وقد شغل والد ابن الأثير منصب رئيس ديوان « جزيرة ابن عمر » التابعة للموصل ونائب وزير الموصل فيها ، وجاراه في الالتحاق بالوظائف الحكومية ولداه : مجد الدين : وهو

(١) دائرة المعارف الاسلامية : الترجمة العربية - ص ٢٠٧ .

الأكبر ، وضياء الدين : وهو الأصغر أما مؤلف الكامل الولد الأوسط عز الدين فقد شغله عن الوظيفة انصرافه الى العلم تدريساً وتأليفاً .

وقد نبغ الأخوة الثلاثة في مجال العلم وكانت لهم مصنفات في مختلف أبوابه ، حظي بعضها بالشهرة الى يومنا هذا ، أما مجد الدين وهو الأكبر فلم تصرفه خدمته للأيوبيين عن التصنيف في الحديث والتفسير واللغة ، درس النحو على ابن الدهان في الموصل والحديث في بغداد ، وتولى خدمة الأمير « قيماز » الذي حكم البلاد قبل سيف الدين غازي ثم تولى ديوان الرسائل لمسعود بن مودود ونور الدين أرسلان شاه ، ثم عرض له مرض كف يديه ورجليه ، ويقول ابن خلكان : « انه صنف معظم كتبه ان لم يكن كلها وهو على هذه الحال » وله مصنفات منها: « كتاب الانصاف في تفسير القرآن » و « كتاب غريب الحديث » و « كتاب جامع الأصول في حديث الرسول » وغيرها ..

وأما الأخ الأصغر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله (٥٥٨ ــ ٦٣٧ هـ) فقد ولد في جزيرة ابن عمر وتوفي ببغداد ، وترجع شهرته الى أنه كان من أصحاب الأساليب، ويعد كتابه المشهور في البلاغة: « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » الذي طبع ببولاق ١٢٨٢ هـ من أهم المراجع في بابه ، ومن مصنفاته أيضاً : « الوشي المرقوم في حل المظلوم » و « المعاني المخترعة في صناعة الانشاء » .

ويعد الأخ الأوسط ــ موضوع بحثنا ــ أكثرهم شهرة ، ولد في الرابع من جمادى سنة ٥٥٥ هـ في جزيرة ابن عمر التابعة للموصل ، وانتقل الى الموصل مع أسرته حيث عمل فيها والده ، وهيأ له أبوه ولأخويه سبل التعليم، فألحقه في طفولته بأحد الكتاتيب في جزيرة ابن عمر فتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ، وفي الموصل اتصل بأسرها العلمية وتردد على مجالس العلم فيها فسمع من خطيبها أبي الفضل عبد الله بن أحمد الطورسي ، وأبي الفرج يحيى الثقفي ، ومسلم بن علي السّيجي ، وتردد على الشام أكثر من مرة زمن الأيوبيين فعقد صداقات مع علماء الشام ونال شهرة في الوسط العلمي فيها محدثاً ومؤرخاً ، تتلمذ على عدة أشياخ فسمع الحديث من أبي القاسم بن حصري ، وزين الأمناء ، وابن سويدة التكريتي وابن رواحة وابن كليب الحراني ، وكان يتردد على بغداد منتهزاً

فرصة الحج ، فسمع فيها من عبد المؤمن بن كليب ويعيش بن صدقة ، وعبد الوهاب بن سكينة ، وأبي أحمد عبدالوهاب ابن علي الصوفي ، ودرس على أشياخه الحساب واللغة والفقه وغيرها من العلوم ٠

برز ابن الأثير بنوعين من العلوم هما الحديث والتاريخ وتخصص فيهما ، لكنه اشتهر مؤرخاً أكثر من شهرته محدثاً، يقول ابن خلكان عنه كان«حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة ، وخبيراً بأنساب العرب وأيامهم وأخبارهم، عارفاً بالرجال وأنسابهم ولا سيما الصحابة » ٠

ولا تمدنا المصادر بالكثير عن حياته الخاصة ، وكل ما يعرف عنه أنه عاش منقطعاً الى العلم تحصيلا وتدريساً وتصنيفاً وربما اعتمد عليه صاحب الموصل في بعض الشؤون السياسية لدى أولي الأمر ببغداد ، وقد حج أكثر من مرة ، وسمح له غناه أن يعيش حياة ارستقراطية مما ساعده على التفرغ الكامل للعلم ، فهو يذكر أن والده كان يملك عدة بساتين بقرية العقيمة احدى قرى جزيرة ابن عمر ، وقرية أخرى جنوب الموصل يقال لها « قصر حرب » وانه جمع أكثر مادة كتابه « الكامل في التاريخ » في دار لهم بهذه القرية ٠

ويجمع من ترجم لابن الأثير على تحليه بالأخلاق الفاضلة ، اجتمع به ابن خلكان في حلب فوجده على حد تعبيره : « رجلا مكملا في الفضائل وكرم الأخلاق وكثرة التواضع ٠ » وكان بيته مأوى لطلاب العلم لا يتوانى عن مساعدتهم والعطف عليهم ٠ وتذكر المصادر أسماء بعض طلابه ومنهم ابن عساكر والزينبي والمجد بن أبي جرادة ٠ وقد أهّله علمه وأخلاقه الرفيعة الى عقد صلات مع مشاهير عصره ومنهم طفرين مدبر أمور حلب ، وصلاح الدين الأيوبي وقد صحبه في معسكره في بعض غزواته ٠ توفي ابن الأثير في شهر شعبان أو رمضان سنة ٦٣٠ هـ عن عمر يناهز الثالثة والسبعين ٠

اشتهر عزالدين بن الأثير مؤرخاً ، ويرجع ميله للتاريخ الى تحصيله الواسع في علم الحديث ، وقد دفعه الاهتمام بالحديث الى تتبع سيرة النبي وأخبار الصحابة وجره ذلك الى قراءة كتب التاريخ حتى ألمّ بتاريخ المشرق الاسلامي وتاريخ المغرب الاسلامي ، يدفعه الى ذلك ميل قوي الى مطالعة الكتب التاريخية ، يقول في مقدمة كتابه الكامل في التاريخ :

« أما بعد فاني لم أزل محباً لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها مؤثراً الاطلاع على الجلي من حوادثها وخافيها ، مائلا الى المعارف والآداب والتجارب المودعة في مطاويها ·· » ويتضح من أسلوبه في الكتابة كثرة مطالعاته الأدبية التي طبعت بعض كتاباته بطابع أدبي أما كتاباته التاريخية ومصنفاته في الحديث فلا تتجلى فيها نزعته الى استخدام السجع والبيان الا في مقدماتها ، فهو يؤثر الأسلوب المرسل الواضح ·

ينظر ابن الأثير الى علم التاريخ من زاوية فوائده الجليلة التي يشير اليها في مقدمة الكامل فيرى أن التاريخ باب من أبواب الثقافة يتيح للانسان أن يعيش مع الماضي فمن يقرأ عن الماضي فكأنه عاش فيه ، وهو عظة للناس والحكام ، وسبيل الى الترويح عن النفس ، وقراءة التاريخ فوق هذا تزهد الانسان بالدنيا وترغبه بالآخرة والعبادة وتمثل عظمة الخالق ، وفيه أيضاً من التأسي ما يهون به كل مصاب وتزول أمام ما يعرض من محن كل كربة ·

يقع كتابه الكامل في اثني عشر جزءاً ، وقد اعتمد أكثر ما اعتمد في أجزائه السبعة الأولى منه على الطبري ، فاختصر تاريخه حاذفاً الأسانيد متجاوزاً الاسهاب ، مكتفياً بالرواية الواحدة ، على أن ذلك لم يمنعه أن يستمد من مصادر أخرى كابن الكلبي والمبرد والبلاذري والمسعودي دي مكملا ما ترك الطبري عن قصد أو غير قصد كأيام العرب قبل الاسلام والوقائع بين قيس وتغلب في القرن الأول الهجري وغزو العرب السند ·

أما بقية أجزاء الكتاب فقد انتفع في تأليفها بكل المصادر العربية التي وصلت الى يده ولذلك عد كتابه بحق خلاصة وافية لما كتب المسلمون في تاريخهم السياسي حتى سنة ٦٢٨ هـ أي قبيل وفاة المؤرخ بسنتين · وقد امتاز ابن الأثير بانفراده من بين معاصريه في تأريخ الحروب الصليبية وغزو التتر ، وقد استعان في تدوين الفترة التي لم يعاصر فيها الحروب الصليبية بالعماد الأصفهاني والمؤرخين الذين عاصروها ممن سبقوه كابن القلانسي والأتاري وابن أبي جرادة وابن شداد ، وقد تضمن تاريخه تقسيماً للحملات الصليبية الخمس على الشرق العربي الاسلامي والحملة الرابعة التي استهدفت في الأساس الشرق العربي الاسلامي لكنها تحولت الى القسطنطينية ·

أما الغزو التتري فقد عاصره ابن الأثير منذ بدايته سنة ٦١٦ هـ حتى وفاته قبل سقوط بغداد • وأظهر أساه لما شهد وسمع من فتك المغول وقسوتهم يقول في ذلك «ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه •• يسرّ الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم ، فلقد دُفعوا من العدو الى عظيم» • واقتصر في تدوين أخبار هذا الغزو على المعاصرين من شهود العيان أو الرسائل التي تصل الى الموصل من البلاد المهاجمة وبعض التجار • وأما منهجه في تأليف الكتاب فقد رتب ابن الأثير أخبار العالم الاسلامي على السنين فهو يجمع الحادثة التي تقطعت على أكثر من سنة ويذكرها في موضع واحد ، ويذكر من ملك أو تبع في قطر من البلاد ولم يطل حكمه في السنة التي كان فيها أول أمره، ويضبط بعض الأسماء المشتبهة بالخط •

وللكامل في التاريخ ميزات منها بروز شخصية مؤلفه في الكتابة ، فقد برزت انفعالاته الذاتية مع الأحداث في مواقف الرضى أو السخط من خلال تعليقاته على بعض الأخبار ، من ذلك تعليقه على الصليبيين بعد عجزهم عن احتلال دمياط وانسحابهم الى الشام بعدما استباح نور الدين بلادهم فقال : « وهذا موضع المثل خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين! » وتعليقه على استعادة المسلمين دمياط عام ٦١٨ بقوله : « فرزقهم الله اعادة دمياط ، وبقيت البلاد بأيديهم على حالها ، فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الاسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو ، وكفاهم شر التتر» •

كان ابن الأثير يطمح أن يؤلف كتاباً كاملا في التاريخ ينطبق مضمونه على تسميته، يتحاشى فيه عيوب كتب التاريخ التي سبقته فقد لاحظ أن منها « المطول الممل والمختصر المخل » ومنها الحافل بالأحداث والتفصيلات الصغيرة ، دون ابراز الأحداث الهامة ، وأن المؤرخ الشرقي اقتصر على التأريخ للمشرق والغربي اقتصر على التأريخ للمغرب فان تجاوزا ذلك أخلّ كلاهما بذكر أخبار الآخر •• فجاء كتابه مقتصراً على المفيد ، كتبه ببصيرة نافذة وتنظيم مريح للقارىء ، وان لم يتحرر كلياً من عيوب من سبقه من المؤرخين كاهتمامه بالسند دون مناقشة ما يروى من أساطير ولا سيما في تاريخ الفرس وبدا اهتمامه في بعض المناطق والأقاليم أكثر من المناطق أو الأقاليم الأخرى ، بحسب غزارة الأخبار أو قلتها

عنها ، لكنه كما قال روزنتال : « بـذل جهده على الأقل لمراعاة توازن معقول بين الأحداث في كافة أنحاء العالم الاسلامي رغم أن عمله هذا لم يكلل بالنجاح التام » .

وقد تحدث الدكتور عبد القادر أحمد طليمات عن ابن الأثير الجزري في كتابه « ابن الأثير الجزري المؤرخ » فلخص أبرز سمات عمله التاريخي ومن هذه السمات أنه نقد التاريخ نقداً واعياً فردّ بعض تعليلات الطبري لحرب الفجار ودافع عن الخليفة عثمان في موقفه من أبي ذر الغفاري حين نفاه الى الربذة بقوله : « فان للامام أن يؤدب رعيته » ومن سمات تاريخه ملاحظته وتعليله لبعض ظواهر تاريخية استقرأها من الأحداث كملاحظته تحول الملك من مؤسس الدولة في التاريخ الاسلامي الى أهل بيته دون أولاده ، وذكر عدة وقائع تؤيد هذه الظاهرة من التاريخ الاسلامي وعلل هذه الظاهرة « بأن الذي يكون أول دولة يكثر ويأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به فيحرمه الله أعقابه ، ومن يفعل ذلك ، من أجلهم عقوبة له » ومن سمات عمله التاريخي الحياء ، فقد أرخ للزنكيين والأيوبيين بحياد تام ، وان كان بعض المؤرخين قد اتهموه بالخروج عن الحياد حين حمّل صلاح الدين مسؤولية تساهله مع الفرنجة والسماح لهم في التجمع بمدينة صور فاستعصى عليه فتحها بعد ذلك ، واعتبروا نقده هذا نقداً مغرضاً بهدف التجريح . ومن سمات عمله تخيره للمصادر الموثوقة التي استمد منها الأخبار وتصويبه بعض ما ورد فيها ، وتعليقاته التي تعكس حرصه على الدقة والصحة التاريخية ، غير أن ابن الأثير لم يستطع أن يتحرر من مشاعره الانسانية في كثير من المواقف فكان يبرز فرحه لانتصارات قومه في مواجهة التتر والصليبيين ويبدي رضاه أو استنكاره في تقويم للأشخاص والأحداث بأسلوب لاذع مفصحاً عن أحاسيسه الذاتية .

ولابن الأثير عز الدين مؤلفات أخرى لا يتسع المقال لاستيفاء موضوعها وأسلوبها بالتفصيل وهي تدخل في باب الحديث أو التاريخ أو كلاهما معاً منها :

١ ــ اللباب في تهذيب الأنساب : وهو كتاب اعتمد في تأليفه على كتاب الأنساب للسمعاني عبد الكريم بن محمد بن منصور المروزي ، فهذبه واختصر تراجمه المطولة وصحح معلوماته ، وربط البطون بالقبائل التي ينتسب اليها

أصحاب الأنساب معتمداً على مصادر أخرى منها : كتب ابن خياط والقاسم بن سلام ، وابن ماكولا ، والدار قطني ٠

٢ ـ أسد الغابة في معرفة أسماء الصحابة : وهو تراجم للصحابة وقد عرّف ابن الأثير الصحابي بقوله : « ان الصحابي هو الذي « أقام مع رسول الله ﷺ سنة أو سنتين وغزا معه غزوة أو غزوتين »واعتمد فيه على المصادر التي سبقته ، فصوّب بعض الأسماء والأماكن ، وحذف بعض الأحاديث ، وعلّق على بعضها ، وأضاف معلومات لم ترد في كتب تراجم الصحابة الأساسية السابقة ككتاب : « معرفة الصحابة » لابن مندة وكتاب معرفة الصحابة : لأبي نعيم الأصفهاني وكتاب : الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر القرطبي ، وكتاب تقييد المهمل وتمييز المشكل في رجال الصحيحين لأبي علي الغساني ٠ وقد رتب التراجم فيه على حروف الهجاء وضبط الأسماء المتشابهة وشرح بعض الألفاظ الصعبة في الأحاديث ٠

٣ ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية : وهي الدولة التي أسسها عماد الدين زنكي في الموصل وعاش ابن الأثير وأسرته في ظلها فهو تاريخ للأسرة الزنكية والدولة التي أسستها فصل فيه أخبار هذه الدولة تفصيلا تجاوز ما ورد عنها في كتابه الكامل ، ودفعه الى تأليفه وفاؤه للأسرة الزنكية التي برّت أسرته ولاسيما نور الدين أرسلان شاه ، وقد ألف الكتاب بمناسبة وفاته لتوطيد صلته ببدر الدين لؤلؤ الذي خلفه سنة ٦٠٧ ٠ وقد خرج في بعض حوادثه عن الحياد التاريخي فبدا ممالئاً للأسرة الزنكية متستراً على بعض عيوب أعلامها ، وقد اعتمد على والده في جمع بعض أخباره ٠

هذه لمحة موجزة عن حياة هذا العالم الكبير الذي خدم الثقافة العربية ودفع بكتابه التاريخ العربي الاسلامي خطوة الى الأمام ٠

□ مراجع البحث :

١ ـ وفيات الأعيان : لابن خلكان ٠
٢ ـ البداية والنهاية : لابن كثير ٠
٣ ـ ذيل الروضتين : لأبي شامة ٠
٤ ـ شذرات الذهب : لابن العماد ٠
٥ ـ مرآة الجنان لليافعي ٠
٦ ـ طبقات الشافعية : للسبكي ٠
٧ ـ هدية العارفين :

ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعراء

عيسى فتوح

كتب ابن قتيبة هذه المقدمة النقدية وكان قصده المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جلّ أهل الأدب ، ويقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب والنحو والقرآن والحديث ... أما من خفي اسمه وقلّ ذكره ، وكسد شعره ، وكان لا يعرفه الا بعض الخواص فلم يذكره ، لأن الشعراء المعروفين بالشعر في الجاهلية والاسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط ، ولو انفق عمره في البحث عنهم ، ولا يعتقد أن عالما استطاع أن يستغرق شعر قبيلة بكامله ، حتى أنه لم يفته من تلك القبيلة شاعر الا عرفه ، ولا قصيدة الا رواها .

لم يسلك ابن قتيبة سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظر الى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه ، وللمتأخر من الشعراء بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظر بعين العدل الى الفريقين وأعطى كلا حظه ، ووفر عليه حقه، اذ رأى من العلماء من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين لأنه قيل في زمانه ، أو رأى قائله ، وحجة ابن قتيبة أن الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا قوم دون قوم ، بل جعل ذلك كله مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره .

وقد ذكر قول وفعل كل شاعر أتى بحسن وأثنى عليه دون أن يضعه عنده تأخر قائله أو فاعله ، ولا حداثة سنه ، ولذلك رفض كل شعر رديء ، رغم شرف صاحبه وتقدمه .

يقسم ابن قتيبة الشعر الى أربعة أقسام أو أضرب :

١ ــ ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه كقول الفرزدق :

في كفه خيزرانٌ ريحُه عبقٌ ... في كفِ أروع في عرنينِه شممُ
يُغضي حياءً ويُغضى من مهابته ... فلا يُكلَّم الا حين يبتسم

٢ ــ وضرب منه حسن لفظه وحلا ، فاذا فتشته لم تجد هناك طائلا كقول جرير :

ان العيونَ التي في طرفها حَوَرٌ ... قتلْنَنا ثم لم يُحيينَ قتلانا
يصرَعْنَ ذا اللبِ حتى لا حَراك به ... وهن أضعفُ خلقِ الله أركانا

٣ ــ وضرب منه جاد معناه وقصرت الألفاظ عنه كقول لبيد :

ما عاتبَ المرءَ الكريم كنفسه ... والمرءُ يُصلحه الجليسُ الصالحُ

٤ ــ وضرب منه تأخر لفظه وتأخر معناه كقول الأعشى :

وفوها كأقاحيٍ ... غذاهُ دائمُ الهطلِ
كما شيب براحٍ با ... ردٍ من عسلِ النحلِ

ويرى ابن قتيبة أنه ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج على مذهب المتقدمين ، فيقف على منزل عامر ، أو يبكي عند مشيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي ، وليس له أن يرحل على حمار أو بغل ويصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على المياه العذاب الجواري لأن المتقدمين وردوا على الأواجن والطوامي، أو يقطع الى الممدوح منابت النرجس والآس والورد لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرار، كما لايجوز له أن يقيس على اشتقاقهم فيطلق ما لم يطلقوا ٠

ثم يذكر أن من الشعراء المتكلف والمطبوع : فالمتكلف هو الذي قوّم شعره بالثقاف ونقحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظر بعد النظر ، كزهير والحطيئة ، وكان الأصمعي يقول : « زهير والحطيئة وأشباههما من عبيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين » ٠ وكان الحطيئة يقول : « خير الشعر الحولي

المنقح المحكك» ، وكان زهير يسمي كبرى قصائده « الحوليات » ٠
وقال سويد بن كراع :

أبيتُ بأبواب القوافي كأنما ... أصادي بها سرباً من الوحشِ نزّعا
اذا خفت أن تروى علي رددتها ... فثقفتها حولاً جريداً ومرْبعا

وقال عدي بن الرقاع :

وقصيدةٍ قد بتُ أجمعُ بينها ... حتى أقوّمَ ميلَها وسِنادَها
نظر المثقف في كعوبِ قناتِه ... حتى يقيمَ ثقافُهُ منآدَها

وللشعر دواع تحث البطيء وتبعث المتكلف منها : الطمع والشوق والشراب والطرب والغضب ، وقيل للحطيئة : أي الناس أشعر ؟ فأخرج لساناً دقيقاً كأنه لسان حية وقال : « هذا اذا طمع » ثم يضرب الأمثلة على أثر الطمع في جودة الشعر ، فيرى مثلا أن مدائح الكميت لبني أمية أجود من مدائحه للطالبيين ، وأنه قيل لكثير : كيف تصنع اذا عسر عليك قول الشعر قال: أطوف في الرباع المخلية، والرياض المعشبة ، فيسهل علي أرصنه، ويسرع الي أحسنه ٠ ويقال أيضاً انه لم يُستدع شارد الشعر بمثل الماء الجاري والشرف العالي والمكان المخضر الحالي ٠

وللشعر تارات يبعد فيها قريبه ، و يستصعب فيها ريّضه ، ولا يكون ذلك الا من عارض يعترض الغريزة من سوء غذاء أو خاطر غم ٠ وكان الفرزدق يقول : أنا أشعر تميم ، وربما أتت علي ساعة ونزع ضرس أسهل علي من قول بيت ٠

وللشعر أوقات يسرع فيها أتيّه ، ويسمح فيها أبيّه ، منها أول الليل قبل تفشي الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغداء ، ومنها يوم شرب الدواء ، ومنها الخلوة في الحبس والمسير ، ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر حتى قيل في شعر النابغة الجعدي « خمار بواف ومطرف بآلاف » ٠

ويرى ابن قتيبة أن أشعر الناس من أنت في شعره حتى تفرغ منه ويضرب الأمثلة على ذلك ٠٠٠ وليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى، بل يختار لأسباب منها : الاصابة في التشبيه ، وخفة الروي (الوزن)ويختار

لأن قائله لم يقل غيره ، أو لأن شعره قليل عزيز ، أو لأنه غريب في معناه ، أو لنبل قائله كأشعار الخلفاء مثلاً ٠٠٠

ثم يعود ابن قتيبة فيعرّف الشعر المتكلف تعريفاً آخر صحيحاً فيقول : « والمتكلف من الشعر هو ما نزل بصاحبه من طول التفكر وشدة العناء ورشح الجبين ، وكثرة الضرورات ، وحذف ما بالمعاني حاجة اليه ، وزيادة ما بالمعاني غنى عنه ٠٠٠ ومن علائم التكلف عنده أن ترى البيت فيه مقروناً بغير جاره ، ومضموماً الى غير لفقه ٠

والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر ، واقتدر على القوافي ، وأراك في صدر بيته عجزه ، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت في شعره رونق الطبع ، ووشي الغريزة ، واذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحّر ٠

والشعراء في الطبع مختلفون ، منهم من يسهل عليه المديح ، ويعسر عليه الهجاء ٠ ومنهم من تتيسر له المراثي ، ويعسر عليه الغزل ٠ ولما قيل للعجاج إنك لا تحسن الهجاء قال : هل رأيت بانياً لا يحسن الهدم ؟

ويرد ابن قتيبة على قول العجاج مبيناً خطأه ، لأن المديح بناء والهجاء بناء ، وليس كل بانٍ بضرب بانياً بغيره ، فذو الرمة مثلا أحسن الناس تشبيهاً ، وأجودهم تشبيباً ، وأوصفهم لرمل وهاجرة ٠٠٠ فاذا صار الى المديح والهجاء خانه الطبع ، وكان الفرزدق زير نساء وصاحب غزل ، وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب، وكان جرير عفيفاً عن النساء، وهو مع ذلك أحسن الناس تشبيباً ، وكان الفرزدق يقول : « ما أحوجه مع عفته الى صلابة شعري ، وما أحوجني الى رقة شعره ! »

ثم ينهي مقدمته بذكر عيوب الشعر كالاقواء والاكفاء والسناد والايطاء والاجازة وعيوب الاعراب ، كتسكين المتحرك ، وقصر الممدود ، وصرف غير المصروف ٠٠٠ ويقول : ليس للمحدث أن يتبع المتقدم في استعمال وحشي الكلام ، الذي لم يكثر ، واستعمال اللغة القليلة في العرب كابدالهم الجيم من الياء كقول القائل :

يا رب ان قبلت حجتج ٠ يريد : حجتي ٠

نقد المقدمة

لم يتناول ابن قتيبة النصوص والشعراء بنقد فني تطبيقي ، وانما اكتفى بأن عرض في مقدمته لبعض المسائل العامة محاولا أن يضع لها مبادىء ...

كان ناقداً مستقل الرأي ، غير خاضع لتقاليد العرب الأدبية ، ولا مؤمن بأحكامهم ، ولا مطمئن الى المعتقدات الأدبية التي كانت منتشرة في عصره . والحق أن ثورة ابن قتيبة على المقلدين من أنصار القديم ، وأخذه برأيه مستقلاً انما هي ثورة صادرة عن نظر فلسفي أكثر من صدورها عن حكم استقرأه من طبيعة الشعر القديم ، ولو أنه دعا الشعراء الى الصدور عن طبعهم وحياتهم كأبي نواس بعد أن حذرهم من التقليد الأعمى لكان ذلك أشفى ، ولكان أكثر تمشياً مع نظرته ، ولأدى بالمحدثين الى قول شعر يصح أن يقارن بالشعر القديم لصدوره عن الحياة كما كان يصدر ذلك الشعر .

عند ابن قتيبة ناحيتان هما : الروح العلمية التي نظر منها ، وهي روح صائبة في دعوتها الى تحكيم النظر الشخصي والاستقلال بالرأي وتقدير الأشياء في ذاتها ، خاصة في رفضه القديم لقدمه ، ورده الحديث لحداثته .

أما الناحية الثانية فهي الذوق الأدبي ونقد الشعر ، وهذه أضعف نواحيه .

لقد وفق ابن قتيبة في النزعة أكثر من توفقه في النقد ذاته ، وفي المذهب الفني أكثر منه في الذوق ، ولعل ضعف الذوق عنده يرجع الى غلبة تفكيره على حسه الأدبي ، فهو موجهاً خير منه ناقداً ، وهو يسعى الى طرح الأحكام التقليدية والأخذ بالرأي الفردي والصدور عن النظر الخاص ، ويرى أن تستمر دراسة النصوص الأدبية القديمة الجيدة ، حتى اذا تكوّن الذوق الشخصي لطول الممارسة ، حكمناه في ما نقرأ وصدرنا عنه .

وليس من شك في أن لابن قتيبة فضلاً في مقاومته التيار الجديد وحماية الدراسات الأدبية من طغيانه ، وتتمثل نزعته في ذوقه العربي واستقلاله بالرأي،

وتنحيته الفلسفة عن مجال الأدب ، فهو بذلك كالآمدي ... ان نقد الشعر الصحيح يقتصر فقط على المقدمة دون الكتاب (الشعر والشعراء) ، ففي المقدمة نجد بعض المسائل الأدبية العامة والمقاييس في الحكم على الشعر .

والعيب في نظراته يرجع الى منهجه التقريري العقلي في كل شيء ، وهو أحدّ تفكيراً منه احساساً أدبياً ، ينظر الى الظواهر نظرة منطقية لا تاريخية ، اذ ليس صحيحاً أن الشاعر هو الذي فكر في البدء بذكر الديار ليمهد للمدح ، انما هي تقاليد الشعر الجاهلي التي استمرت حية مسيطرة بعد أن دخل التكسب في الشعر ، فأصبحت المدائح تتكون من جزءين منفصلين : القسم الفني فالقسم المدحي، ويبدو اتجاه ابن قتيبة التقريري في تقسيمه الشعر الى أربعة أقسام أو أضرب :

١ ـ ضرب حسن لفظه وجاد معناه .

٢ ـ ضرب حسن لفظه وحلا ، فاذا فتشته لم تجد فائدة في المعنى .

٣ ـ ضرب جاد معناه وقصر لفظه .

٤ ـ ضرب تأخر معناه ولفظه .

وفي هذا التقسيم أحكام قيمية ذوقية بدليل قوله : حسن ، جاد ، حلا ، وهي أحكام مطلقة تستند الى حكمين تقريريين هما :

آ ـ أن اللفظ في خدمة المعنى ، وأن المعنى الواحد يمكن أن يُعبر عنه بألفاظ مختلفة ، يحلو بعضها ويقصر الآخر .

ب ـ أن لا بد لكل بيت من الشعر من معنى ، وفي هذا قصور واضح ، ذلك أنه فصل بين اللفظ والمعنى وباعد بينهما مباعدة أتلفت ذوقه ، ذلك أنه لم ينتبه للأسلوب الفني والعبارة الفنية الموحية المعبرة عن موقف انساني ، واللفظ عندئذ لا يستخدم للعبارة عن المعنى ، بل يقصد منه خلق صور رائعة لا أداء فكرة ... نقول : لم ينتبه لهذا بل راح ينقد الشعر في ألفاظه ومعانيه، وهو بذلك لا يفرق بين العبارة الفنية والعبارة الخام (العبارة العقلية) التي تؤدي المعنى والفكرة فقط .

ان نظرة ابن قتيبة ضيقة ، ذلك أنه في بعض الأبيات لا يلتفت الا الى المعنى الأخلاقي والأفكار ، ناسياً أن أجود الشعر ما صور تصويراً فنياً ، أو ما كان مجرد رمز لحالة نفسية ، رمز بالغ قوي الايحاء ، لأنه عميق الصدق على سذاجته ··· ان ابن قتيبة لم يكن يملك حساً أدبياً صادقاً ، وانه كان يفكر أكثر مما يتذوق وأن نقده الشعر لا غناء فيه ·

ثم يقسم ابن قتيبة الشعر الى متكلف ومطبوع ، ويذكر أن هناك دواعي تحث البطيء وتدفع المتكلف كما أن هناك تارات يبعد فيها قريبه ، ويصعب فيها ريّضه ... ولكن ليس صحيحاً أن الشعر اذا توافرت دواعيه أو ملابساته جاء مطبوعاً ··· فليس هناك تلازم حتمي بين الأمرين · ان حقيقة الخلق الأدبي غير ذلك ، والثابت أن الشراب والطرب والغضب والطمع وكافة المشاعر والانفعالات لا تخلق شعراً ساعة احتدامها ، لأن الانفعال القوي يعقد اللسان ويشل التفكير ، ويشغلنا عما عداه ، فالشاعر لا يقول الشعر الى بعد أن يصحو من الشراب ، أو يهدأ من الغضب ، اذ تصفو عندئذ قريحته ويستطيع التفكير وقد استقرت انفعالاته ، واذاً فالشاعر لا يقول الا عن روية ·

ان الشعر صياغة لفظية ، وليس أشق من اخضاع الاحساس والفكرة الى اللفظ ، كما يقول الدكتور جورج ديهاميل · والشعر أيضاً احساسات وصور وخواطر تصاغ ألفاظاً · انه صناعة ككل الصناعات ، ولا بد في كل صناعة من مران وجهد ، وانه طبع ودوافع وارادة وصناعة وجهد ··· كل هذا لم يفطن له ابن قتيبة الذي خلط بين التكلف والتثقيف والتنقيح وطول التفتيش واعادة النظر كزهير والحطيئة اللذين عدهما متكلفين وخلط أيضاً بين الطبع والارتجال ، حتى لكأنه يظن أن الشعر المطبوع هو الشعر المرتجل ·

لا بد من بذل الجهد لخلق الصورة الشعرية ، وهذا ما كان يفعله زهير والحطيئة ، أو ما يفعله أو يجب أن يفعله كل شاعر مجيد ، فالفن لا يحيا بغير الجهد والقيود والصناعة ، وليس صحيحاً أن الطبع يكفي دون ذلك ، ولا أن الشعر الجيد ارتجال ، وانما الصحيح أن الشعراء يختلفون بتجويد صناعتهم قسوة وليناً ، ويجدون في هذا الجهد مشقة تختلف بحسب طبائعهم عسراً أو يسراً ، وهم في

هذا لا يخرجون عن الطبع الى التكلف ، وما نظن أن أحداً استطاع أن يصف شعر زهير بالتكلف ، وانما وصفوه بالمثقف والفرق بينهما كبير جداً ٠٠٠

ان التكلف في آداب الشعوب لم يظهر الا في عهودها المتأخرة، عندما طغى التقليد على الطبع ، وعجز التقليد عن محاكاة الروح واللباب، فأخذ بالهياكل والقشور، وهذا هو شعر التوليد الذي يحاول أصحابه تغطية فقره بصور مقتسرة أو محسنات زائفة ٠

ان الشعر المتكلف حقيقة هو الذي يفكر صاحبه مرتين : مرة للفكرة ومرة لتحويرها والتلطف بها حتى تسكن للبديع ، وفي هذا تكون مادة الشعر متكلفة كاذبة ويكون طبع الشاعر فاسداً ، اذ نحس بزيف الاحساس وعدم أصالة الخاطر وقسر الصورة ، فيأتي الشعر أجوف متنافر النغمات ، يقف عند الآذان، وقد رده الذوق كالبهرج المرذول ، وهذه الصفة نجدها عند أبي تمام دون زهير والحطيئة ، والذي عند هذين انما هو التجويد والتثقيف والصقل ٠

ثم يعرف الشعر المتكلف مرة ثانية فيقول : انه ما نزل بصاحبه من طول التفكير ، وشدة العناء ، ورشح الجبين ، وكثرة الضرورات ، وهنا يضع ابن قتيبة المبدأ ولا يحسن التطبيق ، لأنه يعوزه حسن النظر ، والذوق السليم ، فالمتكلف هو ما نحس ما نزل بصاحبه من طول التفكير ٠٠ ولكن الكاتب اذا نجح في جهده وواتاه الطبع ، جاء الأثر الفني خالياً من التكلف والعناء ، والحق أن الجهد في الشعر ضوء داخلي رفيق ، ينير النفس ولا يعشي الأبصار ، والجهد اذا ظهر في كثرة الضرورات ، وحذف ما بالمعاني حاجة اليه ، لم يكن تكلفاً بل قصوراً وعجزاً ٠

ثم يعرف الشعر المطبوع فيقول : والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي ، وأراك في صدر بيته عجزه ، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة ، واذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحّر ٠٠٠ ثم يذكر ذهاب بعض الشعراء بضروب خاصة من الشعر وفقاً لطبائعهم ٠

أما عن وصفه الشعر المطبوع ، فابن قتيبة كعادته أصاب التعريف وأخطأ التطبيق والاختيار ٠٠٠ فنحن لا نشك أن الشاعر المطبوع هو من أرانا في صدر

البيت عجزه ، اذ تأتي المعاني آخذة برقاب بعضها،ويقوم بينها نوع من التداعي، فيأتي عجز البيت بنفس الكلام الذي كنا نتوقعه ، ولكن الخطأ في قوله : والمطبوع من اذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحّر ! فكأن الشاعر المطبوع هو القادر على الارتجال دون الخلط بين الرجز والقصيد ·

من المعروف أن الرُجّاز توفروا على وزن معين حتى ألفوه وتوارثوه ابناً عن أب ، فأصبح الارتجال فيه ممكناً ، وهو بعد قصير سهل البناء والمأخذ ، وليس كذلك القصيد المتنوع البحور · المتعدد الأغراض ·

ان الارتجال لا يدل على الطبع ، وان قاد الى شيء ، فالى تلك السخافات ··· كل هذا يعبر عن سماجة ذوق ابن قتيبة الفقيه ، وقبح بصيرته في الشعر ، ولذلك لم يستطع تقييم أي بيت ورد في مقدمته وظل يصيب في القاعدة ، ويخطىء في تطبيق المثال ·

والخلاصة التي نريد أن ننتهي اليها هي أن تفكير ابن قتيبة خير من ذوقه ، ونزعته خير من عمله ، دعا الى تحكيم الرأي الشخصي فأصاب ، وعرف الشعر المتكلف بأنه ما خلا نسجه من الوحدة فأصاب ، وعرف المطبوع بأنه ما ينبي صدره عن عجزه فأصاب، وأراد أن يقسم الشعر تبعاً لجودة ألفاظه ومعانيه فتخبط في الحكم والذوق ، وقسمه الى مطبوع ومتكلف فخلط بين الطبع والارتجال ، وبين التثقيف والتكلف ، وحاول أن يورد عن غيره بعض المقاييس فلم يتبصر ولم يعمل حسه ولا عقله ليضعهما في موضعهما الحقيقي ·

ومع ذلك ففضله في ايقاف طغيان منطق اليونان على أدب العرب، والتخلص من التعصب للقديم لقدمه والحديث لحداثته ، لكنه لم يستطع أن يقيم محل ما رفضه أسساً صحيحة أو نظرية متماسكة · وابن قتيبة لا يعد ناقداً لأن الناقد من يتناول النصوص ويدرسها ويميّز أساليبها ، كما فعل الآمدي ، وكان مؤرخاً أكثر منه ناقداً ، وهو ان عرض لبعض المسائل الأدبية والمقاييس العامة ، فلم يكن في نظرته استقصاء ولا دراسة للنصوص ، والنقد ليس في التصميمات التي لا طائل تحتها ، وانما هو تحليل للنصوص وتمييز بين الأساليب ·

كتاب من التراث

المعارف العلمية في كتاب :

نهاية الأرب في فنون الأدب

لشهاب الدين النويري

دراسة أعدها : د. فؤاد حسن حسين أبو الهيجاء*

□ عصر المؤلف ونبذة عن حياته :

مؤلف هذا السفر الضخم هو شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري المصري المولود في سنة ٦٧٧ هـ ، الموافق لعام ١٢٨٠م وحددت بعض الكتب مولده فجعلته في ٢١ من ذي القعدة ، وتوفي في سنة ٧٣٢ هـ وقيل ٧٣٣ هـ(١) وحدد بعضهم وفاته في ٢١ رمضان من سنة ٧٣٢ هـ بمدينة القاهرة(٢) .

عاش في القرن المملوكي ، أو لنقل في زمن بداية غروب حضارة الأمة الأسلامية ، وميلها نحو الضعف ، عاش في زمن كانت الأمة تعاني فيه من نكبات كبيرة ، ورأى بأم عينيه الآثار التي تركتها هجمات المغول على البلاد الاسلامية ، في ايران والعراق وبلاد الشام ، وسمع عما عانوه من فساد وقتل وتشريد كما سمع عن نكبة الصليبيين والتي عانى منها المسلمون قرنين من الزمان ، وما فعلوه بمكتبات المسلمين في طرابلس والقدس وعسقلان وغزة وغيرها ، وسمع عن هجمات الاسبان على امارات المسلمين وممالكهم في الأندلس .

رأى هو وغيره من علماء عصره هذه الويلات وتلك المصائب فرغبوا في حفظ تراث أمتهم من الضياع وآداب أمتهم من التبعثر ، وعلوم أمتهم من الاندثار .

فقرر عندئذ أن يكتب موسوعة يجمع فيها شتات المعارف المختلفة .

□ تعريف بكتاب : نهاية الأرب في فنون الأدب :

كان النويري كاتباً أديباً وقد أخلص لمهنته ، يقول في مقدمة كتابه :

(*) باحث ومدرس بالكلية الجامعية في عمان ـ الأردن .

« وكنت ممن عدل في مباديه عن الالمام بناديه ، وجعل صناعة الكتابة فنه الذي يستظل بوارفه وفنه الذي يجمع له فيه بين تليده وطارفه » .

وقد قرر أن يؤلف هذا الكتاب لينتفع به في حياته العملية ، يقول : « فامتطيت جواد المطالعة ، وركضت في ميدان المراجعة ، وحيث ذلّ لي مركبها ، وصفا لي مشربها ، آثرت أن أحرر منها كتاباً استأنس به وارجع اليه ، وأعول فيما يعرض لي من المهمات عليه ، فاستخرت الله سبحانه وتعالى ، وأثبت منها خمسة فنون حسنة الترتيب ، بينة التقسيم والتبويب(٣) .

لقد جعل النويري كتابه في خمسة أقسام سمى كل قسم منها فناً واحتوى كل فن على خمسة أقسام :

أ ــ **الفن الأول**(٤) لقد خصص النويري الفن الأول لدراسة السماء وآثارها العلوية ، والأرض ومعالمها السفلية ، وجعل هذا الفن في خمسة أقسام ، خصص القسم الأول منها للسماء ودرس فيه مبدأ خلق السماء وهيئتها والملائكة والكواكب السبعة والكواكب الثابتة وخصص القسم الثاني للآثار العلوية وعني بها السحاب والصواعق والهواء والنار .

ودرس في القسم الثالث الليالي والأيام والشهور والأعوام ، والفصول والمواسم والأعياد .

كما درس في القسم الرابع الأرض ومبدأ خلقها ثم فصّل القول في أسمائها وطولها ومساحتها وفي أقاليمها وجبالها وبحارها وجزائرها وأنهارها والغدران والعيون .

وخصص القسم الخامس لدراسة طبائع البلاد وأخلاق سكانها ومبانيها القديمة ومعاقلها وقصورها ومنازلها .

ب ــ **أما الفن الثاني**(٥) فخصصه للانسان وما يتعلق به وجعله في خمسة أقسام كبرى : وجعله في أربعة أبواب : وقد درس في الباب الأول الانسان وتسميته وتنقلاته وطبائعه وفي الثاني : وصف أعضائه .

وفي الثالث ما قيل فيه من غزل ونسيب وهوى ومحبة وعشق .

وفي الرابع درس الانسان .

وخصّص القسم الثاني للأمثال المشهورة الصادرة عن أوابد العرب وأخبار الكهنة والزجر والفأل والطيرة ، والفراسة والذكاء والفكاهة .

أما الثالث فجعله للمدح والهجاء والخمر ومعاقرتها وندمائها والقيان وآلات الطرب والغناء .

أما الرابع من هذا الفن فخصصه للكتابة عن الملك وما يشترط فيه وواجبات الرعية عليه ، وحقوقه على الرعية ، ثم الوزراء والقادة والجيوش وأسلحتها وولاة المناصب الكبرى ثم الكتّاب والبلغاء .

وخصص الفن الثالث(٦) للحيوان وجعله على خمسة أقسام ، الأول منها في السباع كالأسد والببر والنمر والفهد والكلب والذئب والضبع والسنجاب والثعلب والدب والهر والخنزير .

وقصر القسم الثاني على الوحوش والظباء وما يتصل بها من جنسها .

وخصص القسم الثالث للخيل والبغال والحمير والابل والبقر والغنم .

كما تحدث في الخامس عن الطيور والسمك ، خصص للطير منه ستة أبواب .

والسابع للسمك ، وأطلق على الطير مسميات مختلفة فمنها ما أطلق عليه : سباع الطير ، وكلاب الطير وبهائم الطير ، وبغاث الطير والطير الليلي والهمج كالنمل والعنكبوت .

وأنهى هذا الفن بباب ثامن ذكر فيه ما وصفت به آلات الصيد في البر والبحر ووصف رماة البندق .

وقصر الفن الرابع(٧) على النبات وجعله في خمسة أقسام :

درس في الأول منها أصل النبات وما يتصل به من الخضراوات والبقولات .

وفي الثاني درس الأشجار وقسمه الى ثلاثة أبواب : الأول منها فيما لثمره قشر لا يؤكل وفي الثاني : فيما لثمره نوى لا يؤكل ، وفي الثالث ما ليس لثمره قشرة ولا نوى . وتحدث في الثالث عن الفواكه المشمومة وعنى بها الورود كالنسرين والنرجس والزعفران وغير ذلك من أشباهها .

وخصص القسم الرابع للرياض والأزهار .

والخامس لأصناف الطيب كالمسك والعنبر والعود والصندل والسنبل الهندي والغوالي والندود والمستقطرات والأدهان والنضوحات ، وأدوية الباه والخواص ، وجعل هذا القسم في أحد عشر باباً وأطال القول فيها وفصل في أنواعها وفوائدها ، مورداً ما قيل فيها من شعر ونثر .

وخصص الفن الخامس(٨) للتاريخ وجعله في خمسة أقسام :

وتحدث في القسم الأول منها عن بدء خلق آدم وأبنائه ثم شيث عليه السلام ، وادريس ونوح وخبر الطوفان وهود وصالح وأخبار أصحاب البئر المعضلة وانتهى به الى أخبار أصحاب الرس وشرح في الثاني قصة سيدنا ابراهيم ولوط واسحاق ، ويوسف وأيوب وذي الكفل ، وشعيب وأورد في الثالث قصة موسى بن عمران عليه السلام ومن تبعه من أنبياء اليهود .

وتحدث في الرابع عن ملوك الأصقاع وملوك الأمم من الأعاجم وانتهى به الى أخبار ملوك العرب وما يتصل بهم من خبر سيل العرم .

وخصص القسم الخامس لأخبار الملة الأسلامية بادئاً بسيرة الرسول عليه السلام وجعله في اثني عشر باباً وانتهى به الى الربع الأول من القرن الثامن الهجري أو قبيل وفاة المؤلف سنة ٧٣٢ وترجم في نهايته للملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي .

☐ تحقيق الكتاب :

ان النسخة المطبوعة التي بين أيدينا تتكون من قسمين :

الأول منهما يتألف من الأجزاء الثمانية عشر الأولى ، وهي مصورة عن طبعة دار الكتب الصادرة عن وزارة الثقافة والارشاد بجمهورية مصر العربية ، وجلها غير محقق ، وانما وضعت لها فهارس واستدراكات قليلة .

أما الجزء التاسع عشر فمن تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم .
والجزء العشرون من تحقيق محمد رفعت فتح الله .
والجزء الحادي والعشرون من تحقيق علي محمد البجاوي .
والجزء الثاني والعشرون من تحقيق د. محمد جابر عبدالعال الجيني .
والجزء الثالث والعشرون من تحقيق د. أحمد كمال زكي .
والجزء الرابع والعشرون من تحقيق د. حسين نصار .
والجزء الخامس والعشرون من تحقيق د. محمد جابر عبدالعال الجيني .
والجزء السادس والعشرون من تحقيق محمد فوزي العتيل .
والجزء السابع والعشرون من تحقيق د. سعيد عاشور .
ولا ندري ان كانت قد حققت منه أجزاء أخرى .
وكل الأجزاء السابقة من ١٩ ــ ٢٧ من اصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب .

☐ أهم المعارف العلمية في الكتاب :

ان المطلع على الكتاب يجد أن المادة التاريخية هي لب الكتاب وعموده ، فالمادة التاريخية تبدأ من الجزء الثالث عشر ، ولاتنتهي الا بنهاية الكتاب والذي ربما وصلت أجزاؤه الى ثلاثين جزءاً , أما المعارف العلمية فقد جاءت متفرقة في الأجزاء الأولى من الكتاب أو في الفنون الأربعة الأولى منه ،والتي كما قلنا خصصها لدراسة السماء والأرض والانسان والحيوان والنبات . وسوف نقوم في هذه الدراسة باستعراض هذه المعارف العلمية التي كانت تهم أهل ذلك العصر ومن قبلهم . وسوف نركز في هذه الدراسة على العلوم والمعارف العلمية التالية :

١ ـ علم الفلك :(٩) :

يرى النويري أن الله سبحانه قد خلق الكون على هيئة جوهرة عظيمة ، فلما نظر اليها اشتد خوفها فانماعت وعلاها من شدة الخوف زبد ودخان ، فخلق الله الأرض من الزبد ، وخلق السماء من الدخان ، وهو يستشهد على ذلك بقوله تعالى : « ثم استوى الى السماء وهي دخان »(١٠) وهو يرى أن السماء مسطوحة(١١) مستشهداً بقوله تعالى « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى الجبال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت »(١٢) ٠

وينقل عن غيره آراءهم في الفلك ، فالفلك يعني السماوات السبع عند بعضهم وهو الشمس والقمر والنجوم عند آخرين والبعد بين وسماء وسماء كبير يمتد خمسمائة عام ٠

وبعد أن يستشهد بالأشعار التي نظمها الشعراء في الفلك ينتقل الى الملائكة ثم الى الكواكب والنجوم ٠ والكواكب السيارة عنده سبعة ويسميها المتحيرة(١٣) وهي : زحل والمشتري والشمس والزهرة وعطارد والقمر، وهي التي ذهب المفسرون الى ورودها في قوله تعالى : « فلا أقسم بالخنس ، الجواري الكنس »(١٤) ٠

ويرى أنها سميت كنّساً لأنها تجري في البروج ثم تكنس أي تستتر ، وسميت خنساً لاستقامتها ورجوعها ٠

أما لماذا سمّتها العرب بهذه الاسم فيفسرها تفسيراً لطيفاً(١٥) :

فزحل سُمي من قولنا زحل فلان : اذا أبطأ وبذلك سُمي زحل بهذا الاسم لبطئه في السماء أو الزحل : الحقد(١٦) ٠

المشتري سّمي بهذا الاسم لحسنه أو لأنه نجم الشراء والبيع ودليل الأموال والأرباح(١٧)

والمريخ مأخوذ من المرخ وهو شجر تحتك أغصانه ببعض فتوري ناراً ، وكذلك المريخ فيه التواء كثير في سَيْره وحكَمه فشُبه بذلك(١٨) ٠

أما **الشمس** فسميت بذلك(١٩) لأنها واسطة بين ثلاثة كواكب علوية وثلاثة سفلية والواسطة التي في المخنقة تسمى شمسة ٠

والزهرة مشتقة من الزاهر وهو الأبيض النير من كل شيء ٠

وعطارد النافذ في الأمور ، وهكذا هذا الكوكب كثير التصرف مع ما يلابسه ويقارنه٠

والقمر مأخوذ من القمرة وهو البياض والأقمر الأبيض(٢٠) ٠

ويقول النويري ناقلا عن غيره : ان حركة الشمس وسائر الكواكب الأخرى حركة مستقيمة ، وان الشمس تقطع سماء الدنيا في يومها، وتغيب في الأرض في عين حمئة (٢١)، بل انه يستشهد على صحة هذا الرأي بآية من كتاب الله وحديث لرسول الله ، أما الآية فقوله تعالى : « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين » وأما الحديث فقوله ﷺ : انها تجري لمستقر لها تحت العرش فتخر ساجدة ،فلا تزال كذلك حتى يؤذن لها في الطلوع٠٠ »

وهو يرى أن الشمس نار حارة لو اقتربت من الأرض لأحرقتها، أما القمر فمن نور.

ويعرض بعد ذلك للقمر منازله وأسمائها وأسماء لياليه في دقة متناهية ، فهو في أول الشهر هلال ، وفي الليلة الرابعة عشرة بدر ،فاذا استتر سُمي محاقاً ، وذلك في الليلة التاسعة والعشرين .

وأسماء لياليه عشرة ، أولها : الغرروالشهب فالزهر فالبُهْر فالبيض فالدرع فالحنادس والظُلَم والدآدي فالمحاق فاذا اكتمل ثلاثين ليلة سميت ليلة الثلاثين «الليلاء»(٢٢).

ثم ينتقل بعد ذلك الى الكواكب الأخرى التي يسميها الثابتة ويرى أنها معلقة في سماء الدنيا كالقناديل وأنها مخلوقة من نورويعتقد أنها معلقة بأيدي الملائكة ، وينقل عن قتادة أن الله سبحانه خلقها زينة للسماء الدنياورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها في البر والبحر وسماها بالثوابت وهو لايعني أنهاثابتة المكان بل هي متحركة ولكنها ثابتة الأبعاد بالنسبة للبشر لا يقترب أحدها من الآخر ولا يبتعد عنه . وهو يرى أن لها فلكاً خاصاً غير أملاك الكواكب الأخرى السبعة السيارة التي هي أسرع حركة من الأفلاك الثابتة(٢٣) .

وفي القسم الثاني من الفن الأول يعرض للسحاب(٢٤) وسبب حدوثه . وللثلج والبرد وهو يعتقد أن المطر ينزل من السماء آخذاً بالمعنى الحرفي للآية الكريمة « ويُنزّل من السماء من جبال فيها من برد » ويرى أن الرياح التي تدفع السحاب حتى يصبح ماء أربعة أنواع : ريح تعم الأرض وريح تثير السحاب فتجعله كِسَفاً (قطعاً) وريح تؤلف بين الكِسَف فتجعله ركاماً وريح رابعة تنزل المطر .

ويرى أن السحاب كالغربال ينزل منه بقدر ولولا ذلك لأفسد ما على الأرض ،ويورد آراء كثيرة في سبب حدوثه ثم ينطلق الى أسماء السحاب اللغوية فيسجل ما ينيف عن ثلاثين اسماً ومنها(٢٥) :

- أول ما ينشأ فهو النَشْء .
- فاذا تغيرت وتغممت له السماء فهو الغمام .
- فاذا غلظ السحاب وركب بعضه بعضاً فهو المكفهر .
- فاذا كان أبيض فهو المزن .
- فاذا كان لرعده صوت فهو الهزيم .
- فاذا اشتد صوت رعده فهو الأجش .

فاذا تحول السحاب الى مطر وكان ضعيفاً فهو الطل ، فاذا كان ضعيفاً متقطعاً فهو الرذاذ ، فاذا ازداد فهو البَغْش فالدث والرك والرهمة وهي أسماء تدل على الترتيب على غزارة المطر النازل(٢٦) .

وللمطر أسماء لغوية كثيرة ينقلها عن الثعالبي(٢٧) ويورد على ذلك ما يزيد على سبعة وعشرين اسماً ومنها على سبيل المثال :

ـ اذا أحيا الأرض بعد موتها فهو الحيا •
ـ فاذا جاء بعد المحل فهو الغيث •
ـ فاذا كان ضخم القطر شديد الوقع فهو الوابل •
ـ فاذا جاءت المطرة دفعات فهي الشآبيب •

ويورد في وصف المطر نماذج شعرية ونثرية كثيرة •

بعد ذلك ينتقل الى النيازك والصواعق والرعد والبرق وقوس قزح(٢٨) ويعرفها قائلا : فالنيازك ما يُرى من الذوائب المتصلة بالشهب والكواكب • وأما الصواعق فينقل عن الزمخشري قوله الصاعقة قصفة من الرعد ينقض معها شُقّة من نار •

ثم ينقل تعريفاً آخر دون ذكر المصدر فيقول : وقالوا انها تنقدح من السحاب اذا اصطكت أجرامه ، وهي نار لطيفة مديدة لاتمر بشيء الا أتت عليه الا أنها مع حدتها سريعة الخمود •

ويعرف الرعد تعريفاً روحياً ناقلا عن المفسرين دون ذكر أسمائهم فيقول الرعد ملك موكل بالسحاب معه كر من حديد ، يسوقه من بلد الى بلد ، فكلما خالف سحاب صاح فالذي يسمع هو صوت الملك(٢٩) •

وفسر البرق أيضاً تفسيراً روحياً ، يرى أن البرق سوط الملك الموكل بالسحاب ويعرض لأسماء الرعد والبرق اللغوية ووميضهما • **وقوس قزح**(٣٠) عنده سُمي كذلك لتلونه ، وينقل عن ابن عباس أن اسمه قوس الله ، وينقل عن القدماء علة تلونه وتكونه هذا التفسير : « انه اذا تكاثف جزء من الهواء بالبرد ثم أشرق عليه نور بعض الكواكب اصطبغ ذلك الجزء وانعطف منه ذلك الضوء لما يليه من الهواء كالحمرة الصافية ، ثم ينقل عن القدماء أسباباً أخرى كثيرة ليست مما سبق ذكره •

ثم يتعرض في الباب الثالث من الفصل الأول(٣١) الى الهواء ويسميه : أسطقس الهواء وأسطقس كلمة يونانية تعني : عنصر وينقل عن الرسول عليه السلام : « الريح من روح الله تعالى تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب •

ثم ينقل أسماءها حسب ما فيها من خير أو شر ، فيقول اذا كان فيها الرحمة فهي المبشرات والنشر والمرسلات والرخاء(٣٢) •

واذا كانت تحمل النز فهي العاصف والقاصف ومعبرهما البحر والعقيم والصرصر ومعبرهما البر ، وكل هذه المسميات وردت في القرآن الكريم •

ثم يعرض رأي ابن سينا وأبقراط في أثر الهواء على طبائع الناس وتحولهم من الغضب الى السكون ومن الهم الى السرور ، كما ذكر أثر تحول الهواء على الأبدان والأعصاب ولعل من أهم آثار ريح الجنوب الكسل وثقل السمع وغشاوة البصر •

أما ريح الشمال فانها تصلب الأبدان وتصحح الأدمغة وتحسن اللون وتصفي الحواس وتقوي الشهوة والحركة ، غير أنها تهيج السعال ووجع الصدر •

ويذكر بعض أسمائها من ذلك النكباء والصبا ، والدبور وغير ذلك ·

ويشرح معاني أسماء الرياح من الناحية اللغوية ومن ذلك :

- **اذا جاءت بنفس ضعيف وروح فهي النسيم ·**
- **واذا جاءت بالحصباء فهي الحاصبة ·**
- **واذا جاءت من الأرض كالعمود نحو السماء فهي الاعصار ·**

وقد خصص القسم الثالث من هذا الفن « الأول » لدراسة الليالي والأيام والشهور والأعوام والفصول والمواسم والأعياد ·

ويرى أن الله سبحانه خلق الدنيا مظلمة ، ثم خلق الشمس والقمر وجعل الليل في اثنتي عشرة ساعة هي على التوالي : الشاهد ، فالغسق والعتمة فالفحمة ثم الموهن ثم القطع ثم الجوشن ثم العبكة ثم التباشير ثم الفجر الأول ثم الفجر الثاني ثم المعترض ·

ويعود لينتقل عن الثعالبي أسماء أخرى لها موردا كل ما يتفق ذكره من أشعار وحكم وأمثال مأثورة ورسائل مشهورة أما النهار فهو اثنتا عشرة ساعة هي على التوالي : الذرور ثم البزوغ ثم الضحى ثم الغزالة ثم الهاجرة، ثم الزوال ثم الدلوك ثم العصر ثم الأصيل ثم الصبوب ثم الحدور ثم الغروب ويسجل أسماء أخرى لها ناقلا ذلك عن غيره ·

أما لماذا اتخذ المسلمون يوم الجمعة عيداً فيذكر أنه اليوم الذي أتمّ الله فيه خلق العالم وأوجد أبا البشر آدم عليه السلام وفيه أيضاً تُوفي ·

وقد اتخذ اليهود السبت عيداً لأن الله تعالى ابتدأ خلق العالم يوم الأحد ، وفرغ منه يوم الجمعة وأن يوم السبت يوم فراغ ودعة ·

واتخذ النصارى الأحد عيداً لأن الله سبحانه ابتدأ فيه خلق الأشياء ، وهو في كل ذلك يسجل كل ما وجد في وصف النهار من مثل وحكمة وشعر ونثر ·

أما الآلات التي تستعمل لمعرفة درجات الليل والنهار فهي الاصطرلاب · والطرجهارة والبنكام · ثم ينتقل الى الشهور(٣٣) فيذكر أسماءها العربية المستعملة وغير المستعملة، فالمستعملة هي أشهر السنة الهجرية ، وأما غير المستعملة فهي تلك التي كان يستعملها العرب العاربة وهي : مؤتمر ، ناجر ، خوان ، صوان ، رُنّى ، أيدة ، الأصم ، عادل ، ناطل ، واغل ، ورْنَة ، بُرَك · وقال :ـ وقد سموا الشهر الأول محرماً لأنهم أغاروا فلم ينجحوا فحرموا القتال فيه ·

وسموا صفراً بهذا الاسم لصفر بيوتهم فيه منهم عند خروجهم الى الغارات ·
وشهرا ربيع والربيعان لأنهم كانوا يخصبون فيهما بما أصابوا في صفر ·
والجماديان لأن الوقت الذي سُميا فيه بهذه التسمية جمد فيه الماء ·
وسموا رجباً بهذا الأسم لتعظيمهم له لأنه بمعنى الترجيب ·
وشعبان لتشعبهم في الغارات ·

ورمضان شهر الحر ، وشوال من شالت الأبل أذنابها اذا حالت ٠

وذو القعدة لقعودهم عن القتال ٠

وذو الحجة لأن الحج اتفق فيه يومئذ فسمي به ٠

وأول من سمى هذه الأشهر(٣٤) : كلاب بن مرة ، فالأشهر الحرم الأربعة هي : ذو القعدة ، وذو الحجة والمحرم ورجب ٠

والنويري لا ينسى أن يسجل أسماء وشهور اليهود وشهور السنة القبطية والسريان والفرس ٠

وقد وضح لنا متى نقول سنة ، ومتى نقول : عاماً وفسر ذلك تفسيراً لطيفاً ، قال اذا كان الزمن جدباً قيل سنة جدب واذا كان خصباً قيل عام خصب ، ثم علق على هذا التفسير قائلا : والصحيح أنهما اسمان موضوعان على مسمى واحد ، مستشهداً على قوله من القرآن الكريم : « فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاماً » والسنة القمرية(٣٥) عنده ٣٥٤ يوماً وخمس وسدس يوم وهذه الأجزاء تعني ٣٫/١١ من اليوم » ٠

ومن هذا الجزء يكتمل يوم واحد كل ثلاث سنوات ، فتصبح السنة ٣٥٥ يوماً ثم يبقى منه جزء يسير يكتمل يوماً بعد ثلاثين سنة ،وتسمى تلك السنين كبائس العرب ٠

ثم يقول ، السنة الاصطلاحية(٣٦) عند سائر الأمم ٣٦٥ يوماً وربع اليوم فتكون زيادتها على السنة العربية عشرة أيام ونصف يوم وربع يوم وثمن يوم وخمساً من خمس يوم وهذا يعني ٢٫/٩٨ من اليوم ٠

□ **الفصول وأزمنتها :**

وفي القسم الثالث من الباب من هذا الفن تحدث النويري عن الفصول وأزمنتها(٣٧) ٠

أ ـ فصل الربيع : يقول عنه وهو عند العرب الصيف ، وطبعه حار رطب ، ودخوله عند حلول الشمس برج الحمل والثور والجوزاء ، ويجعل عدد أيامه ٩٤ يوماً ، وابتداؤه في الثاني عشر من آذار ، ويقول عنه : في هذا الفصل تتحرك الطبائع ، وتظهر المواد المتولدة في الشتاء ، فيطلع النبات وتزهر الأشجار وتورق ، ويهيج الحيوان للسفاد ٠٠٠

ب ـ فصل الصيف : يقول عنه : فان طبعه الحرارة واليبس ، ودخوله عند حلول الشمس برج السرطان والأسد والسنبلة ، وابتداؤه في الرابع عشر من حزيران وعدد أيامه ثلاثة وتسعون يوماً ٠

ج ـ فصل الخريف : يقول عنه ، طبعه بارد يابس وابتداؤه في الخامس عشر من ايلول وأيامه ٨٩ يوماً ٠

د ـ فصل الشتاء ويقول عنه طبعه بارد ورطب وابتداؤه في الثالث عشر من كانون الأول وعدد أيامه ٨٩ يوماً ٠

٢ ـ علم الجغرافيا :

وفي القسم الرابع من الباب الثالث من الفن الأول تحدث عن الأرض والجبال والبحار والجزائر والعيون والغدران(٣٨) .

وقد بدأ الحديث عن هذا القسم بالآية الكريمة : « الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن » ولكنه ينقل تفسيرين مختلفين ويتساءل : هل هناك سبع أرضين مختلفة متباعدة متطابقة متعالية أم أنها سبع متجاورات متفرقات لا متطابقات وهي الصين ، وخراسان ، ومصر وافريقية أرضاً ، السند والهند معاً ، وفارس والجبال والعراق وجزيرة العرب معاً ، والجزيرة والشام وبلاد أرمينية معاً ، وجزيرة الأندلس وما جاورها من بلاد معاً .

ثم ينطلق الى تعداد أوصافها حسب مافيها من استواء وجبال وشجر ومعالم مختلفة وصلابة وحجارة ، فيذكر أربعين اسماً لها . ناقلا ذلك عن الثعالبي في كتابه فقه اللغة ، ومنها على سبيل المثال :

- اذا اتسعت الأرض ولم يتخللها شجر أو خمر فهي الفضاء والبراح ثم الصحراء والعراء ثم الرهاء والجهراء .
- فاذا كانت مستوية مع الأتساع فهي : الخَبْت والجَدد ثم الصحصح والصردح ثم القاع والقرقر ، ثم القرق والصفصف ومنها أيضاً قوله :
- فاذا كانت تبيد سالكها فهي البيداء والمفازة كناية عنها ومن أسمائها أيضاً قوله :
- فاذا كانت صلبة يابسة من غير حصى فهي الكلد ثم الجعجاع .
- فاذا كانت مهيأة للزراعة فهي الحقل والمشارة والدبرة .
- ثم ينقل لنا أسماء التراب وصفاته . ومن ذلك الصعيد : تراب وجه الأرض .

  والثرى : التراب الندي وهو كل تراب لا يصير طيناً لازبا اذا بُلَّ .

كما وضح أسماء الغبار وأوصافه وأسماء الطين وأوصافه وأسماء الرمال وتركيب كمية الرمل وأسماء الطرق وأوصافها ومن الأمثلة على ذلك :

- اذا كان الطين حراً يابساً فهو الصلصال فاذا كان مطبوخاً فهو الفخار ، وفي الرمل قال : العداب ما استرق من الرمل ، والحبل ما استطال منه وفي ترتيب كمية الرمل قال : الكثير منه يقال له العقنقل فاذا نقص فهو كثيب فاذا نقص فهو عوكل .. وفي تفصيل أسماء الطرق وأوصافها قال ناقلا عن الثعالبي :

  المرصاد والنجد فهو الطريق الواضح ويسمى كذلك الصراط .

  واللاحب الطريق الموطأ والمهيع الطريق الواسع وغير ذلك .

وخصص الباب الثالث من القسم الرابع من الفن الأول للحديث عن طول الأرض ومساحتها . وقال في ذلك : ذهب المتكلمون في ذلك أن مسافة الأرض خمسمائة عام ثلث

عمران ، وثلث خراب وثلث بحار وقال ان مقدار المعمور من الأرض مائة وعشرون سنة ، تسعون منها ليأجوج ومأجوج ، واثنا عشر للسودان وثمانية للروم، وثلاثة للعرب، وسبعة لسائر الأمم .

وقال في طولها : ان الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ للسودان منها اثنا عشر ألفاً وللروم ثمانية آلاف فرسخ ، ولفارس ثلاثة آلاف وللعرب ألف . وقال في ذلك كلاماً قريباً من هذا .

وخصص الباب الرابع من القسم الرابع من الفن الأول لما أسماه : الأقاليم السبعة(٣٩)

١ ــ فالاقليم الأول يبدأ من مشرق أرض الصين الى مدائن أبوابها وهي الأنهار التي تدخل السفن فيها من البحر الى المدائن الجليلة مثل خانقو وخانفور ويدخل فيه جزيرة سرنديب ومن جنوب أرض اليمن مثل صنعاء وظفار وحضرموت وعدن ومن بلاد النوبة دنقلة ومن بلد السودان غانة ثم ينتهي الى البحر المحيط وعرضه من خط الاستواء الى مقدار ما يبعد عنه عشرون درجة وثلاث عشرة دقيقة .

٢ ــ وأما الاقليم الثاني(٤٠) فيبتدىء من بلاد الصين ، ويمر على بعض بلاد الهند الساحلية وبلاد السند حتى يبلغ عمان ويكون فيه من أرض العرب نجران وهجر وجَنّابة ومهرة وسبأ وتبالة والطائف وجدة ومكة والمدينة ومملكة الحبشة وأسوان وقوص وجنوب بلاد المغرب حتى ينتهي الى البحر المحيط ، وعرضه سبع وعشرون درجة واثنتا عشرة دقيقة .

ويستمر في تحديد كل اقليم وكلها تبدأ من جزء من أرض الصين أو بلاد الترك ثم تسير غرباً حتى تنتهي بالمحيط الأطلسي .

وخصص الباب الخامس من القسم الرابع من الفن الأول للجبال(٤١) وبدأ شرحه عنها بالآية الكريمة « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم » .

ثم يورد شرح المفسرين لهذه الآية قائلا : خلق الله عز وجل الأرض على الماء فمادت وتكفأت كما تتكفأ السفينة ، فأثبتها بالجبال ولولا ذلك ما أقرّت عليها خلقاً » .

ويورد النويري رأي محمد بن السائب الكلبي في أن الله سبحانه خلق جبل السّراة فكان أول الجبال على الأرض ويذكر عدداً من الجبال ومواقعها .

ثم تحدث عن أسماء ما ارتفع من الأرض الى أن يبلغ الجبل ، ونورد مما ذكر قوله منقولا عن الثعالبي .

ــ أصغر ما ارتفع من الأرض : النبكة ثم الرابية أعلى منها ، ثم الأكمة ، ثم الزّبية ثم النجوة ثم الرّيع ثم القُفّ ثم الهضبة ...

كما ذكر أسماء الجبل وأجزاءه ومن ذلك على سبيل المثال :

ــ أول الجبل الحضيض ، وهو القرار من الأرض عند أصل الجبل ثم السفح وهو ذيله ثم السند وهو المرتفع في أصله ، ثم الكيح وهو عرضه ... ويستمر في مقدار ذلك في صفحتين ونصف الصفحة .

وينتقل بعدها الى ذكر ترتيب مقادير الحجارة ناقلا عن الثعالبي ومثال ذلك : اذا كانت صغيرة فهي الحصاة ، فاذا كانت مثل الجوزة وصلحت للاستنجاء فهي نبلة ، فاذا كانت أعظم من الجوزة فهي قُنزعة ...

وخصص الباب السادس من القسم الرابع من الفن الأول للبحار والجزائر(٤٢) .

وبدأ حديثه عنها ناقلا رواية ابن عباس رضي الله عنه عن الكيفية التي أتم الله سبحانه بها خلقه لها ، فقد خلق ياقوتة خضراء عظيمة الحجم ، ثم نظر اليها بعين هيبته فصارت ماء يترقرق وعلّل اضطراب الموج في البحار بسبب خوف الماء من الله سبحانه وارتعاده من خشيته.

ويجعل البحار العظيمة ثلاثة هي البحر المحيط ويقصد المحيط الأطلسي ثم بحر مانيطش وهو بحر آزوف ثم بحر الخزر .

ويتعرض في شرحه للمحيط الأطلسي الى أعظم الجزر والبلاد الواقعة فيه وعليه المأهولة منها وغير المأهولة فيذكر من ذلك جزائر السيلّى ، وبلاد افرنسية وجزيرة برفاغة وجزيرة انقلطرة .

ثم يتحدث عن البحار المتفرعة عن هذا المحيط فيجعلها في خليجين(٤٣) أحدهما من جهة المغرب ويسمى البحر الرومي ويقصد به البحر المتوسط لأنه يمر في طريقه الى الشرق ببلاد البربر وشمال المغرب الأقصى ثم الأوسط الى برقة الى الاسكندرية الى أرض فلسطين ثم يتجه الى الشمال فيمر بأنطاكية ثم ينعطف فيمر ببلاد تابعة للقسطنطينية الى أن يعود الى المكان الذي خرج منه يعني بلاد الأندلس .

أما الخليج الثاني فيتجه الى جهة المشرق ويسمى بحاره : البحر الصيني والهندي والفارسي واليمني والحبشي .

ويتحدث خلال ذلك عن مفهوم البرزخ وأهم الجزر التي كانت تتبع للمسلمين ، ثم انتزعت منهم ونذكر منها على سبيل المثال ميورقة ، ورودس وسردانية وصقلية ومسيني وسرقوسه وغير ذلك .

ويتناول بالشرح خليج القسطنطينية، ثم ينتقل الى بحر الهند وجزائره وبعض الخلجان المتصلة به فخليج القلزم وبحر فارس ، كما يتحدث عن البحر الأسود والذي يسميه بحر مانيطش ثم عن بحر الخزر ، ولا ينسى ذكر البحيرات المالحة كبحيرة خوارزم وبحيرة الطريخ وبحيرة كبوذان وبحيرة زُغَر ويقصد بها البحر الميت أو ديار قوم لوط وغير ذلك من البحيرات ويذكر ما قيل فيها من شعر مشهور .

ويتناول في الباب السابع من القسم الرابع من الفن الأول العيون والأنهار والغدران(٤٤) ، ويخص بالذكر نهر النيل ومصدر ينابيعه ونهري الفرات ودجلة ونهر سجستان وأنهار مهران وجيحون وسيحون والكنك والكر وإتل كما يذكر بعض العيون ويسجل ما قيل في ذكر الماء من شعر وأمثال ونثر .

٣ ـ طبائع البلاد وأخلاق السكان :

الباب الأول من القسم الخامس من الفن الأول لدراسة طبائع البلاد وأخلاق السكان.

ومما نقله في ذلك أن الله سبحانه خلق مع الناس عشرة أخلاق هي : الايمان ، الحياء والنجدة ، والفتنة ، والكبر ، والنفاق والغنى والفقر ، والذل والشقاء .

قسمها ناقلا عن محمد بن حبيب بين البلاد : اليمن ، والشام ، والعراق ، ومصر والبادية . ويذكر كذلك صفات البركة و يجعل تسعة أجزاء من عشرة من البركة في قريش وواحد في سائر الناس . ويوزع كذلك صفات الكرم والغيرة والمكر والجفاء والنّجابة والصناعة والشهوة والعمل والحسد والحقد والبخل والطرب والشبق .

وينقل القول الآتي : أربعة لا تعرف في أربعة : السخاء في الروم ، والوفاء في الترك والشجاعة في القبط والغم في الزّنج .

كما يذكر صفات أخرى في الأمم المختلفة وينقل على سبيل المثال أقوالا كثيرة من ذلك:

أهل الحجاز أسرع الناس الى فتنة وأعجزهم عنها ، وقوله : أهل اليمن أهل سمع وطاعة ولزوم الجماعة ، وقوله : أهل فارس أهل بأس شديد وعزّ عتيد ...

وينقل عن أبي حامد القاضي قوله :أعياني أن أرى خراسانياً ذكياً وطبرياً رزيناً

وهكذا يستمر في النقل ووصف أخلاق الناس محدداً أهم البلاد التي تتصف بالبخل ، والانحطاط وعدم النظر في عواقب الأمور.

☐ خصائص البلاد :

وجعل الباب الثاني من القسم الخامس(٤٥) من هذا الفن للحديث عن طبائع البلاد مركزاً على مكة(٤٦) ويثرب(٤٧) وفضائلهما وعرض خلال ذلك للكعبة ناقلا عن أبي الوليد الأزرقي بسند عن كعب الأحبار أن الكعبة كانت فوق الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض ثم يتحدث عن بناء الملائكة لها قبل خلق آدم وهبوط آدم الى الأرض، وتحدث كذلك عن فضل البيت الحرام، واختيار ابراهيم عليه السلام لموضع الكعبة وحجه اليها وحج الأنبياء بعده وطوافهم كما تحدث عن أسماء الكعبة وأسماء مكة وفضل استلام الركن الأسود وانتقل منها الى المدينة المنورة وخصائصها وأسمائها. وخصص بعدها قسماً للحديث عن بيت المقدس(٤٨) والمسجد الأقصى وعن فضائل زيارته والصلاة فيه والسكنى على أرضه والاقامة به والوفاة على ترابه وذكر ما به من قبور الأنبياء ومحراب داود وعين سلوان ، كما تحدث عن فضل الصخرة والصلاة الى جانبها كما تحدث بعد ذلك عن الشام(٤٩) ومسجدها ويعني المسجد الأموي وعن مصر(٥٠) وما اختصت به من الفضائل ومن ولد بها من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن بها من الصديقين والصديقات ومن ظهر بها من الحكماء، ثم تحدث عن فضائلها وما وصفت به.

كما تحدث عن الأندلس والبصرة(٥١) وبغداد(٥٢) والأهواز(٥٣) وبلاد فارس(٥٤) وأصفهان وجرجان ونيسابور وطوس وبلخ وبست وغزنة وسجستان والهند والصين وسمرقند وبلاد الترك وخوارزم(٥٥) .

وخصص جزءاً من هذا الباب للحديث عن خصائص البلاد المذكورة في مجالات العلم والعمل والجواهر والملابس والأوبار والفراش والمراكب والحيوانات ذوات السموم ، والخلق والأخلاق والأمراض والآثار العلوية وغير ذلك(٥٦) .

وقد مال في ذلك الى الاختصار الشديد وسجل اشارات غير واضحة أو موضحة من ذلك قوله :

« أما خصائصها العلمية والعملية(٥٧) فيقال : حكماء اليونان وأطباء جند يسابور وصاغة حران وحاكة اليمن وكتّاب السواد .

ويستمر في ذكر مثل هذه الاشارات الموجزة دون تعليل أو تفصيل .

٤ ـ علم الآثار :

وقد خصص الباب الثالث من القسم الخامس من الفصل الأول لما سماه **بالمباني** القديمة(٥٨) .

وتعرض في هذا الباب الى ذكر أول بناء بني على وجه الأرض وهو الصرح المسمى بالمجدل(٥٩) والذي بناه النمرود الأكبر ابن كوش بن حام بن نوح بربّى من أرض بابل ويصف طوله وعرضه . ثم ذكر مدينة ارم ذات العماد(٦٠) والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم والتي أقيمت كما ذكر بين حضرموت وصنعاء ويصفها ويصف هلاك أهلها .

كما ذكر خبرسد يأجوج ومأجوج(٦١) ناقلا عن ابن خرداذبه في كتابه المسمى نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق ويطيل النقل والتوضيح .

ثم يذكر مباني الفرس(٦٢) المشهورة مخصصاً ايوان كسرى وحصن الحفر المبني من الرخام قرب تكريت بين دجلة والفرات .

ثم تحدث كذلك عن قنطرة القليس(٦٣) وهي الكعبة التي بناها أبرهة الأشرم باليمن وتحدث : كذلك عن قنطرة صنجة وتقع على نهر من أنهار الروم يصب في نهر الفرات يقع ما بين حصن منصور وكيسوم من ديار بكر .

وذكر كذلك ملعبي بعلبك الكبير والصغير ، ويظن أن سليمان عليه السلام قد بنى الكبير منهما . وخصص جزءاً للحديث عن مباني العرب المشهورة(٦٤) بادئاً بقصر غمدان بصنعاء ثم بحصن تيماء وقصري الخورنق والسدير ثم بالغريان وهما أسطوانتان كانتا بظاهر الكوفة وقد بناهما النعمان بن المنذر بن ماء السماء .

وانتقل بعد ذلك للكتابة عن الأبنية القديمة في مصر(٦٥) وقد بدأ الكتابة عن الأهرام وقد فصل القول فيها مبتدئاً بالهرمين الكبيرين بالجيزة ، ولكنه ترك الكتابة عنها

حتى تحين الكتابة عن الفراعنة في الباب الثاني من القسم الرابع من الفن الخامس(٦٦) كما كتب عن حائط العجوز(٦٧) والتي قال عنها والعجوز « دلوكا » ملكة مصر وملعب أنصنا والذي كان مقياساً للنيل الذي بنته الملكة دلوكا ، وكتب عن مدينة عين شمس وذكر أنها درست وكانت عاصمة فرعون موسى ومنها خرج بجنوده في طلب موسى عليه السلام .

وكتب عن البراني(٦٨) وهي بيوت الحكمة القبط ، وعن حنية اللازورد بأرض منف والتي تسمى مصر القديمة وكتب كذلك عن منارة الاسكندرية(٦٩) ووصفها وسجل ما قيل فيها من شعر كما كتب عن رواق الاسكندرية وهو ملعب كان بالاسكندرية تجتمع فيه الحكماء .

وخصص قسماً للكتابة عن عجائب المباني(٧٠) ناقلا ذلك عن كتاب « مباهج الفكر ومناهج العبر » وقد كتب عن أن الفرس تزعم أن المسمى (أوشهنج) بنى بأرض بابل سبع مدائن جعل في كل مدينة منها أعجوبة ليست في الأخرى ، ووصف كل مدينة منها ، وقد شك النويري بوجودها لكنه ذكر أن ابن الجوزي قد أوردها في كتابه المسمى « سلوة الأحزان » .

كما تحدث عن كنيسة كانت في مدينة قيسارية بها مرآة عجيبة اذا اتهم الرجل امرأة بالزنا، نظر في تلك المرآة فرأى وجه المتهم بها لكن أهل أحدهم كسروها حمية .

وتحدث عن مرآة عجيبة أخرى ناقلا عن الواقدي أن ملك القيمان أرسلها الى عامل معاوية على السند والمسمى بعبدالله العبدي وذكر كذلك حجراً يسمى الكيلان بالقرب من صخرة ، ومن أراد أن يعرف حال غائب أو آبق أو سارق أتى الى تلك الصخرة فنام تحتها فيرى في النوم ما تعرف به على ما هو عليه .

٥ ــ علم النبات :

وخصص النويري الفن الرابع من هذا الكتاب لعلم النبات فدرس شيئاً من هذا الفن واعتذر عن عدم مقدرته على حصره أو استيعابه .

مستشهداً على ذلك بعجز الحكماء ومشاهير الأطباء ، وسكان البوادي وقد جمعتهم الرحباء وضمتهم البوادي ومن لا زموا النبات من حين استهلت عليه الأنواء ، وباكرته الغوادي ،... ومع ذلك فما قدروا على حصره ، ولعلهم لم يقفوا الا على جزء يسير من شطره بل قصدنا بايراده أن نذكر منه ما عليه وصف للشعراء ورسائل للبلغاء والفضلاء .

وقد درس في الباب الأول الخضراوات والبقولات ، وتحدث عن أصل النبات وأعاد ذلك الى يوم خروج آدم من الجنة وهبوطه على الأرض ومعه ثلاثون قضيباً مودعة أصناف الثمر منها عشر ليس لها قشر ولا نوى .

وتعرض بعدها الى أسماء النبات منذ بداية نبته الى حين نموه واستطالته فهو

بارض حين يبدأ النبت فيه ، وجديم اذا تحرك قليلا ، وعميم اذا عم واجثال اذا اهتز وأمكن أن يقبض عليه ، وهائج اذا أصفرّ ويبس....(٧١) .

وخصص الباب الثاني من القسم الأول لنمو النباتات في أرض دون أرض واختصاص الأرض بنباتات دون نباتات ، وتحدث عن طريقة زراعة بعض النباتات واستنباتها من ذلك ما قاله ناقلا : ومما يناسب هذا الفصل ماحكي عن أبي بكر بن وحشية أيضاً أنه اذا خلط بزر الكرنب ببزر السلجم والسلجم هو اللفت ـ وتركا ثلاثة أشهر ثم زرعا خرج البزر كله سلجماً ، فاذا أخذ من بزر هذا السلجم وزرع خرج كرنباً(٧٢) .

وخصص الباب الثالث لما أسماه : الأقوات والخضراوات وهي الحنطة والشعير والحمص والباقلي والأرز وكذلك الخشخاش والكتان والبطيخ والقثاء والخيار والقرع والباذنجان والسلق والقُنَّبيط والكرنب والسلجم والفجل والجزر والبصل ... وما شابهها(٧٣).

ثم تناولها بالدراسة وبداية ظهورها فذكر أن حبة الحنطة كانت أول ما أخرجت من الجنة قدر بيض النعام وكانت ألين من الزبد وأحلى من العسل ... ثم بدأ حجمها يتناقص حتى أصبح قدر بيض الدجاج أيام عيسى بن مريم عليه السلام وظل يتناقص الى أن صار قدر البندق أيام يحيى بن زكريا . فلما قالت اليهود عزير بن الله نقص الى ما نراه عليه الآن يعني زمنه(٧٤) .

وهكذا تناول الأنواع كلها ، بالتعليق وذكر طريقة الاستنبات والخواص ومال الى جعلها في مجموعات فنباتات لثمرها قشر لا يؤكل كاللوز والجوز والبندق مثلا...(٧٥).

ونباتات لثمرها نوى لا يؤكل كالنخل وقد أولاه عناية خاصة فدرس أسماءها وأنواعها وأورد ما قيل في النخل من شعر وأورد بعض الرسائل التي ورد فيها النخيل(٧٦).

وتحدث كذلك عن النباتات التي ليس لثمرها قشر ولا نوى مثل العنب ذاكراً أوصافه وأنواعه والتين والتوت والسفرجل والكمثرى(٧٧) .

وخصص القسم الثالث من هذا الفن لما أسماه « الفواكه المشمومة » وعنى بها الورود والأزهار . تحدث فيه عن الورد وأنواعه وألوانه موردا صفحات كثيرة فيما قيل فيه من أشعار ورسائل ، كما ذكر البان والنسرين والنيلوفر والبنفسج والنرجس والياسمين والآس والحبق وأنواعاً كثيرة(٧٨) .

وخصص باباً للأزهار كالسوسن والآذريون والخزام والشقيقة والبهار والأقحوان(٧٩) .

كما خصص باباً آخر للصموغ مثل الكافور والكهربا وعلك الأنباط وعلك الروم وعلك البطم وصمغ النبوت وأصماغ أخرى كثيرة(٨٠) .

وخصص الباب الرابع لما أسماه الأمنان وعنى بها العسل والشمع واللك والقرمز واللاذن والورس وسكر العشر وأمنان أخرى.

وقد ذكر النويري المناطق المشهورة برياضها وهي : صغد وسمرقند وشعب بوان ونهر الأبلة وغوطة دمشق ووصفها وصفاً موجزاً وأورد ما قيل فيها من أشعار(٨١) ٠

□ صناعة العطور وأصناف الطيب والبخورات :

وفي الباب الأول من القسم الخامس من الفن الرابع أورد عدة أنواع من الطيب بادئاً بالمسك ذاكراً مصدره وهو غزال المسك مورداً عدة طرق لاستخراجه مفاضلا بين أنواعه من حيث الجودة(٨٢) ٠

ثم العنبر وأنواعه ومما قال فيه : وأجود أنواعه ٠٠٠ العنبر الشحري وهو ما قذفه بحر الهند الى ساحل الشحر من أرض اليمن ويذكر بعد ذلك عدة أنواع منه : الزنجي والشلاهطي وغيرها(٨٣) ٠

ثم تحدث عن العود وأنواعه وأصنافه وأماكن تواجده وقد ذكر منها الهند وقشمير وسرنديب وقمار ويفصل القول في أنواعه تفصيلا واضحاً ، ذاكراً طريقة تطرية العود الأبيض واظهار دهناته واكسابه سواداً(٨٤) ٠

ثم تحدث عن الصندل وأصنافه ومكان تواجده وطريقة استخراجه والصناعات التي تقوم عليه خاصة أدوات الشطرنج والنرد(٨٥) ٠

كما تحدث عن السنبل الهندي والقرنفل وطرق استخراج العطور منهما والقسط ذاكراً منافعه وأنواعه مفاضلا بينها(٨٦) ٠

وخصص الباب السابع من القسم الخامس لعمل الغوالي والندود والغوالي جمع غالية وهي ضرب من الطيب وأول مَن سماها بهذا الاسم عبد الملك بن مروان لأنها أخلاط تغلى على النار بعضها مع بعض وقد ذكر النويري الآلات التي تصلح لعملها وسحق أجزائها فيها وكيفية عملها(٨٧) مورداً طريقة صنع كل غالية أو ند ناسباً كل طريقة الى صاحبها أو صاحبتها(٨٨) ٠

وخصص الباب الثامن من القسم الخامس لما سماه عمل الرامك والمسك(٨٩) وهما من العطورات وقد سجل طرق صناعتهما مخصصاً قسماً للأنواع التي تُصنع في مصر في أيامه ذاكراً المواد المستعملة في كل وصفة منها ٠

ثم تحدث عن البان وأنواعه ومركبات كل وصفة منه وأطال في ذلك ٠

وتحدث كذلك عن الأدهان وطرق صناعتها .ومنها دهن كان يصنع من التفاح ودهن آخر صنع للمعتصم بالله وثالث كان يسمى دهن السيدة وغير ذلك كثير(٩٠) ٠

□ صناعة النضوحات والمياه المستقطرة وغير المستقطرة(٩١) :

وقد وضح النويري ما يقصد بهذه الصناعة قائلا : أما النضوحات فليس المراد بهـا في هذا الباب النضوحات التي تصنع للشرب ، بل المراد بها النضوحات التي تدخل في أصناف الطيب وذكر أمثلة عليها : ماء الجوري « الماء المصنوع من الورد الجوري » وماء الصندل وماء الخَلوق وماء المسوس وماء التفاح وماء العنب .

ثم سجل وصفات كثيرة من ذلك نضوح نقله من كتاب الزهراوي يـؤخذ من عصـير العنب ثم يغلى ويضاف اليـه ورق الآس والسفرجل وقشـور الأترج وغيرهـا بكميـات محسوبة قد كتبها .

وسجل على المياه المستقطـرة أنواعـا نقلها عن الزهراوي وعن أبي الحسن المصري وغيرهما .

□ صناعة الأدوية الجنسية(٩٢) :

وقد خصص النويري الباب العاشر من القسم الخامس من هذا الفن لصناعة هـذه الأدوية .

وقد جعلها في ثلاثة أقسام :

أ ـ الأول خاص بالرجال وجعلـه في سبعة أنواع .

ب ـ والثاني خاص بالنساء وقد جعله في ستة أنواع .

جـ ـ والثالث وصفات مختلفة .

صناعة الأدوية المانعة للذباب وأدوية أخرى(٩٣) :

وقد سجل النويري عدة وصفات محددا المواد المستعملة منها وصفة من أجل ابعـاد الذباب ، وأخرى في معالجة عرق النسا وثالثة في عدم تغير الحبر ورابعة في مكافحة السوس والعث الذي يعطب الملابس ، وخامسة لتسويد شعر الرأس واللحية .

□ علم أعضاء الانسان :

خصص النويري الفن الثاني من كتابه للانسان وفيه تناول اشتقاق اسم الانسـان وطبائعه وما يتعلق به بشيء من التفصيل وخلال ذلك أورد أعضاء جسم الانسان ابتداء من الشعر وأوصافه وشعور النساء والشيب ثم الوجه وألوانه وما يصاب به من أمـراض كالجدري وعرض للحواجب والعيون وأمراض العيون من رمـد وغـيره ثم الأنف والشـفاه والأسنان واللسان والأذن والخدود والوجنات والعنق واليـد والنهـود والبطـن والأرداف والقـدود والصـدر والقلب والكبـد والدم والعروق والساق والقدم وغير ذلك .

وكان النويري حين يتناول هذه الأعضاء يتناولها بالتوضيح وبيان أنواعها وأشكالهـا ومراحل تطورها ونموها ومن ذلك ما ذكره في الشعر(٩٤) ناقلا عن الثعالبي قال :

العقيقة ، الشعر الذي يولد به الانسان، والفروة ، شعر معظم الرأس · والناصية شعر مقدم الرأس ، والذؤابة شعر مؤخر الرأس · والفرع ، شعر رأس المرأة ، والغديرة، شعر ذؤابتها · والغفر شعر ساقيها ، والدبب شعر وجهها وغير ذلك من تفصيلات كثيرة ·

ولم يكتف بذلك بل تناول تفصيل أوصاف الشعر قال : ـ ويقال ـ :

شعر جُفال ، اذا كان كثيراً ، ووجف اذاكان متصلا ووكث اذا كان كثيفاً مجتمعاً ، وكتب تفصيلات أخرى كثيرة(٩٥) ·

وهكذا تناول بقية أجزاء الجسم خاصة العيون(٩٦) التي ذكر محاسنها ومعايبها قال في ذلك :

الدعج : شدة السواد مع سعة المقلة ·
والبَرَج : شدة سوادها وشدة بياضها
النجل : سعتها ·
الكحل : سواد جفونها من غير كحل ·

وذكر ، غير ذلك كثيراً من محاسنها كما ذكر بعض معايبها قال :

الحوص : ضيق العين ·
الخوص : غؤورها مع الضيق ·
الشتَر : انقلاب الجفن ·
العمش : هو أن العين لا تزال سائلة رامصة ·
الكمش : أن لا تكاد تبصر · وغير ذلك ·

☐ خاتمة البحث :

لقد تناولنا في هذا البحث أهم المعارف العلمية التي وردت في هذا السفر الضخم ، والذي ألفه صاحبه في العصر المملوكي أي في الفترة التي مالت فيها شمس حضارتنا نحو الغروب والتي تعرضت فيها الى غزوات ونكبات مدمرة ، تركت آثارها على الحركة العلمية الاسلامية وكادت تدمرها وتمحوها من الوجود لولا أن تداركها بعض العلماء المخلصين فحاولوا جاهدين جمعها في موسوعات علمية وأدبية ومعاجم لغوية وأدبية وبلدانية·

لقد عرضنا في هذه الدراسة الموجزة عن الكتاب لأهم المعارف وأهمها :

علم الفلك وعلم الجغرافية وعلم طبائع البلاد وأخلاق السكان وعلم الآثار وعلم النبات وصناعة العطور وصناعة النضوحات والمياه المستقطرة وغير المستقطرة ، وصناعة الأدوية الجنسية المتعلقة بالرجال والنساء وصناعة الأدوية المانعة للذباب ، وعلم أعضاء الانسان ·

ولم نتعرض لعلم التاريخ الذي نال الحظ الأوفر من هذه العلوم والذي يمتد خلال ثمانية عشر جزءاً على الأقل والذي لا يكفيه منا كتابة عدة أسطر أو صفحة أو صفحتين ، والذي تحدث فيه النويري ابتداء من خلق آدم وحواء ثم أخبار الأنبياء وشيث وادريس ونوح وصالح وابراهيم وغيرهم وتناول بالتأريخ لدول أخرى قديمة كملوك الهند

ومصر وفارس والصين والافرنجة ثم ملوك العرب ثم بعثة الرسول عليه السلام وأرخ لكل الدول الاسلامية الى أن وصل الى عهد السلطان أبي المظفر قلاوون الصالحي الذي كان يزامن المؤلف والذي توفي سنة ٧٠٨هـ وفي مقدمة كتاب نهاية الأرب سجل المؤلف أنه استمر في تأليف كتابه الى عهد قلاوون المذكور وسجل العبارة الآتية : وما استقر في ملك ملوك هذه الدولة المملوكية الى حين وضعنا لهذا التأليف في سنة ٠٠٠ وسبعمائة في أيام مولانا السلطان الأجل المالك الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين أبي الفتح محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين أبي المظفر قلاوون ٠٠٠ »(٩٧) وهذا يعني أن المؤلف استمر في الكتابة الى قبيل وفاة السلطان المذكور ٠

وهذا فضلا عن أننا لم نتعرض لعلوم انسانية أخرى كالأدب شعره ونثره وعلوم اللغة والبلاغة والنحو وعلوم الشريعة، والتي جاءت متفرقة في الكتاب خاصة في الجزء الثاني منه ٠

أما الشعر والنثر بفنونه المختلفة كالحكم والأمثال فقد نالت اهتمام الكاتب لأنه كان يورد الشعر أو النثر الذي قيل في الحادثة أو الأمر الذي تناوله بالشرح والتوضيح ٠

□ الحواشي :

١ ـ ابن تغري بردى في النجوم الزاهرة : « من وفيات سنة ٧٣٢ ـ ٩/٢٩٩ » ٠
٢ ـ الدرر الكامنة لابن حجر ١/١٩٧ وحسن المحاضرة للسيوطي ـ ١/٣٢٠ والبداية والنهاية لابن كثير ١٤/١٦٤ ٠
٣ ـ نهاية الأرب جـ ١ المقدمة ص ٣ ٠
٤ ـ يبتدىء الفن الأول بالجزء الأول وينتهي بنهايته ٠
٥ ـ يبتدىء الفن الثاني بالجزء الثاني وينتهي بنهاية صفحة ٢٢٣ من الجزء التاسع ٠
٦ ـ يبتدىء الفن الثالث بصفحة ٢٢٤ من الجزء التاسع وينتهي بنهاية الجزء العاشر ٠
٧ ـ يبتدىء الفن الرابع ببداية الجزء الحادي عشر وينتهي بنهاية الجزء الثاني عشر ٠
٨ ـ يبتدىء الجزء التاريخي (الخامس) بالجزء الثالث عشر وينتهي بنهاية الكتاب والذي قد يصل الى ثلاثين جزء أو يزيد ٠
٩ ـ الآية ١١ من سورة فصلت ٠
١٠ ـ ص ٣٠ من جـ ١ من نهاية الارب ٠
١١ ـ الآية ٢٠ من سورة الغاشية ٠
١٢ ـ ص ٣٨٨ جـ ١ من نهاية الارب ٠
١٣ ـ الآية ١٦ من سورة التكوير ٠
١٤ ـ ص ٣٨ ـ ٣٩ من جـ ١ من نهاية الأرب ٠
١٥ ـ ص ٣٨ من جـ ١ من نهاية الأرب ٠
١٦ ـ ص ٣٩ من جـ ١ من نهاية الأرب ٠
١٧ ـ ص ٣٩ من جـ ١ من نهاية الأرب ٠
١٨ ـ ص ٣٩ من جـ ١ من نهاية الأرب ٠
١٩ ـ ص ٣٩ من جـ ١ من نهاية الأرب ٠
٢٠ ـ ص ٦٤ من جـ ١ من نهاية الأرب ٠
٢١ ـ ص ٧١ من جـ ١ من نهاية الأرب ٠
٢٢ ـ ص ٧٤ جـ ١ من نهاية الأرب ٠
٢٣ ـ ص ٨٧ جـ ١ من نهاية الأرب ٠
٢٤ ـ ص ٨٨٨ جـ ١ من نهاية الأرب ٠
٢٥ ـ ص ٩٣ جـ ١ من نهاية الأرب ٠
٢٦ ـ ص ٧٤ جـ ١ نهاية الأرب ٠
٢٧ ـ ص ٧٥ جـ ١ نهاية الأرب ٠
٢٨ ـ ص ٨٧ جـ ١ نهاية الأرب ٠
٢٩ ـ ص ٨٨ جـ ١ نهاية الأرب ٠
٣٠ ـ ص ٨٨ جـ ١ نهاية الأرب ٠
٣١ ـ يسميه اسطفى الهواء ويعني بها عنصر الهواء وهي كلمة يونانية معربة ص ٩٥ جـ ١ نهاية الأرب ٠

٣٢ ـ نهاية الأرب ص ٩٥ .
٣٣ ـ نهاية الأرب جـ ١٥٦/١ وما بعدها .
٣٤ ـ نهاية الأرب جـ ١٥٨/١ .
٣٥ ـ نهاية الأرب جـ ١٦٤/١ .
٣٦ ـ ص ١٦٤ نهاية الأرب جـ ١ .
٣٧ ـ ص ١٦٩ ـ ١٨٣ وذكر ما قيل في الفصول من شعر ونثر .
٣٨ ـ ص ١٩٩ جـ ١ نهاية الأرب .
٣٩ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٠٩ .
٤٠ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٢١٠ .
٤١ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٢١٨ .
٤٢ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٢٨ .
٤٣ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٣١ ـ ٢٥٩ .
٤٤ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٦١ ـ ٢٩١ .
٤٥ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٩٧ .
٤٦ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣١٣ ـ ٣٢٠ .
٤٧ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٥٢٠ .
٤٨ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٢٥ ـ ٣٤٠ .
٤٩ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٤٠ .
٥٠ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٤٤ .
٥١ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٥٨ .
٥٢ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٥٩ .
٥٣ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٦٠ .
٥٤ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٦١ .
٥٥ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٦٣ .
٥٦ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٦٩ .
٥٧ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٦٩ .
٥٨ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٧٢ .
٥٩ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٧٣ .
٦٠ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٧٣ .
٦١ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٧٤ .
٦٢ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٧٩ .
٦٣ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٨٢ .
٦٤ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٨٤ .
٦٥ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٨٧ .
٦٦ ـ نهاية الأرب جـ ١٢/١٥ .
٦٧ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٩٢ .
٦٨ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٩٤ .
٦٩ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٩٥ .
٧٠ ـ نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠ .
٧١ ـ نهاية الأرب جـ ١١ ص ٥ .
٧٢ ـ نهاية الأرب جـ ١١ ص ١١ .
٧٣ ـ نهاية الأرب .
٧٤ ـ نهاية الأرب جـ ١١ ص ١٣ .
٧٥ ـ نهاية الأرب جـ ١١ ص ٨٦ .
٧٦ ـ نهاية الأرب جـ ١١ ص ١١٧ .
٧٧ ـ نهاية الأرب جـ ١١ ص ١٤٦ .
٧٨ ـ نهاية الأرب جـ ١١ ص ٢٥٦ .
٧٩ ـ نهاية الأرب جـ ١١ ص ٢٧١ .
٨٠ ـ نهاية الأرب جـ ١١ ص ٢٩١ .
٨١ ـ نهاية الأرب جـ١ ص ٢٩٦ .
٨٢ ـ نهاية الأرب جـ ١٢ ص ١ .
٨٣ ـ نهاية الأرب جـ ١٢ ص ١٦ .
٨٤ ـ نهاية الأرب جـ ١٢ ص ٢٣ .
٨٥ ـ نهاية الأرب جـ ١٢ ص ٤٠ .
٨٦ ـ نهاية الأرب جـ ١٢ ص ٤٣ .
٨٧ ـ نهاية الأرب جـ ١٢ ص ٥٢ .
٨٨ ـ نهاية الأرب جـ ١٢ ص ٦٤ .
٨٩ ـ نهاية الأرب جـ ١٢ ص ٧٠ .
٩٠ ـ نهاية الأرب جـ ١٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .
٩١ ـ نهاية الأرب جـ ١٢ ص ١٢٠ .
٩٢ ـ نهاية الأرب جـ ١٢ ص ١٤٢ .
٩٣ ـ نهاية الأرب جـ ١٢ ص ٢٢٣ .
٩٤ ـ نهاية الأرب جـ ٢ ص ١٦ .
٩٥ ـ نهاية الأرب جـ ٢ ص ١٧ .
٩٦ ـ المصدر نفسه جـ ١٢ ص ٤٢ ـ ٤٣ .
٩٧ ـ مقدمة نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٥ .

★ ★ ★

الكتابة باللغة العربيّة

بَين الواقع وَالطمُوح

سمر روحي الفيصل

الكتابة كلمة غامضة جداً لتعدد معانيها واتساع دلالتها • والمشكلة التي نعاني منها هي أن هذه الكلمة مألوفة ، كثيرة الدوران على الألسنة والأقلام ، حتى ان القارىء يكاد يظن أنه يعرف دلالتها حق المعرفة ، فاذا تصدى لتعريفها اكتشف أنها من السهل الممتنع • ولا أدعي أنني في هذه الدراسة قادر على الاحاطة بمعاني هذه الكلمة ودلالاتها ، وانما أدعي أنني ساحاول ذلك لأخلص الى الهدف الرئيس من الدراسة ، وهو تحليل واقع الكتابة باللغة العربية وبيان ما نطمح اليه في أمرها • وأزعم ، هنا ، أن القضية تجاوز الناحية المنهجية التي تقتضي تحديد المصطلحات قبل الشروع في الدراسة الى تلك التجربة التاريخية المرتبطة في التراث العربي بقضية « الكتابة » •

أولا : كلمة « الكتابة » ودلالاتها :

بين معجمات اللغة العربية اتفاق على أن « الكتابة » مصدر من مصادر الفعل « كتب »، بمعنى « خط »(١) • تقول هذه المعجمات : كتب الكتاب : خطه ، فهو : كاتب ، ج : كتَبَة وكتّاب • واكتتب الكتاب لنفسه : انتسخه • وهو يُكتّب الناس : يعلمهم الكتابة • ولا تخرج المعجمات اللغوية القديمة عما سبق في تحديد الدلالة اللغوية للكتابة ، وهو ــ في التعبير اللغوي الحديث ــ نقل أصوات اللغة المنطوقة الى حروف وكلمات مكتوبة ، أو كما قال الكفوي في الكليات ــ « جمع الحروف المنظومة وتأليفها بالقلم • ومنه الكتاب لجمعه أبوابه وفصوله ومسائله »(٢) • ولكن الكفوي يضيف ان الكتابة « قد تطلق على الاملاء، وقد تطلق على الانشاء »أي أنه نص على أن هذا المصدر (الكتابة) استعمل بمعنى اسم المفعول(المكتوب)،لكنه حمل دلالتين: دلالة الاملاء والخط،ودلالة الانشاء• وقدأفادت

المعجمات اللغوية الحديثة ومعجمات المصطلحات من هاتين الدلالتين ، وسعت الى تحديد معنى « الكتابة » فزادته اشكالا واتساعا • اذ نصت على أن « الكتابة » صناعة الكاتب(٣) ، والكاتب : مَن يتعاطى صناعة النثر(٤) ، أو هو الماهر في الانشاء ، ومَنْ حرفته الكتابة(٥) •

من الواضح أن المعجمات اللغوية العربية القديمة والحديثة لم تخطىء حين حددت « الكتابة » بالاملاء والخط • فهذا هو المعنى اللغوي للكلمة ، وهو الأصل فيها • كما أنه المعنى المراد من الكلمة حين تستعمل في حقل التربية • أما المعنى الثاني ، وهو الانشاء أو صناعة الكتابة ، فهو في رأيي المعنى المجازي الذي اكتسبته الكلمة في أثناء تطورها التاريخي • وقد سعت معجمات المصطلحات الى مقاربة هذه المعنى ، فنصت على الكتابة الانشائية وطريقتها(٦) ، وعلى تفصيلات أخرى تنحو بالكلمة المجازية نحو الكتابة الأدبية والصحفية وتأليف البحوث • بيد أن هذه المعجمات لم تصل الى مستوى تعريف هذا المعنى المجازي بكلمات واضحة دقيقة محددة ، مما أسهم في ابقائه غائماً متسع الدلالة • والظن أننا ـ في اللغة العربية ـ مضطرون الى التمييز بين المعنى الحقيقي والمجازي ، ثم التمييز بين المعاني المجازية نفسها • وفي رأيي أننا قادرون على ذلك اذا اتفقنا على :

أ ـ استعمال كلمة « الكتابة » للدلالة على المعنى اللغوي وحده ، أي الاملاء والخط •

ب ـ اضافة كلمة أخرى للتمييز بين المعاني المجازية • وأقترح هنا العبارتين الآتيتين :

ـ **الكتابة الوظيفية** : للدلالة على النصوص المكتوبة التي تؤدي مهام الايصال اللغوي المختلفة في الحياة اليومية •

ـ **الكتابة الابداعية** : للدلالة على النصوص المكتوبة الساعية الى الخلق الأصيل الجديد النافع الماتع في العلوم والفنون والآداب •

مهنا يمكننا القول ان تحليل « الكتابة باللغة العربية بين الواقع والطموح » لا بد من أن يشمل الأقسام الثلاثة : الكتابة ـ الكتابة الوظيفية ـ الكتابة الابداعية ، تبعاً لما بينها من ارتباط وثيق •

ثانياً : الكتابة بين الواقع والطموح :

اتقان الكتابة بشقيها : الاملاء والخط أساس لا بد منه في السلوك اللغوي للانسان العربي • وهذا الاتقان شيء مكتسب وليس فطرياً ، ولهذا السبب عد من المهمات الأولى للتعليم في المدرسة الابتدائية • بيد أن واقع الكتابة داخل المدارس والجامعات والمعاهد وخارجها يشير الى أن هناك عناية مقبولة بالاملاء ، أي كتابة الكلمات كتابة صحيحة خالية من الغلط • وهذه العناية لا تعني أننا حققنا ما نصبو اليه ، وهو اتقان مهارة الاملاء ، وانما تعني أن المدرسة العربية تُعير الاملاء قدراً من اهتمامها يُمكّن العربي من الكتابة السليمة • ودليل هذه العناية اقتصار مشكلات الاملاء العربي على قضايا لا تجاوز أصابع اليد عداً ، أبرزها كتابة الهمزة المتوسطة والمتطرفة ، وكتابة الألف اللينة في آخر

الأسماء ، وكتابة حروف لا تُنطق ونطق حروف لا تُكتب . وما عدا ذلك يبدو هيناً ليناً يمكن تلافيه بيسر وبشيء من التدقيق في أثناء التعليم . كما يمكن تلافي مشكلات الاملاء بالاتفاق بين الدول العربية على قواعد لا يخرج عليها أحد في أثناء الاستعمال . وقد تم هذا الاتفاق كما هو معروف(٧) ، الا أنه لم يُجسد في الاستعمال لغياب السلطة القومية الواحدة وسيادة السلطات القطرية بما تضمه من أمزجة فردية وآراء متباينة لا علاقة لها ، في الحالات كلها ، باللغة العربية وقدرة أبنائها على توحيد الاملاء .

أما واقع الخط العربي فبائس جداً ، ومن ثم كثرت في السنوات الأخيرة الشكاوى حول تدني سوية الخط لدى تلاميذ المدارس وطلبة المعاهد والجامعات . ووضح أثر هذا التدني في الحياة العامة . اذ غدا المرء يعاني من سوء خط الموظفين والمعلمين والمهندسين والأطباء والعاملين في الحقول الاجتماعية والاقتصادية والادارية . ولا عجب في ذلك ، فطلبة الأمس موظفو اليوم ، وتلميذ اليوم موظف الغد . وهذه السلسلة البديهية غير خافية على أحد من العاملين في الحقل التربوي ، لأنهم معنيون باعداد الجيل الناشىء ليتسنم أمور المجتمع في المستقبل . وقد كثرت البحوث والدراسات حول أفضل السبل لاعداد هذا الجيل ، الا أن حظ الخط العربي من هذه البحوث ما زال ضئيلا ، بل ان الاهتمام بالخط العربي لا يداني الاهتمام بشقيقه الاملاء على الرغم من الشكاوى التي نسمعها حول الأغلاط الاملائية لدى الكُتاب صغاراً وكباراً .

لماذا تدنت سوية الخط ؟

يعتقد الباحث أن العاملين في الحقل التربوي قادرون على الاشارة الى ثغرات كثيرة في مناهج التعليم قادت الى هذا التدني في سوية الخط . ويقف التعليم الشكلي للخط على رأس هذه الثغرات . والمراد بهذا التعليم أن المناهج التعليمية العربية تنص دائماً على حصص معينة لتعليم الخط في كل مرحلة من مراحل التعليم . وتكتفي الكتب المدرسية التي تجسد هذه المناهج بتدوين عبارات معينة تطلب من التلميذ كتابتها على دفتره . وقد تدقق الكتب أكثر من ذلك فتذيّل العبارات المدونة بشكل من أشكال الحروف العربية مكتوب بحسب قاعدة الخط المراد تدريب التلاميذ عليها . والواضح أن واضع المنهاج ومؤلف الكتاب المدرسي استراحا الى أنهما أديا واجبهما ، وتركا مهمة التنفيذ الى المعلم داخل الصف . وقياساً الى ما نراه في الحياة اليومية من تدني سوية الخط نعتقد أن المعلم داخل الصف لم ينجح في الغالب الأعم في أداء مهمته ، وسنحاول ، هنا ، تقديم وجهة نظرنا في الأسباب التي قادت المعلم الى الاخفاق ، ثم نقترح ما نراه ملائماً للقضاء عليها .

لماذا نعلم الخط العربي ؟

يعتقد الباحث أن المعلم يجهل الهدف من تعليم الخط . بل انه يؤمن أن الخط فن جميل يُستعمل في الأغراض التزيينية . وهذا الايمان صحيح اذا تحدثنا عن الخط حديثاً مطلقاً من كل قيد . فاذا قيدنا الحديث بالهدف التربوي لاحظنا أن الجانب الجمالي ثانوي، وأن الهدف الرئيسي هو الاتصال اللغوي . والمراد بذلك أن اللغة وسيلة الاتصال بين

الناس في المجتمع ، يعبر حاملها عن أفكاره وآرائه وحاجاته بوساطتها ، ويتواصل مع الآخرين من خلالها ، فيلتقيهم ويشاركهم عملية البناء الأجتماعي • وباختصار ، فاللغة وسيلة التعبير ، لكن اللغة تضم شقين : شقاً ملفوظاً وشقاً مكتوباً • أي أن وسيلة التعبير هي اللسان واليد • والانسان يتواصل مع الآخرين بالكتابة لهم وقراءة ما يكتبون ، كما يتواصل معهم بالكلام المنطوق ، اضافة الى أن الكتابة وسيلة نقل الماضي الى الحاضر (من خلال كتب التراث) ، وستكون هي نفسها وسيلة نقل الحاضر الى المستقبل • ومن ثم يؤمن الباحث أن الكتابة لا تقل أهمية عن النطق في التعبير عن الانسان • ولكي تؤدي الكتابة الغرض من خلقها لا بد من أن تكون سليمة وواضحة • أما السلامة فينهض بها « الاملاء » ، وأما الوضوح فينهض به « الخط » •

أريد القول ان الهدف من تعليم الخط العربي هو توفير « الوضوح » ، أي أن يكتب الانسان بخط يستطيع الآخرون قراءته فلا يلتبس أمره عليهم • ومن ثم اقترن البعد عن اللبس بالوضوح ، وغدا كل منهما وجها لعملة واحدة • فالفاء والغين في وسط الكلمة يلتبس أمرهما على القارىء اذا لم يفرق الكاتب بينهما بجعل العين مطموسة والفاء غير مطموسة • والميم الرقعية يجب طمسها والا فانها ستلتبس بالميم النسخية التي لا نطمسها في أثناء الكتابة • غير أن الوضوح ليس مطلقاً، وانما هو مُقيد بنوع الخط • أي أن الوضوح في الخط الريحاني يختلف عن الوضوح في الخط الديواني • ولكي نجعل التلميذ يكتسب صفة الوضوح في الخط لا بد من تدريبه على المقارنة بين أنواع الخط العربي ، وخاصة مراعاة شروط كتابة الحروف متصلة ومنفصلة ، فوق السطر وتحته • فنحن — على سبيل التمثيل لا الحصر — نرسم حروف الخط الرقعي كلها فوق السطر ما عدا الأشكال السبعة التالية : ج ح خ ع غ ﻫ (الهاء في وسط الكلمة) ، وترسم الراء والزاي في الخط نفسه فوق السطر ، في حين نُنزل ذيلهما تحت السطر في الخط النسخي •

على أن الوضوح وحده غير كاف • اذ لا بد من السرعة ، أي الكتابة بخط واضح في أقصر وقت ممكن • والسرعة هي التي تعلل اختيار الخط الرقعي أساساً لكتابة التلميذ في غالبية الدول العربية • فهو أسهل أنواع الخطوط العربية من حيث المهارات الحركية اللازمة لأداء المهمات الكتابية في زمن قصير نسبياً • ولا عجب في أن يحتل هذا الخط مكانة هامة في مناهج التعليم العربية ، فحروفه واضحة ، وقراءته ميسورة ، وزمن كتابته قصير اذا قورن بزمن الكتابة بالخط الكوفي أو النسخي أو غيرهما من أنواع الخط العربي •

ولا بد من الدقة الى جانب الوضوح والسرعة • أي أنه لا بد للتلميذ من مراعاة حجم كل حرف ، ومن وضع النقاط في أمكنتها من الحروف المنقوطة ، وحُسن وصل الحروف بعضها ببعض ، كما يحتاج التلميذ الى الترتيب الذي يعني المحافظة على المسافة بين الكلمات وحُسن توزيعها في السطر والتقيد بتقسيم الصفحة الى فقرات •

ان الهدف التربوي من تعليم الخط هو تدريب التلاميذ على مهارات الاتصال اللغوي السليم ، وهي الوضوح والسرعة والدقة والترتيب • ولا بد من أن يعي المعلم هذا الهدف

ويعمل على تحقيقه اذا رغب في أن يؤدي مهمته التربوية أداءً سليماً ، ويُسهم في تجسيد ما نرنو اليه ٠

ثالثا : الكتابة الوظيفية بين الواقع والطموح:

المراد بالكتابة الوظيفية كل كتابة تلبي حاجة من حاجات الانسان في الحياة، سواء أكانت هذه الحاجة خاصة أم عامة ، من نحو كتابة الرسائل والتقارير والاعلانات والعرائض ومحاضر الجلسات والاجتماعات والقاء الخطب والتعليمات والارشادات وتدوين المذكرات وملء الاستمارات ، وما الى ذلك من أمور تتصل بحياة الانسان وتؤدي مهمة اتصاله بالآخرين في المجتمع ٠ والمعروف أن الكتابة الوظيفية تستعمل النثر وحده ، وتحرص على أن يكون هذا النثر واضحاً محدداً بعيداً عن البلاغة والحيل الأسلوبية وتفصيلات الانشاء والخيال والعاطفة ، قريباً من المباشرة والموضوعية والعناية بالمضمون ٠

واذا كانت مهمتا الايصال والاتصال من المهام اللغوية الرئيسة فان المنطق يفرض العناية الفائقة بالكتابة الوظيفية لأنها تكسب الانسان العربي هاتين المهارتين ، وتجعله قادراً على توظيف الكتابة (الاملاء والخط) في شؤون الحياة المختلفة ٠ بل ان اتقان الكتابة الوظيفية يجعل الانسان العربي يربط لغته بالحياة ، ويدفعه الى الايمان بوظيفتها الاجتماعية ٠ والعجب العجاب أن نرى الكثرة الكاثرة من حملة الشهادات تقف عاجزة عن استعمال الكتابة في تحرير رسالة أو كتابة محضر اجتماع أو تدوين تعليمات وارشادات تريد ايصالها الى الآخرين ٠ وقد نمت حِرْفة على حساب الجهل بالكتابة الوظيفية ندعوها في سورية « العرضحلجي » ، نرى ممتهنيها يصطفون أمام الدوائر والمؤسسات ليكتبوا لأصحاب الحاجات أسطراً معدودات تجسّد الأمر الذي يرغبون في ايصاله الى احدى الجهات الرسمية ، وليس لممتهني هذه الحرفة من علم غير اتقان هذا اللون من الكتابة الوظيفية ، فلماذا لا يتقن صاحب الحاجة هذا اللون وهو يملك أداة الكتابة ؟٠٠٠

الحق أن الكتابة الوظيفية تُكتسب اكتساباً ، أي أنها خاضعة للدربة والمران ٠ ولكن العربي لا يتلقى في حياته المدرسية تدريباً يؤهله لاكتساب مهاراتها ٠ وقد رجعت الى مجموعة من الكتب التي تدور حول طرائق تعليم اللغة العربية ، فما وجدت بينها غير كتابين يشيران الى الكتابة الوظيفية ويحضان عليها(٨) ، وكان الطالب العربي لا يحتاج الى هذه الكتابة في أثناء تعلمه اللغة العربية ٠ هل نعد ذلك جناية على اللغة العربية ؟ أعتقد أن طموحنا اللغوي هو دفع الانسان العربي الى استعمال اللغة العربية الفصيحة في الحياة اليومية ٠ واذا كانت العامية تحول دون ذلك في عمليات الاتصال الشفهي فان الكتابة تجسد بعض طموحنا لأنها تستعمل الفصيحة وحدها ولا تقترب من العامية ، لكننا حين نهمل تدريب الطلاب على مهارات الكتابة الوظيفية نعمل على ابقاء الفصيحة بعيدة عن الحياة ، ونستمر نتغنى لفظياً بطموحنا اللغوي ٠ ان حياة اللغة في استعمالها ، والمؤكد أن استعمال الكتابة الوظيفية يسهم في اكساب الفصيحة المرونة ويزيد ثروتها اللغوية ويمنح العرب ايماناً بقدرتها على تلبية حاجات الحياة بدلا من الظن باقتصارها على تلبية الحاجات الأدبية وحدها ٠

ولقد كان أجدادنا يعون أهمية الكتابة الوظيفية • وقد جسدوا وعيهم في كتب تعلّم هذه الكتابة ، انطلاقاً من أنها «صناعة» قابلة للتعلّم • هذا ابن قتيبة (٢١٣ هـ/ ٢٧٦ هـ) يؤلف « أدب الكاتب »(٩) ليعلم الكتّاب بعضاً من صناعتهم • ولهذا السبب قسم كتابه الى أربعة كتب فرعية : أولها كتاب المعرفة ، وثانيها كتاب تقويم اليد ، وثالثها كتاب تقويم اللسان ، ورابعها كتاب الأبنية • صحيح أن مصطلح « الكاتب » لدى ابن قتيبة واسع يشمل الأدباء ، لكن الصحيح أيضاً أنه قصد أساساً الى تزويد كتّاب ديوان الانشاء الذين ينهضون بمهمة تحرير الرسائل الديوانية ببعض المعارف اللغوية والنحوية والصرفية والعامة بغية رفع مستواهم الثقافي ، ذلك المستوى الذي يؤثر تأثيراً مباشراً في كتاباتهم الوظيفية •• ويُخيل اليّ أن ابن قتيبة كان يعتقد أن المعارف وحدها قادرة على التأثير المباشر في مهارات الكتابة الوظيفية ، فاكتفى بما رآه ضرورياً منها وعزف عن الخوض في الأساليب التي تنمي مهارات الكتابة • وهذا ما جعل كتابه عاماً صالحاً للمبتدئين وشداة اللغة والنحو والصرف ، اضافة الى الخدمات المعرفية التي قدمها للغة الكتّاب في زمانه •

ثم حظيت الكتابة الوظيفية بكتاب «صبح الأعشى في صناعة الانشا» لأبي العباس القلقشندي (٧٥٦ هـ/ ٨٢١ هـ) ، وهو كتاب ضخم في أربعة عشر جزءاً ، يؤرخ لصناعة الكتابة من بداياتها الى منتصف القرن التاسع الهجري تقريباً • وهو ـ أيضاً ـ كتاب تعليمي ، لكن الكليات والجزئيات والمعارف والمهارات مجتمعة لم تغب عن مؤلفه • فقد حدد في بدايات الجزء الأول مراده من كتابة الانشاء قائلاً : « المراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة الى تأليف الكلام وترتيب المعاني : من المكاتبات والولايات والمسامحات والاطلاقات ومناشير الاقطاعات والهُدن والأمانات والايمان وما في معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها »(١٠) • وهذا التحديد يعبر بوضوح عن ألوان من الكتابة الوظيفية يُعنى بها الكاتب في ديوان الانشاء ، وقد خصها القلقشندي بالذكر لأنه ألّف كتابه من أجل صناعة الانشاء وحدها(١١) ، كما فعل ضياء الدين بن الأثير في « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » ، وأبو هلال العسكري في الصناعتين : الشعر والنثر »(١٢) • واذا قصرنا كلامنا على اللغة العربية لاحظنا أن القلقشندي عدها « رأس مال الكاتب ، وأسّ كلامه ، وكنز انفاقه ، من حيث ان الألفاظ قوالب للمعاني التي يقع التصرف فيها بالكتابة ، وحينئذ يحتاج الى طول الباع فيها ، وسعة الخطو ، ومعرفة بسائطها ••• والتصرف في وجوه دلالتها الظاهرة والخفية •••»((١٣)•• وكان القلقشندي مؤمناً بأن الكاتب محتاج الى بعضها دون بعض ، ومن ثم أشار الى الألفاظ التي انتخبها الكُتاب من اللغة العربية لطلاوتها ورشاقتها ، ووضح أسلوب التصرف بها وتصريفها في وجوه الكتابة ، وعُني بايراد النموذجات الدالة على ذلك ••• ومن المفيد القول ان القلقشندي لم يكن يرغب في أن يحيط كاتب ديوان الانشاء باللغة كلها ، وانما كان يرغب في أن يتزود هذا الكاتب بما يحتاج اليه منها • والدليل على ذلك أنه كرر الحديث عن الاختيار حين انتقل الى النحو(١٤) والصرف(١٥) وغيرهما •

ان كتاب « صبح الأعشى في صناعة الانشا » موسوعة في صناعة الكتابة ، ينم عنوانه عن أن القلقشندي مؤمن بأن الانسان «الأعشى» الذي لا يملك مهارات صناعة الانشاء قادر

على اكتسابهـا اذا استوعب ما يحتاج اليـه الكاتب من مواد الكتابة ، وكأن هذه المـواد « صُبْح » ينير للأعشى السبيـل الى اتقـان الكتابة · بـل ان القلقشندي أصـر على أن كتابة الانشاء صناعة ، تحتاج كأية صناعة الى مران وتربية ومعاناة · وهذا ما يجعلنا ننادي بتعديل في التربية الحديثة للانسان العربي ، بحيث يضم هذا التعديل تدريبـاً علمياً على ألوان الكتابة الوظيفيـة نُحقـق بوساطتـه طموحنا في استعمال اللغة العربية في الحيـاة اليومية · ونقترح بين يدي هذا التعديل هدفاً ومهارات محددة · أما الهدف فهو تلبية حاجات الانسان العربي المختلفة ، و « تقوية الروابط الفكرية والثقافية بين الأفراد والجماعات»(١٦) وزيادة ثقة العربي بلغتـه ونفسه · وأمـا المهارات التي نقترح التركيز عليها فهي :

- **مهارات كتابة الرسائل الشخصية والعامة ، بتحديد الحاجة الاجتماعيـة للرسالـة ، واللون الملائم لهذه الحاجة (رسالة الى الأهل أو الصديق ـ برقية ـ دعوة عامـة ـ بطاقة مناسبة ···) ، والغرض مـن كتابة الرسالة ، والأسلوب المناسب لكل لون ، والعناية بالصدق في التعبيـر عن الآراء والمشاعر والابتعاد عن العبارات العامة ·**
- **مهارات كتابة التقارير عن ألوان النشاط في المجتمع المحيط بالانسـان ، باصطناع أسلوب المشكلات ·**
- **مهارات كتابة الاستمارات والبيانات والطلبات واللافتات، والتركيز في أثناء التدريب على قيمة التكثيف اللغوي المصحوبة بالوضوح والتحديد ·**

وليست القضيـة ، من قبل ومن بعـد ، قضية اقتراحات محددة ، وانمـا هي قضية التربية العربية التي لم تضع في «استراتيجيتها» تنمية مهارات الاتصال اللغوي بـين أفـراد المجتمع العربي ، مكتفية بالتعبير الابداعي ، غافلة عن أن اللغـة العربيـة وسيلة لتلبيـة الحاجـات الاجتماعيـة · أو قُل ان « استراتيجية » التربية اللغوية العربية تحتـاج الى الانطلاق من أن اللغة العربية أداة اتصـال ، أي ابلاغ واخبار ، وليست غاية في حد ذاتها· ولا بد لهذا الاتصال من مهـارات ، أهمهـا بالنسبة الى الكتابة مهارات الارسال بأركانها الأربعة : الكاتب والأفكار المراد ايصالها والرموز الكتابية والقـارىء المتلقي للأفكـار · ولا شك في أن واقع الكتابة الوظيفية سيبقى متردياً اذا لم نعدل « استراتيجية » التربيـة اللغوية بغية نقل اللغة العربيـة الى حقـل الاستعمال لتكتسب الحيوية والسعة ·

رابعاً : الكتابة الابداعية بين الواقع والطموح :

المراد بالكتابة الابداعية كل كتابة فنية أو منهجية قـادرة على التأثـير في القـارىء واقناعه بمحتواها الجديد أو النافع أو الماتع · وهي تشمل العلوم والفنون والآداب ، وليست مقصورة على أجناس الأدب وما ينتجه الأدباء · كما أن لها قيداً واحداً هو الابداع ، أي خلق الجديد المفيد الماتع الذي يحـرك العقـل أو الوجدان أو كليهما · ولا بـد للكاتب المبدع من الموهبة في حقل اختصاصه ، ومن امتـلاك المعارف والمهارات اللغوية التي يستعملهـا في انتاج النصـوص الابداعية · ومن الخطأ الشائع الاعتقاد بأن الابداع حكر على الأجنـاس

الأدبية (الشعر ـ المقالة ـ القصة ـ الرواية ـ المسرح) • ففي الكتابة التاريخية ابداع لا يقل اهمية عن الابداع في الكتابة العلميـة والفلسفية والأدبية • والدليل على ذلك أن هناك أعضاء في مجامع اللغة العربية اختصاصيين في الطب والكيمياء والفيزياء والفلسفة، يتقنون اللغة العربية ويجيدون استعمالها في انتاج نصوص ابداعية ومعجمات اختصاصية لا يشك أحد في مستواها وفائدتها ودقتهـا • وهناك ـ أيضاً ـ اتحادات عربية (كاتحاد الكتاب العرب بدمشق واتحاد كتاب المغرب •••) تضم كتاباً من اختصاصات متنوعـة ، ولا تقتصر على الأدبـاء • بـل انهـا ترفض أن تسمى « اتحاد الأدباء » تبعاً لايمانها بالدلالة الواسعة للكتابة والكاتب •

وعلى الرغم من أن الكُتّاب قلة (أو : نخبة) في المجتمـع العربي ، الا أن طموحنـا يفترض أنهم مهندسو العقـل والروح ، وأن انتاجهم يعبر عن رؤيا شاملة للكون والمجتمع « تنطلق من الحاضر لتفسر الماضي وتشمل المستقبـل حاملـة تطلعـات الأمة الى عالـم أفضل »(١٧) • ونحن نطرح هذا الافتراض ، افتراض توافر الرؤيا لدى الكاتب لسببين : أولهما ايماننا بأن الكتابة لا تكون ابداعيـة اذا لم تتوافر فيها الرؤيا الشاملة ، وثانيهما معرفتنا بالواقـع التعس الـذي يعيش فيـه الكُتّاب العرب • وهذان السببان ، في رأيي ، يعبران عن الواقع الذي ننطلق منه والطموح الذي نرنو اليه •

أ ـ اعداد الكاتب :

نقصد باعداد الكاتب تدريبه على أسرار حرفة الكتابة وأساليبها بغية صقل موهبته ومساعدتها على الانتاج الابداعي الأصيل • وهذا يعني أن الاعـداد لا يخلق الموهبـة لدى فاقدها ، لأن هـذه الموهبة استعـداد فطري وليست أمراً مكتسباً • وما الاعداد الا تعريف الموهوب بطبيعة الكتابة ، وتدريبه على أسرارها وأساليبها ، وغرس مهاراتها فيه • أي أن الاعداد هو اكساب الكاتب مهارات صناعـة الكتابة بعد توافر الموهبة لديه • ومسـوّغ الاهتمام باعداد الكاتب ما هو معروف مـن أن الموهبة لا تكفي وحدهـا لانتاج الكتابـة الابداعية ، اضافة الى أنهـا قابلة للتفتـح والنمو اذا بزغت في بيئة مواتية ، وللضمور والموت اذا لم يكن في البيئة ما يساعدها على الحياة • ولهذا السبب تُعنى الأمـم بالكشف عن الموهوبين في المدارس الثانوية والجامعات ، وتصطنع الأساليب لتدريبهم بغية الافادة من انتاجهم ، وهي ـ في ذلك ـ تنطلـق من أن الموهوب يختلف عن المبـدع • فالموهـوب هو الذي يملك قدرة عقلية عالية ، في حين يتّسم المبدع بالانجاز الجديد الأصيل ، لكنها ترعى الموهوب ليصبح مبدعاً ، لأنهـا تنظـر الى المستقبل في أثناء تعاملها مع الموهوبين ، في حين تنظر الى الماضي في أثناء تعاملها مع المبدعين ، وكأنها ـ في حال الموهوبين ـ تضع الاعـداد والرعاية والتوجيه نصب أعينهـا كي تتمكن من الافادة منهم في المستقبل(١٨) • وغير خاف على أحد أن « معهد غوركي للآداب » يـؤدي هذه المهمة في الاتحاد السوفييتي • فهو يقبل الموهوبين ويُعدّهم طـوال سنـوات ليكونوا أعضاء في اتحاد الكتاب السوفييت • وتلجـأ أمم أخرى الى تخصيص أمكنة لممارسة الهوايات والنشاطات يتوافر فيها مشرفون مؤهلون لاكتشاف المواهب ورعايتها وتوجيهها •

تلك حال اعداد الكاتب لـدى الأمم الأجنبية،وهي حال نرنو اليها في الوطن العربي. ذلك أن آلاف المواهب وئدت لدينا لفقـدان الرعاية والتوجيه ، وغالبت مواهـب أخرى الصعاب فنجحت في الوصول الى مستوى ابداعي هزيل أو متوسط أو جيد بحسب قدراتها الذاتية والامكانات الفردية لمن يحيطون بها • ولا تكفي هنا ، الدعوة الى الاهتمام بالموهبة، ولا حضّ المسؤولين على افتتاح المعاهد القادرة على اكتشاف الموهوبين ورعايتهم وغرس مهارات الكتابة فيهـم ، لأن القضيـة ليست قضية افتتـاح معاهد لاعـداد الكُتّـاب ، ولا قضية ايمان بأثر الموهوبـين في المجتمـع العربي ، وانما هي قضية موقفنا من اللغـة العربية الفصيحة ، وهو موقف ينم عن أننالا نحترم هذه اللغه وان كنا نُكثر من التغني اللفظي بها • والميـدان التربوي خير مثـال على النيات الطيبة التي تكمن وراء تغنينـا اللفظي باللغة العربية ، واخفاقنا في ترجمتها الى سلوك لغوي ايجابي •

أين الخطأ التربوي المفضي الى اهمـال اعداد الكاتب ؟ يخيل الي أن هناك خطـأ في تدريس اللغة العربية ، وآخر في فهم علاقـة العلوم والفنون باللغة العربيـة • أما خطـأ التدريس فكامن في الاتجاه الى تزويد الطالب بالمعارف اللغوية والأدبية ، واهمال تدريبـه على المهارات الخاصة بالكتابة • وقد نتجت عن ذلك مشكلة « التعبيـر الابداعي » ، تلك المشكلة التي شغلت المعنيين بتدريس اللغـة العربية من معلمين ومدرسين ومؤلفين دون أن يعثروا على حل ناجع لها • حتى ان الدراسات العلمية « أظهرت بجلاء أن أكثر مـن نصف المعلمين يرون أن درس الانشاء ثقيـل على النفس وممل «(١٩) بـل ان المعلمين التقـوا طلابهم في هذا الأمر ، اذ ان الطـلاب عدوا« الكتابة من أقل المهارات اللغويـة أهمية ، وان أكثر من ثلثهم يشعرون بأن درس الانشاءممل وثقيل عليهم »(٢٠) ، على الرغـم مـن اقرار المعلمين والطلاب معاً بأهمية التعبير في تحصيل المواد الدراسية • والحق أن نتائـج هذه الدراسة دقيقـة في دلالتهـا على واقـع التعبير الابداعـي لدى المعلمـين والطـلاب العرب • فهم يشعرون بأنه « ثقيل ممل »لأنهم لا يملكون المهارات التي يتحلى بها الكاتـب ، ولا يعرفون الأساليب التي تفضي اليها ،ولهذا السبب يهربون من التعبير ، وهو فرع غـير مُتقن ، الى فزوع اللغة الأخرى ، وهي فروع مقننة سواء أكان الفرع نحـواً أم قراءة أم أدباً • انهم يلجؤون الى المعارف لأنهم اعتادوا التعامل معها ، ويهربون مـن التعبـير لأنـه مهارات مركبة متنوعة • وقد سلكتْ المعلمين والطلاب في سلك واحد لأن الخطأ في تدريس اللغة العربية يشملهم جميعـاً • فالمعلمون في أثناء اعدادهم التربوي لم يتلقوا شيئاً يعينهم على اعداد الطالب الكاتب ، وحـين تسنموا أمور تدريس هذه المادة اضطروا الى تدريس شيء يفتقـرون الى مهاراتـه ، فبدا الأمـر « ثقيلا مملا » بالنسبة اليهم والى طلابهـم الذين لم يفيدوا منهم •

وليس في المكتبة العربية ما يعين هؤلاء المعلمين والطلاب على تذليل هـذه العقبة • فالكتب الاختصاصية بطرائق تدريس اللغـة العربية تُفرد صفحات مطولة لتعليم التعبير الابداعي وتصحيح موضوعاته ، لكنها لا تهتم باعداد الطالب الكاتب ، وكأنها تفترض أن المعلـم يتقـن المهـارات الضرورية للتعبيـر الابداعي ، وأن سلوك الطالب سيتحلى بهـا

اذا التفت المعلم الى تصحيح الموضوعات . أما الشيء الواجب تصحيحه في هذه الموضوعات فامر لا تلتفت اليه ولا تُعنى بـه . كذلـك الأمر بالنسبة الى الكتب التي تصدت لتعليم الكتابة . فهي نادرة في المكتبة العربية ، ولو أنعمنا النظر فيها لما خرجنـا بشيء يخـدم هدفنا . فكتاب « صناعة الكتابة »(١٢) يطرح مفهوماً سليماً للكتابة الابداعية ، لكنه يكتفي في أثناء تجديد هذا المفهـوم بمجموعة مـن المعارف العروضية والبلاغية ، وكأنه كتاب في العروض والبلاغة وليس كتاباً في صناعة الكتابة .

ان الخطأ في تدريس اللغة العربية هـو المسؤول عن التردي في اعداد الطالب الكاتب والمعلم المربي ، وهو نفسـه المسـؤول عـن القصور في الكتب الخاصة بطرائق تعليم اللغة العربية وبصناعة الكتابة الابداعية . وقـد حددنا هـذا الخطـأ في الاتجـاه الى تزويـد الطالب بالمعارف اللغوية والأدبية ، واهمـال تدريبه على المهارات الخاصة بالكتابة . ونود هنا تقديم أمثلة توضـح هـذا الخطـأ بغيـة تلافيه ، انطلاقاً من أن هذا التوضيح يشير الى بعض مهارات الكتابة الابداعية ويقترح حلاً مقبولاً لمشكلة «التعبير الابداعي» في المدارس والمعاهد والجامعات ، ويسهـم في اكتشـاف الطالب الموهوب .

□ مثال من النحـو :

يلتفت المعلون في أثناء تعليم النحو الى تزويد الطالب بالمعارف النحوية ، فيقولون في درس الفاعل ان « الولد » فاعـل في الجملـة الآتية : « نام الولد على السريـر » ، لأنـه القائم بالفعل . ويقولـون أيضـاً ان هـذا الفاعل يأتي بعد الفعل ، فاذا تقـدم عليه أصبح مبتدأ : « الولد نام على السرير » . وما قاله المعلمون صحيح ، ضـروري لمعارف الطالب النحوية ، لكنه غير كاف اذا انطلقنـا من أن الهدف من تعليم النحـو هـو تدريب الطالب على اكتساب مهارات صوغ الجملـة العربية . وهذا الاكتساب يحتاج الى « علم النحو الوظيفي » الذي يطرح السؤال الآتي : لمَ قُدّم « الولد » في الجملـة الثانية علـى الفعل ؟ . لقد قُدّم « الولد » على الفعل لأن الكاتب أراد تنبيه القارىء على الفاعل . ولو رغب في تنبيه هذا القارىء على المكان لقدّم « على السرير » : « على السرير نام الولد ». وهذا التحليل المستند الى علم النحو الوظيفي يضع أمام الطالب الطرق الممكنة لصوغ الجملة العربية ، ويتيح له فرص اختيار أكثرها قدرة على التأثير في القارىء . ولا شك في أن تحليل المستوى التركيبي سيرسخ في الطالب الموهوب قاعدة مهمة ، هي « أن لكل تعبيـر في اللغـة وظيفة يؤديها ، وأن أي اختلاف في التعبير ، على أي مستوى ، أكان مستـوى لفظيـاً أم متعلقاً بالتأخير والتقديم في أجزائه أو بالحذف أو بالزيادة ، سيؤدي بطبيعة الحال الى تعديل أو تغيير في وظيفته . ودرجة احاطة الطالب بالعلاقة الوثيقة بين التعبير والوظيفـة لهـا أكبر الأثر في أسلوبه الكتابي أو الخطابي »(٢٢) .

□ مثال من البلاغة :

النقص الذي أشرنا اليه في المثال السابق هو اهمال تحليل المستوى التركيبي للجملة استناداً الى علم النحو الوظيفي . وقد يُردّ على هذا النقص بأن الدراسـات الأسلوبيـة

الحديثة لم تدخل مدارسنا وجامعاتنا بعد ، ولا وجه للوم المعلمين اذا أهملوا الافادة منها في تدريب الطالب على مهارات الكتابة • وهذا الرد مقبول لكنه غير مقنع لسببين : أولهما أننا نسوّغ اهمالنا البحث عن الوسائل الكفيلة بخدمة لغتنا العربية بجهلنا الدراسات اللغوية الحديثة التي قدمت علم النحو الوظيفي وأمثاله • ومسوّغ « الجهل » غير مقنع، ولو سلمنا به لما أمكننا التسليم بجهلنا التراث اللغوي العربي الذي قدم نظرية تفضي الى علم النحو الوظيفي ، هي نظرية النظم لدى عبد القاهر الجرجاني • وثانيهما أن لدينا علماً بين علوم البلاغة العربية ، هو علم المعاني ، انصرف الى الجملة وأجزائها ، ولاحق قضايا التقديم والتأخير • ومن ثَمّ كان المعلم قادراً على سد النقص في الدرس النحوي التقليدي بالاستعانة بعلم المعاني في تحليل تقديم كلمة على أخرى في الجملة المذكورة في المثال السابق وفي غيرها من الجمل، كقولنا : « يأكل التفاحة » و « هو يأكل التفاحة » • فتقديم الضمير « هو » (المسند اليه) في الجملة الثانية ذو غرض بلاغي هو تقوية الحكم وتقريره ، لأنك لا تريد من الجملة الثانية أن غيره لا يأكل التفاحة ، ولا أن تعرض بانسان آخر يأكل التفاحة ، وانما تريد أن تقرر في ذهن السامع أنه هو نفسه يأكل التفاحة ، وفي ذلك نوع من الاعلام بعد التنبيه كما نص عبد القاهر الجرجاني •

□ مثال من الأدب :

ان شعور المعلمين بثقل التعبير الابداعي نابع من أنهم يفتقرون الى المهارات التي تمكنهم من الحكم الكلي على موضوعات الطلاب • والظن أن التعليم الذي تلقاه هؤلاء المعلمون قادهم الى التوقف عند الألفاظ والجمل ، والعزوف عن الحكم على النص • وهم يشعرون في قرارة نفوسهم أن حكمهم على الألفاظ والجمل وحدها لا يقيس قدرة الطالب الكتابية ، ولا يعين الموهوب منهم على تغذية موهبته في الكتابة • بيد أنهم لا يملكون غير المعارف التي توهلهم للحكم على صحة الألفاظ استناداً الى قواعد الاملاء والصرف، كما أنهم لا يملكون غير المعارف التي يحكمون بوساطتها على الجملة استناداً الى قواعد النحو • تلك هي الحدود التي يقفون عندها استناداً الى ما يملكون • وهذه الحدود تدل على النقص في تدريس اللغة العربية ، ذلك النقص الماثل في اهمال « الأسلوبية » التي تُعين المعلم على تقديم حكم شامل على الكتابة الابداعية التي يقدمها الطالب ، سواء أكانت شعراً أم قصة أم مقالة أم مسرحية •• فالمعلم يُدرّس طلابه «الضمير» و «الروابط» في النحو ، لكنه يجهل أن الأسلوبية تفيد من الضمير والروابط في الحكم الكلي على النص، كما تفيد من المهارات التي رسختها الأجناس الأدبية في الحكم على النصوص الابداعية • وقد لاحظ مفيق دوشق بعد دراسته مائة مقالة كتبها طلاب جامعيون في اختصاصات مختلفة أن هناك غموضاً في وظيفة «الفقَر»، في المقالة ، وفي فلسفة وجودها واستعمالها ، وفي تقسيم المقالة الى مقدمة ومتن وخاتمة ، اضافة الى ضعف الترابط المنطقي والسياقي، وتدني القدرة على الاقناع والتأثير •

ان الأمثلة الثلاثة السابقة اشارات موجزة الى تعديل الخطأ في الاتجاه السائد في تدريس اللغة العربية • غير أن نجاحنا في تلافي هذا الخطأ لا يعني القضاء على الخطأ التربوي المفضي الى اهمال اعداد الكاتب • ذلك أن هناك خطأ آخر لا يقل أهمية عن سابقه ، هو الفهم السائد لعلاقة العلوم والفنون باللغة العربية • وهذا الخطأ نابع من أننا نعتقد أن اعداد الكاتب مهمة مادة اللغة العربية ليس غير ، وكل تقصير في هذا الاعداد يُعزى الى هذه المادة دون غيرها • وقد نتجت عن هذا الاعتقاد مشكلة خطيرة ، هي تنصُّل مدرّسي العلوم والفنون من المسؤولية اللغوية أولا ، ومن اعداد الكاتب ثانياً • ولعل ذلك كله نتيجة بديهية لانصراف الدراسات اللغوية العربية الى النصوص الأدبية وحدها ، وعزوفها عن تحليل استعمال اللغة العربية في الحقول العلمية والفنية • ومن ثم ساد الظن بأن مشكلة « التعبير الابداعي » مشكلة خاصة بمادة اللغة العربية وليست عامة شاملة المواد كلها • كيف تنمو مهارات الكتابة الابداعية لدى الطالب الموهوب وهو يرى الانفصال بين فروع اللغة العربية ، والقطيعة بين مادة اللغة العربية والمواد الأخرى ؟ •• كيف نُدرّس الطالب المنطق في مادة الفلسفة ولا نسمح له باستخدامه في بناء المقالة ؟ أليس المنطق ضرورياً لترابط الأفكار وترتيبها ؟ ألا يعاني الطالب الموهوب من الخلل في ربط أفكاره بعضها ببعض ؟ ••• لا بد من أن يُدرّب الطالب على الكتابة في المواد كلها ، تجسيداً لوحدة اللغة ووظيفتها ، وصوناً للموهبة من أن تضيع في الطريق الطويلة الشائكة المفضية الى الابداع •

ب ـ مشكلات الكاتب والكتابة الابداعية :

أعتقد أن المشكلة الأولى التي تواجه الكاتب في مجتمعنا العربي هي دخوله حقل الكتابة الابداعية دون اعداد تربوي سليم • فموهبته تدفعه ـ على سبيل التمثيل لا الحصر ـ الى كتابة القصة ، فيروح يكتب في هذا الجنس الأدبي دون أن يملك المهارات التي تصقل موهبته وتجعل انتاجه القصصي ابداعياً أصيلاً • وتراه يلجأ الى قراءة القصص التي كتبها قاصون عرب وأجانب ليعوض النقص في اعداده التربوي ، لكنه يخفق غالباً في أن يفيد من ثقافته القصصية لأنه لا يعرف لهذه الثقافة هدفاً غير الاطلاع على القصص والاستمتاع الجمالي بها • أما البحث عن أسرار القص (من زاوية الرؤية ووحدتي الحدث والانطباع الى تفصيلات الانشاء) فأمر لا يدركه لأنه لم يتلقَّ اعداداً يؤهله لهذا الادراك ويسمح له بتوظيف قراءاته في صقل موهبته القصصية • وربما نشر هذا الكاتب قصصه في المجلات والكتب ، لكنه يبقى في قرارة نفسه مؤمناً بأنه لم يملك أسرار الصناعة التي شغف بها واتجه اليها • وأزعم أن هذا الأمر سبب من أسباب تدني مستوى الكتابة الابداعية في مجتمعنا العربي ، كما أزعم أن تلافيه ممكن اذا وفرنا للموهبة فرص الاعداد السليم • واللافت للنظر أننا ندرب الجندي ليقاتل ، والطبيب ليداوي ، والعامل ليعمل ، فلماذا لا ندرب الكاتب ليكتب ؟ •

يواجه الكاتب العربي مشكلة ثانية ، هي معرفته بأن انتاجه لا يلبي حاجاته المعيشية فيضطر الى العمل في حرفة أو وظيفة تؤمن له دخلا يقيه العوز وذل السؤال ، ومن ثم

تبقى الكتابة هواية يمارسها في أوقات فراغه من عمله اليومي • وهذا الأمر الاقتصادي الصرف يصدق على الكتّاب المبتدئين في هذه الصناعة وعلى المجودين فيها ، ولا بد من أن يؤثر تأثيراً سلبياً في مستوى الكتابة الابداعية العربية • وأزعم أن القضاء على هذا التأثير السلبي ممكن اذا انطلقنا من أن الثقافة حاجة ضرورية للانسان ، ورحنا نوفر فرص الحياة الكريمة للكتّاب ، والتفتنا في أثناء ذلك الى تنظيم العلاقة بين الكاتب والناشر ، والى رفع القيود التي تكبل حركة انتشار الكتاب في الوطن العربي •

هناك مشكلة ثالثة يواجهها الكاتب العربي ، هي مشكلة العلاقة بالسلطة • وهذه المشكلة شائكة ذات تأثير كبير في مستوى الكتابة الابداعية • فعلّة وجود الكاتب هي الكتابة ؛ فاذا لم يكتب فقد علة وجوده • والكتابة الابداعية منحازة الى الانسان الحر الكريم ، عاملة على الدفاع عنه ورفعة شأنه • أما علة وجود السلطة فهي الحكم ، فاذا لم تحكم فقدت علة وجودها • والحكم هو تنظيم المجتمع وتنميته وتهيئة أسباب السعادة لأبنائه •• ويخيل اليّ أن الكاتب يلتقي السلطة في الهدف ويختلف عنها في أسلوب الوصول اليه • ومن الخطأ الظن أن الكاتب والسلطة لا يلتقيان ، وأن التعارض بينهما أزلي • بيد أن المنطق العلمي شيء مغاير للواقع الملموس • ففي هذا الواقع سلطة تفهم الحكم على أنه السيطرة والسيادة والتميز وقمع المقهور ليزداد رضوخاً وتبعية • وهذا أمر يرفضه الكاتب ويرغب في تغييره بوساطة الكتابة ، لكن ذلك يعرّضه لأذى السلطة ، فماذا يفعل ؟ اذا صمت عن ممارسات السلطة شعر بخيانة الهدف من الكتابة ، واذا عالج هذه الممارسات مُنع من النشر أو سرّح من عمله أو قيدت حركته أو زج به في السجن • الواضح أن غالبية الكتّاب العرب اكتفت بالكتابة عن السبب دون المسبب ، أو راحت تغرق في حيل أسلوبية شكلية تحجب عنها مساءلة الرقيب وأذاه ، أو استسلمت للأمر الواقع وشرعت تكتب ما يعزز أيديولوجية السلطة الحاكمة • وقد أثر ذلك في عنصر الصدق - وهو جوهر الكتابة الابداعية - وقاد الكتّاب الى نوع غريب من الحياد جعل القارىء العربي يشك في مصداقية الكاتب والكتابة • « وبما أن لكل أيديولوجيا سلطتها ، ولكل سلطة أيديولوجيتها ، فان لكل قطر أدباءه ومفكريه المنسجمين مع الوضع القائم • فلا عجب أن طغت الانتهازية والسوقية والوسطية على الفكر والأدب ، مع ما يترتب على ذلك من طغيان المباشرة والتقليدية والامتثال والراهنية »(٢٣) ، اضافة الى جعل الخيال الابداعي مهيضاً كسير الجناح • هل يكمن حل هذه المشكلة في الديمقراطية ؟ ان الديمقراطية لا تُمنح وانما تكتسب اكتساباً ، فماذا فعل الكتّاب العرب لاكتساب هذه الديمقراطية وترسيخها في المجتمع العربي ؟ •••

المشكلة الرابعة التي تواجه الكاتب العربي تتعلق بالمنهجية ومناهج البحث • فهذا الكاتب لم يمر بفترة اعداد وتدريب على قواعد الكتابة ، من اختيار الموضوع وتدوين متنه وهوامشه ومصادره ومراجعه وما الى ذلك من ارشادات ووسائل اصطلح على تسميتها بالمنهجية • ونستطيع القول ان افتقار الكاتب العربي الى مرحلة الاعداد جعل

كتابته تفتقر الى المنهجية التي تكدبها المستوى العلمي المطلوب • وهكذا بتنا نقرأ بحوثاً ودراسات عربية لا تتوافر فيها الأمانة العلمية ، ولا الهدف الواضح المحدد ، ولا الاطلاع على الدراسات السابقة ، مما جعلها بعيدة عن الابداع الأصيل ، ذلك الابداع الذي لا يتجاهل ما كتبه السابقون في حقل اختصاص الكاتب ، وانما يستند اليه ليبدأ من حيث انتهوا ، ويبني فوق ما أشادوه ،معترفاً بما قدموه ، محدداً هدفه ، متقناً أسلوب الوصول اليه • ان الابداع ليس خلقاً من عدم ، وانما هو خلق الاضافة الجديدة النافعة الماتعة • وقد أسهم في تدني المستوى العلمي للكتابة الابداعية العربية أمر آخر افتقر اليه الكاتب العربي ، هو ضعف اطلاعه على مناهج البحث ، وهو شيء آخر غير المنهجية • ان منهج البحث هو الطريق الواضحة التي يسلكها الكاتب في كتاباته ، وهذه الطريق تختلف بحسب العلوم لكنها مرتبطة دائماً بالمنطق وطرق الاستدلال والاستنتاج والتحليل • وسواء أكان منهج البحث وصفياً أم استقرائياً أم تحليلياً تركيبياً أم قياسياً أم استنباطياً أم غير ذلك فانه مجموعة طرق واضحة ذللها الباحثون الغربيون وقننوا اجراءاتها دون أن يصبحوا عبيداً لها • والمشكلة التي واجهها الكاتب العربي هي انبهاره بهذه المناهج ، ووقوفه منها موقف التقديس • ومن ثم رأيناه يجهد في تطبيقها «حرفياً» ، دون أن يبحث في تراثه عن مثيلاتها أو يسعى الى وضعها في سياق الثقافة العربية أو يفيد من مفهوماتها ومعارفها في تشكيل موقفه الخاص • وان لذلك كله أثراً سلبياً في الكتابة العربية، يتجلى حيناً في «التغريب»، وحيناً في رفض التراث وتوهين انجازاته •

ان المشكلات السابقة بعض مما يعانيه الكاتب والكتابة الابداعية العربية • ولا شك في أن هناك كُتاباً لم يتأثروا بها ، أو عانوا من بعضها دون بعض • كما أن هناك كتابات ابداعية أصيلة خرقت المحرمات ، وتسلحت بمنهجية صارمة ، وأحسنت توظيف مناهج البحث الحديثة ، وأحيت التراث المنهجي العربي ، وعبرت عن قدرتها على تقديم رؤيا يتلامح فيها مصير الأمة العربية •

وبعد ،

فقد حاولنا في هذه الدراسة تحديد الدلالة اللغوية والاصطلاحية لكلمة « الكتابة »، ثم رحنا نبحث في أقسامها الثلاثة : الكتابة ـ الكتابة الوظيفية ـ الكتابة الابداعية • فنبهنا على الواقع البائس للخط العربي ، وأشرنا الى ضرورة تعديل الهدف من تعليمه لتتحقق الغاية الأساسية منه ، وهي الاتصال اللغوي السليم • كما نبهنا على أهمية الكتابة الوظيفية في حياة الانسان العربي ، ووضحنا ما جره اهمال التدريب عليها • ثم حللنا واقع الكتابة الابداعية من جانبي الاعداد والمشكلات • وكنا ، في أثناء ذلك كله ، نجعل الواقع طريقاً الى الطموح ، دون أن نغفل عن التداخل بين جوانب المشكلة اللغوية ـ التربوية التي انصرفنا اليها •

□ الاحـالات :

١ ـ انظر : أساس البلاغة للزمخشري ٥٣٥ ، وترتيب القاموس المحيط للزاوي ٤/١٠ ـ ١١ ، والمعجم الوسيط ٢/٧٧٤ ـ ٧٧٥ ، والمعجم المدرسي ٨٩٤ .
٢ ـ الكليات للكفوي ٤/١١٧ ـ ١١٩ .
٣ ـ المعجم الوسيط ٢/٧٧٤ ـ ٧٧٥ ، والمعجم المدرسي ٨٩٤ .
٤ ـ المعجم الوسيط ٢/٧٧٤ ـ ٧٧٥ .
٥ ـ المعجم الأدبي ـ جبور عبد النور ـ ص ٢١٨ .
٦ ـ معجم مصطلحات الأدب ـ مجدي وهبة ـ ص ٦١٢ .
٧ ـ اقترح المؤتمر الثقافي العربي الأول (بيت مري ـ لبنان١٩٤٧) قواعد محددة للاملاء العربي . انظر نصها في ص١٢٠ من : تيسير تعليم اللغة العربية ، سجل ندوة الجزائر ١٩٧٦ ـ اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية ـ القاهرة ١٩٧٧ . كما اقترح مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، في دورته السادسة والأربعين عام ١٩٨٠ ، ضوابط للاملاء . انظر نصها في ص ١٤٧ وما بعد من : العيد الذهبي لمجمع اللغة العربية ـ د. عدنان الخطيب ـ دار الفكر ـ دمشق ١٩٨٦ .
٨ ـ هما : المرجع في تدريس اللغة العربية ـ د. سامي الدهان ـ مكتبة اطلس ـ دمشق ١٩٦٢ . و : في طرائق تدريس اللغة العربية ـ د. محمود أحمد السيد ـ جامعة دمشق١٩٨١ .
٩ ـ الاعتماد هنا على طبعة محب الدين الخطيب ـ المكتبة التجارية ـ القاهرة ١٣٤٦ هـ .
١٠ ـ صبح الأعشى في صناعة الانشا للقلقشندي ١/٥٤ ـ الطبعة المصورة عن الطبعة الأميرية ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ القاهرة ١٩٦٣ .
١١ ـ بعد فراغ القلقشندي من فنون المكاتبات الديوانية أخذ يخوض في الكتابات التي تصدر عن كتّاب الديوان خارج الشؤون الرسمية ، فذكر المقامات ورسائل الغزو والصيد والمفاخرات وغير ذلك . وقدم لذلك كله بنموذجات دالة عليه . انظر الأجزاء ١١ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ خصوصاً،وراجع ص ٢٨٢ وما بعد من : حمزة ، د. عبد اللطيف ـ القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ـ أعلام العرب ١٢ـ وزارة الثقافة ـ القاهرة ١٩٦٢ .
١٢ ـ هناك كتب أخرى في هذا الحقل ، منها « صناعة الكتاب » لأبي جعفر النحاس ، و « كنز الكتاب » لأبي الفتح كشاجم .
١٣ ـ صبح الأعشى ١/١٥٠ .
١٤ ـ انظر : صبح الأعشى ١/١٦٧ .
١٥ ـ انظر صبح الأعشى ١/١٧٧ .
١٦ ـ في طرائق تدريس اللغة العربية ـ د. محمود أحمد السيد ـ ص ٣٦٦ .
١٧ ـ المشاكل المشتركة للادباء العرب ـ محي الدين صبحي ـ مجلة « شؤون عربية » ـ العدد ٥٩ ـ ايلول / سبتمبر ١٩٨٩ ـ ص ١٦١ .
١٨ ـ انظر ص ٢١ وما بعد من : الفيصل ، سمر روحي ـ تنمية ثقافة الطفل العربي ـ الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية ـ الكويت ١٩٨٨ .
١٩ ـ اتجاهات الطلبة والمعلمين نحو الكتابة باللغة العربية في المدارس الثانوية الأردنية ـ د. خلف المخزومي و د. مفيق دوشق ـ مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ـ العدد ٣٥ ـ تموز / كانون الأول ١٩٨٨ ـ ص ٢٦٧ .
٢٠ ـ المرجع السابق ـ ص ٢٦٩ .
٢١ ـ للدكتور فيكتور الكك والدكتور أسعد علي ـ بيروت ١٩٧٢ .
٢٢ ـ تدريس اللغة العربية لأغراض أكاديمية في ضوء الدراسات الأسلوبية الحديثة ـ د. مفيق دوشق ـ مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ـ العدد ٣٠ ـ كانون الثاني/حزيران ١٩٨٦ ـ ص ١٥٥ .
٢٣ ـ المشاكل المشتركة للادباء العرب ـ محي الدين صبحي ـ ص ١٦٢ .